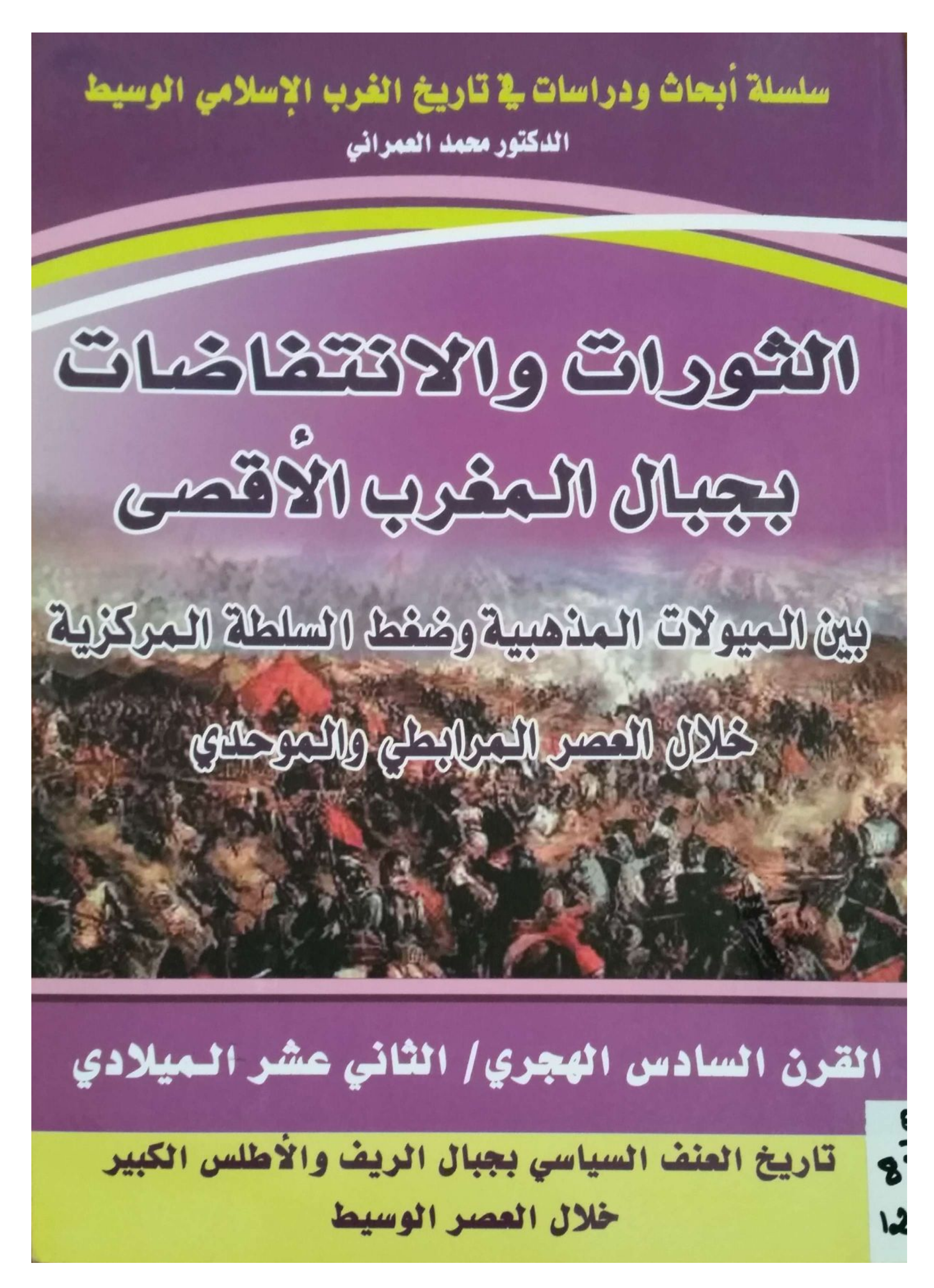


Scanned by CamScanner

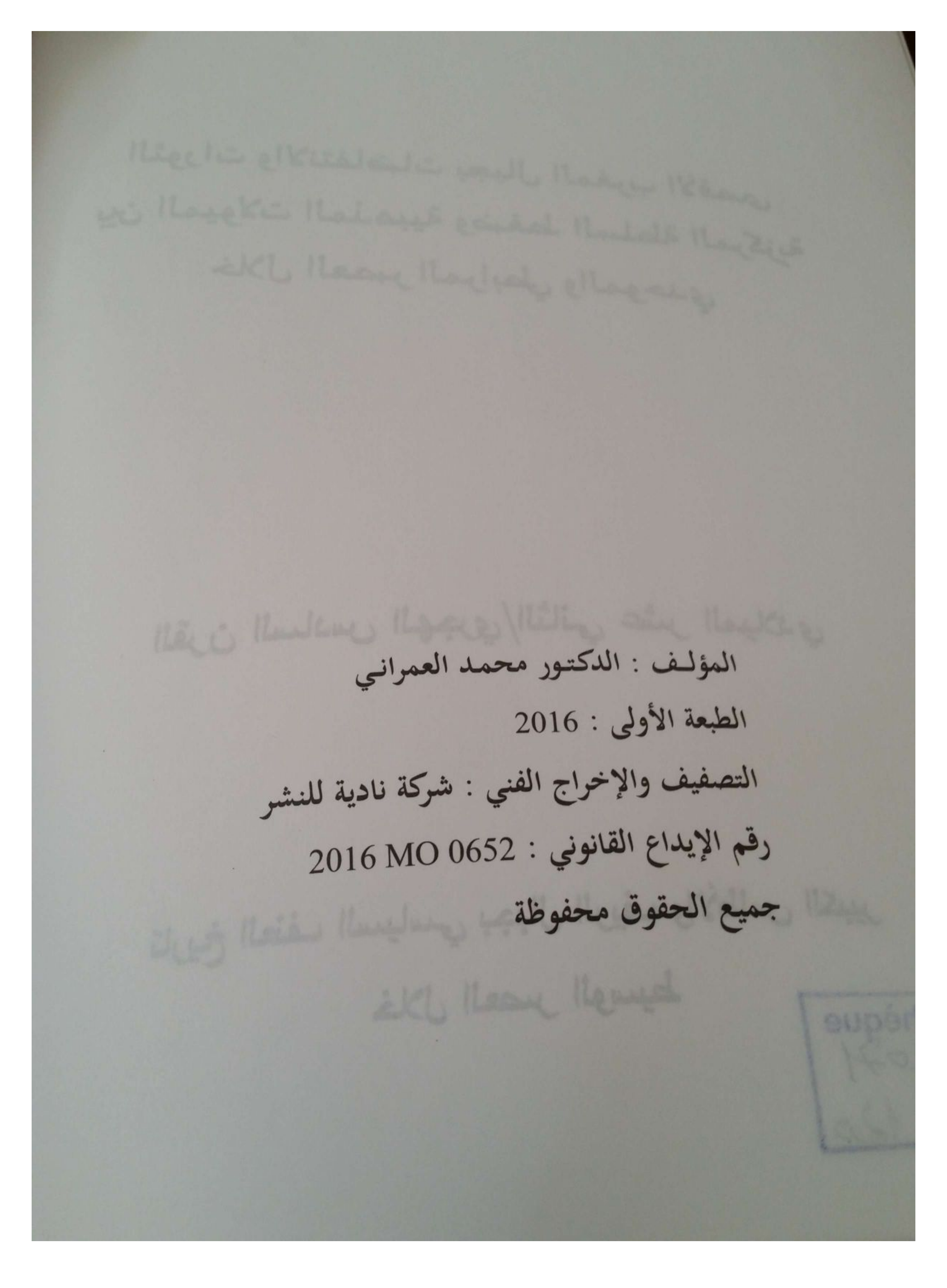
سلسلة أبحاث ودراسات في تاريخ الغرب الإسلامي الوسيط

الدكتور محمد العمراني

الثورات والانتفاضات بجبال المغرب الأقصى بين الميولات المذهبية وضغط السلطة المركزية خلال العصر المرابطي والموحدي

القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي

تاريخ العنف السياسي بجبال الريف والأطلس الكبير خلال العصر الوسيط



المؤلـف : الدكتور محمد العمراني

الطبعة الأولى : 2016

التصفيف والإخراج الفني : شركة نادية للنشر

رقم الإيداع القانوني : 2016 MO 0652

مقدمة :

يتناول هذا الكتاب دراسة نماذج من الثورات والانتفاضات بجبال المغرب الأقصى خلال العصر المرابطي والموحدي في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي.

وتمّ اختيار جبال غمارة[1] وجبال درن[2] كمجال جغرافي لتحليل مختلف هذه الاهتزازات السياسية التي عرفتها بلاد المغرب الأقصى خلال هذه الفترة، والتي تميزت بظهور سلطة مركزية منذ أن أصبحت مراكش عاصمة لدولة المرابطين[3] وإلى حدود سنة 610هـ/1212م، وهو ما يوافق المرحلة التي امتدّت منذ انفراد الأمير يوسف بن تاشفين بحكم المغرب الأقصى خلال العهد

1- هي مناطق بشمال المغرب الحالي بالريف وبساحل البحر المتوسط. الصديق بن العربي، كتاب المغرب، دار الغرب الإسلامي بيروت ودار الثقافة، الدار البيضاء، 1984، ص.205.

2- هي جبال الأطلس الكبير بالمغرب الحالي. الصديق بن العربي، كتاب المغرب، دار الغرب الإسلامي ودار الثقافة، 1984، ص.113.

3- رغم أن دراسة عبد الأحد السبتي وحليمة فرحات قد أكدت على عدم إجرائية مفهوم "العاصمة" بمعناه الحديث بالغرب الإسلامي الوسيط، فإن توظيفنا لهذا المصطلح يكتسي طابعا رمزيا باعتباره دلالة على مقر السلطة التي قامت بتوحيد المغرب الأقصى الوسيط، سواء تعلق الأمر بالمرابطين أو الموحدين. ولذلك يكون ظهور مراكش كعاصمة لا يخضع لتحديد زمني محدد وموحد بالنسبة لجميع المناطق، كما أنه لا يرتبط بتاريخ تأسيس هذه المدينة والذي تضاربت حوله المصادر، فمنها ما ذهب إلى أن ذلك حدث عام 463هـ/1070-1071م كالمعجب، وهناك من ذكر بأن ذلك تم عام 462هـ/1070م كابن عذاري، في حين لم يستطع البعض الحسم في ذلك كالحميري الذي ذكر سنتي 459هـ/1066-1067م و470هـ/1077-1078م. على أن الباحثين المعاصرين اعتمدوا على روايتي ابن خلدون وابن أبي زرع اللتين تشيران إلى سنة 454هـ/1062-1063م كتاريخ لتأسيس مراكش. عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، دار الكتاب الدار البيضاء، دون تاريخ، ص.149، ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج4، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، الطبعة الثانية، 1980، ص.19-20، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ص.138، ابن خلدون، العبر، ج6، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1992، ص.218، محمد عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق الدكتور إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، 1984، ص.540.

محمد الناصر بعد مرور سنة على هزيمة المرابطي، وإلى حدود وفاة الخليفة محمد الناصر بعد مرور سنة على هزيمة معركة العقاب[4].

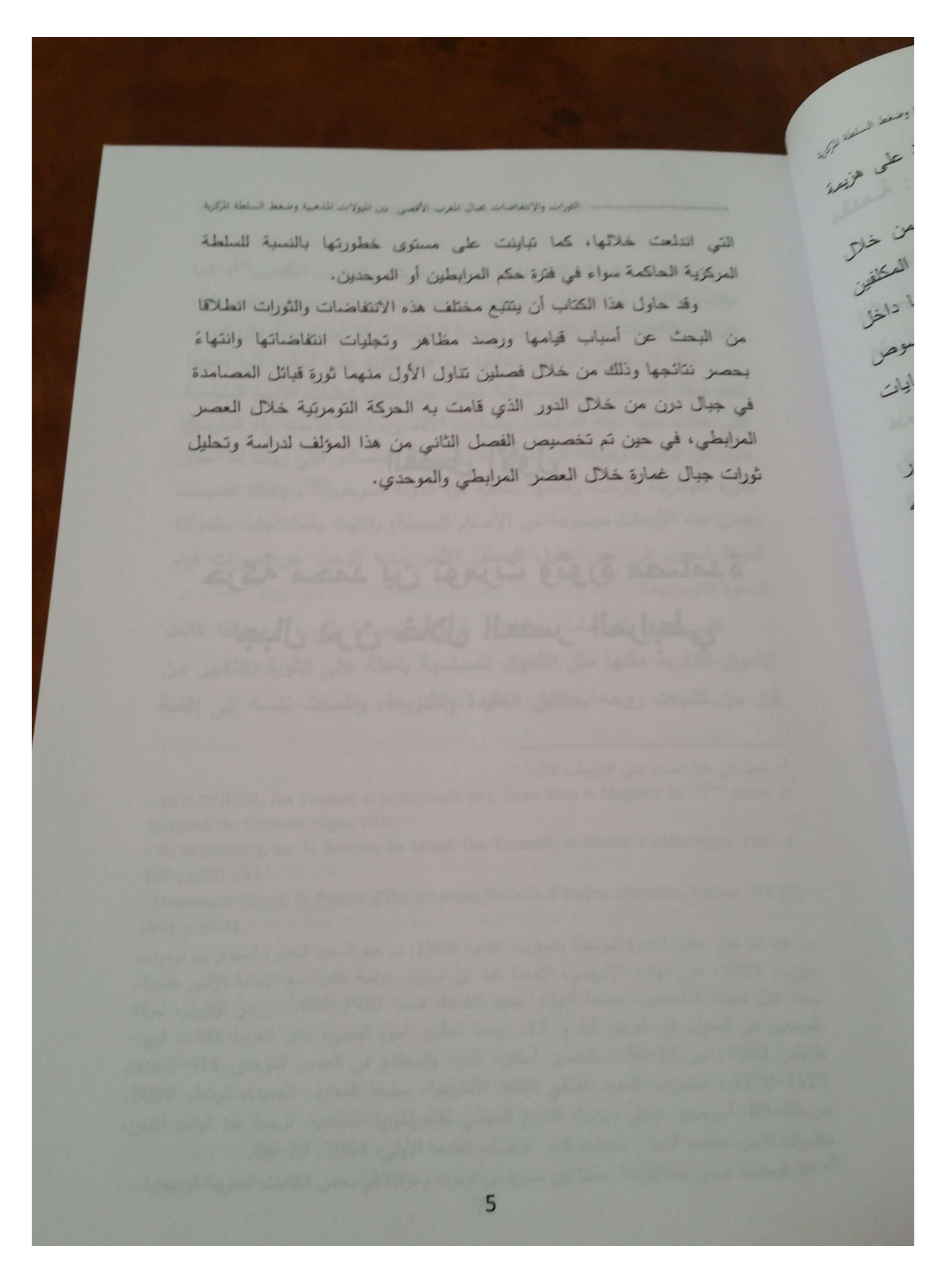
الموحدين في هذه الفترة الزمنية تجسّد حضور الدولة ومؤسساتها من خلال تعميم التأطير الإداري، والذي عبّر عنه تواجد الولاة والقضاة والعُمّال المكلفين بشؤون الجباية والضرائب في المدن والمراكز الحضرية المتواجدة أحيانا داخل مجالات التمركز القبلي بجبال المغرب الأقصى، كما هو الحال بخصوص مدينة "بني تاودا" على حدود بلاد غمارة، والتي عرفت استقرارا لحمايات عسكرية خلال الفترة المرابطية.

كما عرف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي كذلك ظهور هجرة مجموعات قبلية خاصة منها تلك المرتبطة بالسلطة الحاكمة، مما كان له أثر كبير على مختلف المجموعات البشرية الخاضعة للسلطة المركزية، مرابطية وموحدية، إذْ تَرَتَّبَ عن هذا التحرك القبلي اضطرار بعض القبائل إلى التراجع عن جزء من مجالها، مثل ما وقع لقبائل جبال غمارة والتي تم إرغامها على اقتسام خيرات مناطقها مع السلطة المركزية الحاكمة.

كما أن هذا التحول في البنية السياسية المرتبط بنشأة الدولة المركزية خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي قد فرض على القبائل المستقرة بالمناطق الجبلية ضرورة الالتزام بأداء الضرائب بشكل قار ومنتظم، الشيء الذي كان يُعتبر في نظرها إجراءًا دخيلا عليها، فكانت ترفضه معبّرة عن ذلك من خلال القيام بمجموعة من الانتفاضات والتمردات.

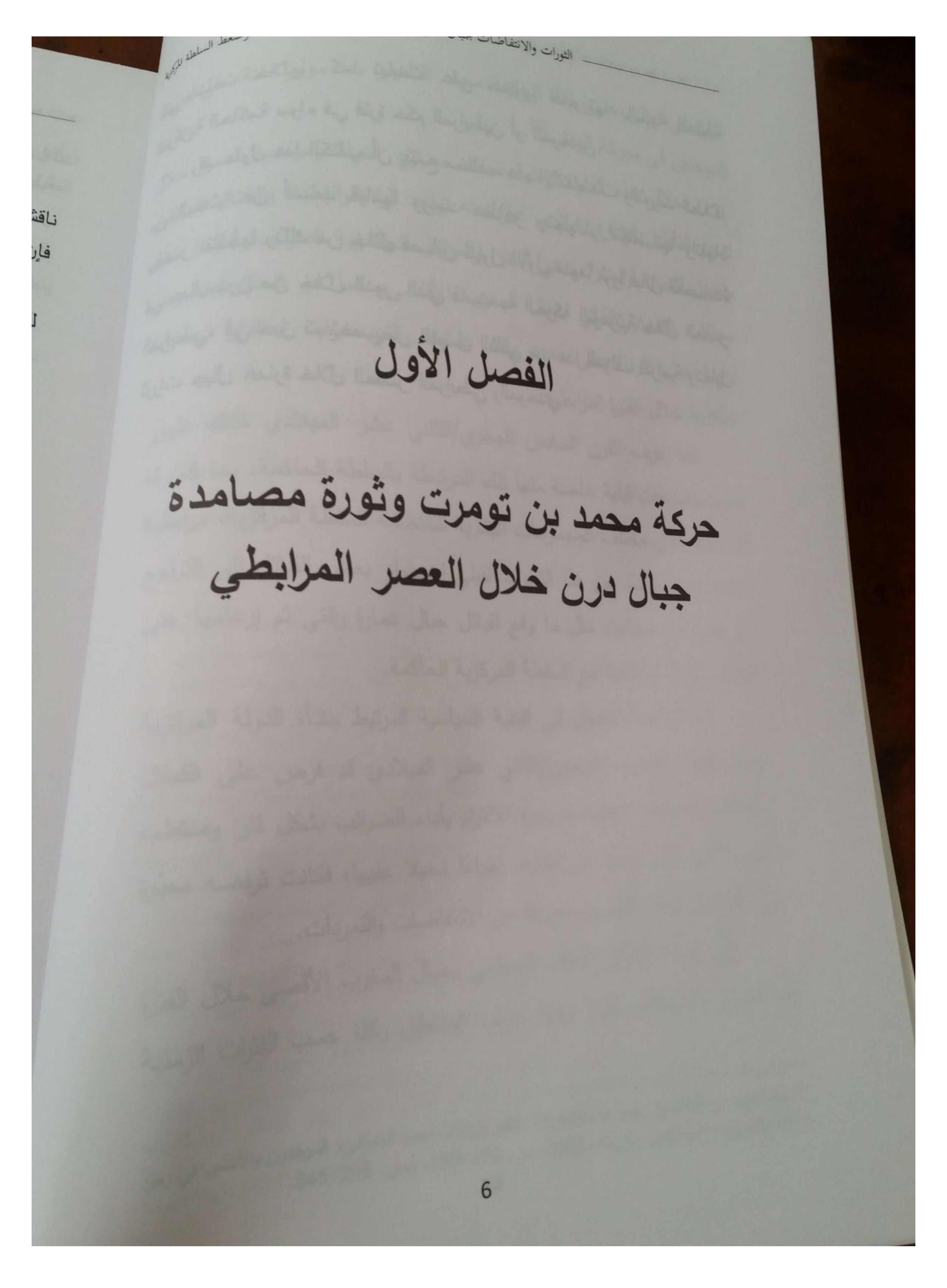
وقد تميّزت أشكال العنف السياسي بجبال المغرب الأقصى خلال الفترة قيد الدرس بالاختلاف فيما بينها حسب المناطق وكذا حسب الفترات الزمنية

4- حول مزيد من التفاصيل حول هذه المعركة، أنظر دراستنا محمد العمراني، الموحدون والأندلس في زمن المعارك والحروب، نادية للنشر، الرباط، 2015، ص. 151-155، وص. 238-245.



التي اندلعت خلالها، كما تباينت على مستوى خطورتها بالنسبة للسلطة المركزية الحاكمة سواء في فترة حكم المرابطين أو الموحدين.

وقد حاول هذا الكتاب أن يتتبع مختلف هذه الانتفاضات والثورات انطلاقا من البحث عن أسباب قيامها ورصد مظاهر وتجليات انتفاضاتها وانتهاء بحصر نتائجها وذلك من خلال فصلين تناول الأول منهما ثورة قبائل المصامدة في جبال درن من خلال الدور الذي قامت به الحركة التومرتية خلال العصر المرابطي، في حين تم تخصيص الفصل الثاني من هذا المؤلف لدراسة وتحليل ثورات جبال غمارة خلال العصر المرابطي والموحدي.



الفصل الأول

حركة محمد بن تومرت وثورة مصامدة جبال درن خلال العصر المرابطي

اهتمت دراسات كثيرة بابن تومرت وحركته بالمغرب الأقصى[5]، كما ناقشت أفكاره وثورته على المرابطين، ورغم اختلاف تخصصاتها وتوجهاتها، فإن هذه الكتابات تكاد تتفق حول منهجية تحليلها لحركة ابن تومرت وثورته.

ذلك أن معظم الباحثين تعاملوا مع هذه الثورة على أساس أنها تمهيدا لقيام دولة الموحدين، وليست بمثابة تعبير عن إحدى تجليات الأزمة السياسية التي عانت منها دولة المرابطين بالمغرب الأقصى. لذلك جاءت آراء الدارسين حول ابن تومرت وحركته في سياق ما روّجت له المصادر التي روت لنا أخبار الثورة التومرتية وأرخت وقائعها بخلفية قوّة الدولة الموحدية[6]. وهكذا تضمنت بعض هذه الأبحاث مجموعة من الأحكام المسبقة، وانتهت باستنتاجات متسرعة أحيانا أخرى، في حين حاول البعض الآخر منها البحث عن مبررات قيام الدعوة التومرتية.

ففي إحدى الدراسات حول ابن تومرت نجد ما يلي : « **وهكذا كانت الأحوال الفكرية مثلها مثل الأحوال السياسية باعثة على الثورة والتغيير من قبل من تشبعت روحه بحقائق العقيدة والشريعة، وطمحت نفسه إلى إقامة**

5– نحيل في هذا الصدد على الدراسات التالية :

- GOLDZIHER, Ibn Toumert et la théologie de L'Islam dans le Maghreb au XI^{éme} siècle, in le livre d'Ibn Toumert, Alger, 1903.

- R. Brunschvig, sur la doctrine du Mahdi Ibn Toumert, in Etudes d'islamologie, Paris, I, 1976, p.281-293.

- Dominique Urvoy, la Pensée d'Ibn Toumert, Bulletin d'études orientales, Damas, XXVII, 1974, p.19-44.

د. عبد الله علي علام، الدعوة الموحدية بالمغرب، القاهرة 1968، د. عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت، بيروت، 1983، علي الهادي الإدريسي، الإمامة عند ابن تومرت، دراسة مقارنة مع الإمامة الإثني عشرية، بحث لنيل شهادة الماجستير، جامعة الجزائر معهد الفلسفة، السنة 1987-1986، روجي لوتورنو، حركة الموحدين في المغرب في القرنين 12 و 13، ترجمة الدكتور أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا- طرابلس 1982، ص.11-56. د.الحسين أسكان، الدولة والمجتمع في العصر الموحدي 518-668هـ/ 1125-1270م، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2009، ص.58-89، أمبروسيو هويثي ميراندا، التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، ترجمة عبد الواحد أكمير، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2004، 29-96.

6– لقد خصصنا ضمن هذه الدراسة مبحثا عن صورة ابن تومرت وحركته في بعض الكتابات المغربية الوسيطية.

دولة تُعيد للإسلام مجده»[7]. في حين تعاملت بعض الدراسات الغربية مع ابن تومرت على أساس أنه كان أحد المغامرين الذين حاولوا الوصول إلى السلطة، والذين اتخذوا من مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شعارا لقلب أسر حاكمة[8]، لذلك تبقى إعادة قراءة النصوص هي وحدها الكفيلة بتقديم رؤية جديدة حول حركة ابن تومرت وثورته بجبال درن بالمغرب الأقصى.

وحتى نتمكن من الكشف عن جانب من علاقة المجتمع بالسلطة المرابطية بالمغرب الأقصى، فإننا سنتناول تحليل ودراسة حركة ابن تومرت من زاوية الثورات والانتفاضات التي شهدتها المنطقة خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

المبحث الأول :
ابن تومرت والرحلة إلى بلاد المشرق الإسلامي

إن المصادر التي تناولت حدث الرحلة التومرتية قليلة، وحتى تلك التي اهتمت بها لم تُقدم لنا تفاصيل عن إقامة ابن تومرت بالمشرق الإسلامي، سوى ما يتعلق باتصاله بمراكز المعرفة وبعض شيوخ العلم كالغزالي والطرطوشي[9]،

7- علي الهادي الإدريسي، لإمامة عند ابن تومرت، رسالة ماجستير مرقونة، جامعة الجزائر معهد الفلسفة السنة 1986-1987، ص.89.

8- انظر في هذا الصدد مقدمة كتابه "غولدزيهر" حول ابن تومرت :

- GOLDZIHZR, Ibn Toumert et la théologie de l'Islam dans le Maghreb au XI siècle, in le livre d'ibn Toumert Alger, 1903.

9- نذكر من بين هذه المصادر ما يلي :

عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب،طبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، دون تاريخ، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، دار الفكر بيروت، 1978، ابن القطان، نُظُم الجمان، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، المجلد الخامس، دار صادر بيروت، 1977، ابن خلدون، العبر المجلد 6، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى 1992، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، مؤلف أندلسي مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1979، ص.104.

ويأتي في طليعة هذه المصادر كتاب أخبار المهدي[10] الذي تم فيه تسجيل الطور المغربي للعودة من هذه الرحلة[11].

إن السؤال الذي يفرض نفسه في هذا الصدد هو كما يلي :

هل يمكن القول بأن الرحلة إلى المشرق كانت حافزا لابن تومرت لكي يتطلع إلى المساهمة في تغيير الوضع السياسي والفكري ببلاد المغرب؟

رغم شح المصادر، فإن إعادة قراءة متونها تُمكننا من الكشف عن مدى دور الرحلة إلى المشرق في تكوين شخصية ابن تومرت فكريا وسياسيا ليصبح عضوا فاعلا في أحداث المنطقة.

لقد جاء عند ابن القطان[12] بأن الغاية من هذه الرحلة عند ابن تومرت هي طلب العلم، فهل يتعلق الأمر بإشباع رغبته في تخصصات فكرية وفقهية، كما هو الشأن بالنسبة لكثير من الفقهاء والعلماء بالغرب الإسلامي، والذين دونت لنا كتب التراجم رحلاتهم إلى المشرق قصد الحج أو العمرة وحضور مجالس الفقهاء والعلماء ؟ أم أن رحلة المهدي تميزت بطابع خاص واختلفت عن سابقاتها نظرا لأنها كانت لها أهداف أخرى ذات أبعاد مذهبية وسياسية ؟

إن النصوص لا تُقدم لنا إجابة شافية عن تساؤلنا هذا، واكتفت بالإشارة إلى أن ابن تومرت قد قرّر في بداية الأمر التوجه إلى الأندلس طلبا للعلم والمعرفة حيث تحدثت المصادر عن زيارته لقرطبة قبل أن يتوجّه إلى ألمرية وبعدها إلى بلاد المشرق، في حين اكتفت نصوصا مصدرية أخرى بالحديث عن رحلته إلى بلاد المشرق دون أن تخبرنا عن زيارته إلى بلاد الأندلس[13]. غير أن الزركشي الذي جاء في مرحلة متأخرة عند نهاية الدولة الحفصية

10- البيذق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1971.

11- إن الجزء المتبقي من كتاب "أخبار المهدي" يبدأ في الحديث عن ابن تومرت منذ دخوله تونس خلال عودته إلى بلاده من رحلته المشرقية. البيذق، أخبار المهدي، ص.11.

12- نظم الجمان، م س، ص.62.

13- ابن القطان، م س، ص.62، عبد الواحد المراكشي، م س، ص.262، ابن الأثير، م س، ج8، ص.294، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.172، ابن خلدون، العبر، ج 6، ص.266، مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، م س، ص.103-104.

بتونس يُقدِّمُ لنا إضافة أخرى تتعلق بمسار هذه الرحلة عند إشارته إلى أن ابن تومرت قد توجه قبل ذهابه إلى المشرق إلى قرطبة بالأندلس وبعدها إلى المهدية بإفريقية (تونس الحالية) وذلك من أجل تَلقّي العلم والمعرفة، وفي هذا السياق يتحدث صاحب تاريخ الدولتين قائلا : "**وقرأ بقرطبة على القاضي ابن حمدين ثم ارتحل إلى المهدية وأخذ عن الإمام المازري ثم انتقل إلى الإسكندرية وأخذ عن الإمام أبي بكر الطرطوشي وهو ابن ثمانية عشرة سنة، ثم انتقل إلى بغداد وأخذ عن الإمام الغزالي**"[14].

ويذكر ابن القطان أنه عام 501هـ/1107م عاهد ابن تومرت أهل التحقيق من العارفين به وبايعوه بيعة سر[15]، وإذا ما صح كلام صاحب نظم الجمان فإن الرحلة إلى بلاد المشرق الإسلامي تكون بمثابة إستراتيجية وظفها ابن تومرت للحصول على المشروعية والقيام بالتغيير، وإذا كان العلم هاجسا لهذه الرحلة التومرتية وأحد أهدافها المسطرة مسبقا، فلماذا لم يستقر بالأندلس من أجل تحقيق هذا الغرض وتلبية هذه الرغبة؟

يبدو في تقديرنا، أن ابن تومرت لم يجد في حلقات الدرس الرسمية سواء بالمغرب أو الأندلس[16] ما يشفي غليله، خصوصا وأن ابن خلدون يؤكد على زيارة ابن تومرت لقرطبة التي كانت تعتبر مركز الإشعاع الثقافي بالغرب الإسلامي خلال الفترة قيد الدرس[17]. فالذهاب إلى المشرق يبقى من أجل

14– الزركشي محمد بن إبراهيم، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتقديم الحسين اليعقوبي، المكتبة العتيقة، تونس، الطبعة الأولى، 1998، ص.8.

15– ابن القطان، م س، ص.62.

16– نقصد بذلك المراكز العلمية التي كان يشرف على تأطيرها فقهاء الدولة المرابطية، ذلك أن المصادر تشير إلى أن المعرفة كانت لا تقتصر فقط على الدوائر الرسمية، بل إن بعض العلوم كانت هي الأخرى يتم تدريسها بعيدا عن رقابة السلطة خاصة ما كان يتعلق منها بالزهد والتصوف، ولعل ظهور طائفة المريدين في نهاية حكم دولة المرابطين لأحسن دليل على نشاط الحياة العلمية والفكرية خارج الحلقات الرسمية.
حول انتشار المراكز العلمية بالأندلس على عهد المرابطين يمكن الرجوع إلى دراسة :
Dominique Urvoy, le Monde des ulémas andalous du V/XI au VII/XIII siècle (Etude sociologique, Genève, librairie Droz, 1978, p.48-82, p.139-166.

17– ذكر ابن خلدون في حديثه عن ابن تومرت ما يلي : "**ومَرَّ بالأندلس، ودخل قرطبة، وهي إذ ذاك دار علم**". ابن خلدون، العبر، ج6، ص.266.

دراسة علوم لم يكن يُسمح بدراستها بالمنطقة[18]، كما يمكن القول أن ابن تومرت قد سمع بالأندلس صدى كتاب الإحياء للغزالي وموقف فقهاء الدولة المرابطية منه[19]، فأراد الاتصال مباشرة بمصدره بالمشرق، ونستدل على ما ذهبنا إليه بالروايات التي تربط اتصال ابن تومرت بالغزالي بصدى كتاب الإحياء بالمغرب[20].

إن النصوص التي تشير إلى لقاء ابن تومرت بالغزالي وقيام المهدي بدراسة علم أصول الدين تكشف لنا عن موقف هذا الزعيم الرافض لما كان يتم تدريسه وتلقينه في حلقات العلم والمعرفة بالمنطقة[21].

ويظهر ابن تومرت من خلال تلك الروايات أنه لم يكن راضيا على وضعية التعليم بالغرب الإسلامي، وتبين له بأن المواجهة والتصدي للمسؤولين عن هذه الوضعية من الفقهاء والعلماء تقتضي منه بالضرورة أن يتم الاعتراف

---

[18]– هناك إشارة في "المعيار للونشريسي"، تؤكد على غياب دراسة وتلقين علم الكلام بالمغرب خلال القرن6هـ/12م حيث جاء ضمن جواب الشيخ أبي محمد عبد الحق الصقلي عن سؤال عمن يقرأ الإنسان من الكتب ما يلي : فقد ذكر بخصوص علم الكلام "**وأما المغرب فسالم من هذا في هذا الوقت واليسير منه يكفي إذا وجد من يستمع معه وقد قل هذا في المغرب، ومات من كان يتسع معه فيه...**". المعيار ج11، ص.230.

[19]– رغم أن ابن القطان يشير إلى أن إحراق كتاب إحياء علوم الدين للغزالي قد تم بقرطبة سنة 503هـ إلا أنه في تقديرنا قد يكون التفكير والتداول في أمر إصدار قرار الإحراق قد تم قبل هذا التاريخ بحيث تزامن ذلك مع فترة قيام محمد بن تومرت برحلته إلى المشرق مرورًا بالأندلس، وهذا ما دفع بنا إلى الاستنتاج أعلاه. ابن القطان، م س، صفحات.70،62-73. وحول علاقة كتاب إحياء علوم الدين بالمغرب خلال العصر الوسيط يمكن الرجوع إلى :

محمد القبلي، رمز الإحياء وقضية الحكم في المغرب الوسيط، مقال ضمن كتاب مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1987، ص.21-51، محمد المنوني، إحياء علوم الدين في منظور الغرب الإسلامي أيام المرابطين والموحدين، مقال ضمن أعمال ندوة أبو حامد الغزالي، دراسات في فكره وعصره وأثيره، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكدال، الرباط، 1988، ص.125-131.

[20]– ابن القطان، م س، ص.72-73، عبد الواحد المراكشي، م س، ص.263.

[21]– يشير صاحب المعجب في سياق حديثه عن ابن تومرت أنه "لقي أبا بكر الشاشي فأخذ عليه شيئا من أصول الفقه وأصول الدين، وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار ونظرائه من المحدثين"، المعجب، ص.262-263. ويذكر ابن أبي زرع عند حديثه عن رحلة ابن تومرت ما يلي : "**فارتحل إلى المشرق في طلب العلم، فرأى مشايخ وسمع منهم وأخذ عنهم علما كثيرا، وحفظ كثيرا من حديث النبي صلى الله عليه وسلم، ونبغ في علم الأصول والاعتقادات، وكان في جملة من لقي من العلماء الذين أخذ عنهم العلم الشيخ الإمام الأوحد أبو حامد الغزالي رضي الله عنه ورحمه لازمه لاقتباس العلم منه ثلاث سنين**". ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.172.

به كمؤلف حجة[22]. إن ذلك لن يتأتى له إلا بالرحلة إلى المشرق والاعتراف به من قبل شيوخ العلم هناك، وذلك ما حاولت أن تثبته كل المصادر التي تؤيد الحركة التومرتية[23]، لذلك وحسب هذه المصنفات فإن غلبة اتجاه الفروع وغياب علم الأصول بالمغرب كان من أسباب قيام ابن تومرت على المرابطين[24]، في حين يتبين لنا بأن هذا العامل تم توظيفه كاستراتيجية ولم يكن سببا في حد ذاته.

إن هاجس الوصول إلى الزعامة السياسية والمذهبية كان هو المحرك لمشروع ابن تومرت العلمي، ويظهر لنا ذلك جليا من خلال الروايات التي تتحدث عن حضور ابن تومرت مجالس علماء المشرق وعلى رأسهم الإمام أبو حامد الغزالي[25].

إن هذا اللقاء مع أئمة العلم بالمشرق الإسلامي سيمكن المهدي من الحصول على مشروعية القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[26].

22- لا يمكن في اعتقادنا أن يصل ابن تومرت إلى هذه المرتبة إلا من خلال إجازة كبار العلماء بالمشرق، لذلك لم يتم الاهتمام بالمهدي-من قبل المؤرخين إلا بعد عودته من المشرق. وذلك أن ولادته وطفولته يَشوبهما الغموض بل إننا نجهل حتى تاريخ ولادته على رأي "جورج مارسي" وذلك على الرغم من بعض الإشارات القليلة التي نجدها عند ابن أبي زرع وابن القطان. ويذكر ابن خلدون عن ابن تومرت ما يلي : **"وشبَّ محمد هذا قارئا محبا للعلم، وكان يُسمى أسافو، ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج من القناديل بالمساجد لملازمتها وارتحل في طلب العلم إلى المشرق على رأس المائة الخامسة..."**. ابن خلدون، العبر، ج6، ص.266. لقد كان الأساس النظري لهذا الاستنتاج هو دراسة الباحث عبد الفتاح كيليطو، عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة 1983، ص.15-16.

Georges Marçais, LA BERBERIE MUSULMANE ET L'ORIENT AU MOYEN AGE, Editions AFRIQUE ORIENT, CASABLANCA, 2003, p.257.

23- عبد الواحد المراكشي، م س، ص.262-263، ابن القطان، نظم الجمان، ص.72-73، ابن خلدون، العبر ج6، ص.266-267.

24- فصاحب نظم الجمان يربط بين حادث إحراق كتاب الإحياء وبين حدث زوال ملك المرابطين ونهاية حكمهم بالمغرب. ابن القطان، م س، ص.71-72.

25- عبد الواحد المراكشي، م س، ص.263، ابن القطان، نظم الجمان، ص.72-73. وحول مناقشة آراء المؤرخين بخصوص لقاء الفقيه محمد بن تومرت من عدمه بالإمام الغزالي يمكن الرجوع إلى :
الطاهر المعموري، الغزالي وعلماء المغرب، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص.25-47.

26- إن قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ستكون من بين القضايا الأساسية التي سيرتكز عليها ابن تومرت في قيامه بالمغرب الأقصى، ولعل أهمية هذه المسألة هي التي جعلته يخصص لها جانبا مهما من كتابه "أعز من يطلب"، ولا شك أن ابن تومرت قد تأثر في ذلك بما جاء في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي الذي ناقش فيه هذه المسألة وخصص لها حيزا هاما ضمن مؤلفه. محمد بن تومرت، أعز ما يطلب، تحقيق الدكتور عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985، أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى 1992، المجلد 3، ص.4-67.

فمحمد ابن تومرت كان على وعي بمدى خطورة الفقهاء ودورهم في السهر على الحفاظ على الخط المذهبي الرسمي للدولة المرابطية[27]، لذلك فكّر -على ما يبدو- قبل الإعداد لرحلته في نوعية العلوم التي سينكب على دراستها بالمشرق الإسلامي.

إن علم أصول الدين كان من أهم المواد التي اختارها ابن تومرت للتعمق في دراستها بمراكز العلم بمصر والشام والعراق[28]، ذلك أن الإقبال على دراسة علم أصول الدين وعلم الكلام والتشيع ستمكنه من مواجهة علماء وفقهاء الدولة المرابطية وفي الوقت ذاته يستطيع إرغامهم على اقتسام سلطة العلم معه، وذلك ما سيتم له فعليا بعد العودة من المشرق حيث سيعمل في كل مدينة نزل بها على تكوين نخبة من العلماء ستحمل ثقافة مُغايرة للتوجه الرسمي للدولة المرابطية[29].

فالتوجه إلى بلاد المشرق الإسلامي لم يكن إلا خطة نهجها الفقيه السوسي قصد إنجاز مشروعه الفكري والسياسي الذي سيبدأ منذ خروجه من مصر[30].

27- إن أهمية دور فقهاء الدولة المرابطية تتجلى في استشارتهم في القضايا الهامة، وفي الآراء التي يشيرون بها على الأمير المرابطي، كما هو الشأن بخصوص قضية إحراق كتاب الإحياء للغزالي، وكذا قضية الأخذ بفتوى ابن رشد في تغريب المعاهدين النصارى عن غرناطة حوالي 520هـ، كما برز دورهم في قضية تسوير مراكش وفي مناظرة ابن تومرت في فاس وكذا في عاصمة المرابطين مراكش. يمكن الرجوع في هذا الصدد إلى: ابن القطان، م س، ص. 70-71، ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج4، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت لبنان، ص.72-73، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.174-175، عبد الواحد المراكشي، المعجب ص. 270-272.

28- عبد الواحد المراكشي، م س، ص.262-263، ابن الأثير، الكامل، ج8، ص.294، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص46، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.172، ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1980، ص.72-73.

29- ذكر البيذق أنه بعدما دخل ابن تومرت إلى فاس ونزل بمسجد طريانة أخذ "**يقرئ فيه العلم، وكانت طلبة فاس يهرعون إليه من كل مكان ويتصايح بعضهم لبعض يقولون تعالوا بنا للفقيه السوسي**"، ويشير كذلك أنه عندما اتجه المهدي إلى مكناسة "**سار إلى السوق القديم ونزلنا به بمسجد أبي تميم عند الحسن بن عشرة، وكان طلبة مكناسة يأتونه**" البيذق، م س، ص.23،25.

30- نقصد بالمشروع هنا، الرغبة في ممارسة التغيير سواء تعلق الأمر بالمساهمة في تغيير البنية الفكرية والمذهبية بالمغرب، أو الحصول على مشروعية الأمر والنهي. وبالذهاب إلى المشرق الإسلامي يضمن ابن تومرت تحقيق هذه الرغبة، ذلك أنه برجوعنا إلى كتب الطبقات خاصة منها كتب تراجم المتصوفة، والتي تم تأليفها مع بداية القرن 7هـ نجد بها إشارات متعددة حول رغبة المغاربة في الذهاب إلى المشرق وتشوقهم لزيارة الأماكن المقدسة، مما يدل على مكانة المشرق الإسلامي في ذهنية المغاربة، ولعل أحسن ما يعبر عن انتشار هذا الشعور خلال الفترة المرابطية والموحدية فيما بعد تلك "التراجم" التي دوَّنها، أبو عبد الله محمد بن قاسم بن عبد الكريم التميمي الفاسي في كتابه المستفاد في مناقب العُبَّاد بمدينة فاس وما يليها من البلاد. محمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي، المستفاد في مناقب العُبّاد، بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تحقيق د.محمد الشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية تطوان، الطبعة الأولى، 2002.

إن تتبع رحلة العودة إلى المغرب ستكشف لنا بشكل واضح عن دوافع ظهور حركة ابن تومرت وفي الوقت نفسه ستمكننا من معرفة أسلوب هذا الزعيم المذهبي، كما أنها ستقدم لنا صورة عن جانب من علاقة السلطة المرابطية بالمجتمع المغربي خلال العقد الثاني من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي.

المبحث الثاني :
من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى مواجهة السلطة المرابطية

دون الرجوع إلى الخلاف القائم بين الروايات حول تاريخ هذه العودة [31]، فإن ما يهمنا في هذا الصدد هو الكشف عن الدور الذي قام به ابن تومرت أثناء رجوعه إلى المغرب.

إن معظم المصادر تجمع على أن ابن تومرت قد اهتم –بعد عودته من المشرق– بمسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيشير ابن أبي زرع [32] إلى عودته إلى بلاد المغرب وهو يحمل هدفا يتمثل في عزمه على إقامة الشريعة الإلهية والسنة النبوية. وذكر[33] بأنه في فاتح ربيع الأول عام 510هـ/1116 عاد ابن تومرت من المشرق حيث جعل من رحلة العودة خاصة من إفريقية إلى بلاد المغرب الأقصى فرصة للقيام بمهمة تدريس العلم مع

31– فصاحب نظم الجمان يذكر بأن وصول ابن تومرت إلى بجاية كان عام 511هـ، أما صاحب المعجب فلم يذكر تاريخ العودة واكتفى بذكر تاريخ خروجه في رحلته إلى المشرق عام 501هـ وتحدث عن تاريخ قيامه بسوس عام 515هـ، على أن صاحب روض القرطاس يشير إلى عودته في 510هـ، وأشار ابن خلكان بأن ابن تومرت قد خرج من مصر متجها إلى بجاية في آخر سنة 511هـ. نظم الجمان، ص.76، المعجب، م س، ص.262، القرطاس، ص.173، ابن خلكان، م س، ج5، ص.47.

32– الأنيس المطرب، ص.173.

33– الأنيس المطرب، ص.173.

الظهور بمظهر التقشف والورع والزهد في الدين، كما مارس في الوقت نفسه مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن القيام بالأمر والنهي عن المنكر تفرض –بالضرورة– وجود شخصية جذابة لها القدرة على التأثير وجر الأتباع، فإلى أي حد توفرت هاته الشروط في ابن تومرت؟

لقد أورد لنا صاحب المعجب رواية تثير الاستغراب حيث ذكر بخصوص ابن تومرت أنه : "**استمر على عادته في السفينة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى أن ألقاه أهل السفينة في البحر، فأقام أكثر من نصف يوم يجري في ماء السفينة لم يُصبه شيء...**"[34]. يضاف إلى هاته الكرامة مسألة التنبؤ التي تضفي الهالة والهيبة على الشخصية التي تنوي القيام بالتغيير، فيتحدث المراكشي في هذا الصدد قائلا أنه عند وصول ابن تومرت إلى ملالة : "**سمع وهو يقول : ملالة! ملالة! يكررها على لسانه يتأمل أحرفها، وذلك لما كان يراه أن أمره يقوم من موضع في اسمه ميم ولامان، فكان –كما ذكرنا– إذا كررها يقول : ليست هي!**"[35].

ومن بين كراماته التي رواها لنا صاحب المعجب نذكر الرواية التالية :

"**أخبرني بعض أشياخ تلمسان عن رجل من الصالحين كان معتكفا معه بمسجد العباد، أنه خرج عليه ذات ليلة بعد ما صلى العتمة (صلاة العشاء)، فنظر إليهم وقال : أين فلان ؟ لرجل كان يصحبهم، فأخبروه أنه مسجون فقام من وقته ودعا برجل منهم يمشي بين يديه، حتى أتى السجن، فابتدر إليه السجانون، والحرس يتمسحون به، ونادى : يا فلان! باسم صاحبهم، فأجابه، فقال : اخرج! فخرج والسجانون ينظرون إليه كأنما أفرغ عليهم الماء الحار وخرج بصاحبه حتى أتى المسجد، وكانت هذه عادته في كل ما يريد ؟،**

34– عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص.263-264.

35– عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص.266.

لا يتعذر عليه مراد، ولا يمتنع عليه مطلوب، قد سخرت له الرعية، وذللت له الجبابرة"[36].

إن هذه الروايات لم تأخذ مصداقيتها في حينها وإنما في الوقت الذي أصبحت فيه مرجعا، وتناقلتها الذاكرة الشعبية مما أضفى الهيبة والوقار على شخصية المهدي[37]، فيذكر المراكشي في هذا السياق عن ابن تومرت ما يلي: "...**لم يزل مقيما بتلمسان وكل من بها يعظِّمه من أمير ومأمور**"[38].

إذا أجمعت المصادر حول جاذبية شخصية ابن تومرت وقدرتها على استمالة الناس إلى دعوتها، فإننا مطالبون بتتبع مظاهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي قام بها الفقيه السوسي ثم مناقشة أبعادها العامة بالنسبة للحركة التومرتية.

إن عمادنا في ذلك هو كتاب البيذق الذي يُعتبر المصدر الوحيد-فيما نعتقد- الذي نقل بعض التفاصيل عن رحلة العودة هذه خاصة من إفريقية إلى مراكش، وذلك على الرغم مما تتضمنه روايته من بعض الأخبار الغريبة[39].

تكاد تُجمع مختلف المصادر على أن مسألة منع شرب الخمر، ومنع الاختلاط بين الجنسين، وكذا معارضة الاحتفال في الأعياد والأفراح بالآلات الموسيقية هي من بين القضايا التي شملها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقد أشار البيذق في هذا الصدد «**ولما دخل المعصوم تلمسان وجد بها عروسا تُزفُّ لبعلها وهي راكبة على السرج واللهو والمنكر أمامها، فكسر الدفوف واللهو وغيَّر المنكر وأنزلَهَا عن السرج**» [40].

36- عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص.269-270.

37- سنرى في مبحث آخر ضمن هذه الدراسة الكيفية التي تمَّ بها استغلال هذه الروايات وتوظيفها خدمة للحركة التومرتية.

38- عبد الواحد المراكشي، م س، ص.270.

39- يشارك البيذق في ذلك صاحب نظم الجمان الذي روى لنا أخبارا عن عودة المهدي من بلاد المشرق الإسلامي، فذكر ما جرى له في الإسكندرية وبعد خروجه منها وما وقع له أثناء ركوبه في السفينة ثم ما حدث له في مدينة بجاية، وقد أشار إلى ذلك في سياق حديثه عن "كرامات ابن تومرت". ابن القطان، نظم الجمان، ص ص.91-100.

40- البيذق، أخبار المهدي، ص.20.

وأشار صاحب "أخبار المهدي" أنه بعد خروج ابن تومرت من تلمسان «نظر إلى النساء يستقين والرجال يتوضأون، فقال أليس هذا منكرا، النساء مع الرجال مخلوطين، اصنعوا ساقية وصهريجا عند الجامع، ففعل ذلك...»[41]. وأضاف أنه لما دخل الفقيه السوسي «صاء نظر النساء مزينات محليات يبعن اللبن فغطا المعصوم وجهه حتى جازهن، وكان الفقيه يحيى بن يصنليتن حاضرا. فقال له الإمام كيف تترك النساء محليات مزينات كأنهن قد زففن لبعولتهن، أما تتقون الله في تغيير المنكر، لا سبيل لهم لما يصنعون، فإنما يصنعون أفعال الجاهلية الأولى، وإنما يخالفون الله في أفعالهم، هلا اعتبروا قوله تعالى: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾، فغير المنكر وأمر بالمعروف»[42].

ويذكر البيذق في موضع آخر «فسمع المعصوم بالدشر اللهو وصراخ الرجال والنساء، فقال غيّروا هذا المنكر، وأمروهم بالمعروف، وأشار المعصوم بيده للحاج الدكالي وعبدكم الفقير لله ولكم، فقمنا حتى وصلنا إليهم، فقلنا لهم قد حرّم اللهو والمنكر لأنه من أفعال الجاهلية، وما كفى أن الرجال والنساء معا لا فرق بينهم؟ فقالوا هكذا السيرة عندنا، فأمرناهم بالمعروف فلم يسمعوا ونهيناهم عن المنكر فلم ينتهوا فأعلمنا المعصوم بذلك وقلنا لهم يأمركم الفقيه بالمعروف فقالوا معروفنا عندنا ومعروفكم عندكم، سيرا، وإلا نُمثل بكما وبفقيهكما، فأعلمنا المعصوم بما قالوه، فقال المعصوم يا أبا بكر جهّز الدّابة وألق عليها الكتب وسيروا عنهم لئلا يصيبهم بلاء فيصيبنا معهم، فمشينا حتى وصلنا من ليلتنا مخاض النساء فلما وصلنا الفج رد المعصوم رأسه للخلفية وقال اعقل على هذا الموضع إذا كان رجوعك عليه وسارّه بكلام...»[43]. وعندما دخل المهدي إلى فاس أمر أصحابه بأن يتفرقوا على دكاكين وكانت «مملوءة دفوفا وقراقر ومزامير وعيدانا ووطا وأربية وكيتارات

41- البيذق، أخبار المهدي، ص.21.

42- أخبار المهدي، ص.21.

43- أخبار المهدي، ص.22.

وجميع اللهو، فقال لنا المعصوم كسروا ما وجدتم من اللهو، فقام أربابها بالصراخ، وساروا شاكين نحو قاضيهم ابن معيشة وكان يومئذ قاضيها، فقال لهم لولا ما رأى في السّنّة ما كسّرها ومزّقها»[44]. وعند دخولهم مكناسة «نظر المعصوم الكدية فإذا بها مملوءة رجالا ونساء تحت شجرة لوز، فدخل المعصوم فيهم ميمنة وميسرة وبددناهم يمينا وشمالا»[45].

ويذكر صاحب المعجب بأن ابن تومرت كان «يضرب الناس على الخمر بالأكمام والنعال وعسب النّخل، متشبها في ذلك بالصحابة»[46].

ويظهر من مختلف هذه النصوص، أن ابن تومرت قد انتقد بعض السلوكات الاجتماعية على عهد المرابطين، وبالضبط فترة حكم علي بن يوسف، فهذه السلوكات كانت ذات طابع أخلاقي، إلا أن هذه الإشارات -رغم قلتها- تُلمّحُ إلى أن المجتمع المرابطي كان يعاني كذلك من انتشار الفوضى والسلب والنهب، وهذا ما جاء عند البيذق حيث ذكر أنه عند خروج المهدي من سلا سُرقت له دابة كانت تحمل أمتعته[47]. وتوجد إشارة كذلك إلى فوضى النظام الضريبي وتسلط بعض رجال السلطة على الرعية كما هو الشأن في "أكرسيف" عندما دخل إليها ابن تومرت «فسمع يوما من الأيام أن رجلا صلب حيا فخرج إليهم وبدّدَ شملهم، وقال لأي معنا يصلب الأحياء ؟ إنما الصلب للأموات إن كان وجب عليه الموت فاقتلوه وبعد ذلك اصلبوه فلما رأى السوقة أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أقبلوا نحو الإمام المعصوم، وقالوا له يا فقيه اجعلنا بينك وبين النار حجابا. فقال لهم المعصوم فيماذا ؟ قالوا له قُتلت نعامة للوزير فهو يغرّمنا فيها ألف مثقال، فقال لهم نعم، ثم إن المعصوم سار عند يحيى بن فانُو، فأعلمه بذلك، فقال له والله يا فقيه ما عرفت ذلك، فأمر الوزير أن يغرم ما أخذ من الناس من المظالم وأراد قتله،

44- أخبار المهدي، ص. 23-24.

45- أخبار المهدي، ص.25.

46- عبد الواحد المراكشي، م س، ص.283.

47- البيذق، أخبار المهدي، ص.26.

فقال له المعصوم ما عليه قتل، إنما عليه الأدب فأمره ورد المظلمة ونادى المنادي يأمر يحيى بن فانو من ظلمه الوزير فليصل يُنصف وحسيب من تقلّد الله، فلما وصل المنادي طرف المدينة نادى أن لا سبيل لمن يغرم في النعامة شيئا إلى الأبدين»[48].

لقد ارتبط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المصادر بتلقين ابن تومرت العلم والمعرفة لطلبة الحواضر والقرى التي مرّ بها، فقد اتصل الفقيه السوسي بنخبة من الراغبين في أخذ العلم كما هو الشأن في مسجد طريانة بفاس[49]، ومسجد أبي تميم بمكناسة[50]، وكذا عند الفقيه أحمد بن عشرة بمدينة سلا[51]، فما هي أبعاد هذا النّهج الذي سلكه ابن تومرت؟

إن المهدي لم يوظّف الوعظ والإرشاد، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكذا تلقين العلم لنخبة الحواضر إلا من أجل توسيع قاعدة أتباعه وفي الوقت نفسه من أجل التمكن من خلق بذور الثورة والتمرد من خلال العمل على تكوين فئة من العلماء تحمل ثقافة معادية للخط الرسمي للدولة المرابطية، كما حاول كذلك تكوين شريحة اجتماعية تندّد بالظلم والفساد وتتطلّع إلى التغيير وقيام مجتمع يسوده العدل والمساواة[52].

إن ذلك يفرض علينا معرفة النتائج التي ترتبت عن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بصيغة أخرى كيف أصبح الوضع العام داخل المناطق التي زارها ابن تومرت ؟

48- البيذق، أخبار المهدي، ص.21-22.

49-البيذق، أخبار المهدي، ص23. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.173.

50- البيذق، أخبار المهدي، ص.25.

51- البيذق، أخبار المهدي، ص.26.

52- يلاحظ من خلال كتاب "أعز ما يّطلب" أن ابن تومرت انتقد المرابطين كما حاول التركيز على مسألة ظهور المهدي في آخر الزمان ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وفسادا، كما أكّد على أن في آخر الزمان ستظهر المناكر والفساد، وبذلك يكون ابن تومرت قد جعل الناس يقتنعون بأن آخر الزمان هو عصرهم الذي يعيشون فيه، خصوصا وأن الفقيه السوسي قد دعّم كلامه بالأحاديث النبوية التي تُمكنه من الحصول على المشروعية والمصداقية، وبذلك يكون ابن تومرت قد دفع الناس لكي يستعدوا ويتهيأوا من أجل الدخول في عهد جديد. محمد بن تومرت، "أعز ما يطلب"، ص. 242-254.

فالمصادر لا تحتفظ لنا إلا بأخبار الحواضر والمدن في حين أغفلت ما يتصل بالبوادي، فهل يدُل ذلك على أن ابن تومرت قد أعطى اهتماما في دعوته للمدن دون البوادي؟ أم أن المؤرخين قد أهملوا البادية انطلاقا من موقف حضاري[53].

لا شك أن قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي قام بها ابن تومرت قد أثارت فوضى داخل المدن المغربية على عهد علي بن يوسف، ذلك أن هذه العملية صاحبها تهديد، وضرب النساء والرجال من أجل منع الاختلاط بين الجنسين، ثم تكسير وتهشيم الآلات الموسيقية في الحفلات والأعراس والأعياد، وكذا الهجوم على المحلات التجارية كما هو الشأن في مدينة فاس[54]. فقد أدى كل ذلك على ما يبدو من بعض النصوص استياء عاما وهلعا في أوساط السكان، مما استوجب تدخل الجهاز الأمني والقضائي للفصل في هذه المسألة. هذا ما حدث لتجار الآلات الموسيقية عندما ذهبوا يشتكون بابن تومرت وأصحابه عند قاضي المدينة[55]، فهذه الممارسات من شأنها أن تخلق ردود فعل ضد جهاز الدولة المرابطية نفسها، نظرا لكونها عجزت عن حماية ممتلكات الأشخاص، خصوصا وأن القاضي لم يستطع انتزاع حقهم من ابن تومرت كما جاء عند البيذق[56].

إن أسلوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر الذي قام به الفقيه السوسي من شأنه أن يُلهب حماس الفئات المستضعفة، والمتضررة من جور

53– يمكن القول بأن المدينة الإسلامية في العصر الوسيط، وبالمغرب الإسلامي خاصة، كانت مركزاً للإشعاع الثقافي والسياسي، لذلك كانت المدينة مجالا لتجمع النخبة من فقهاء، وعلماء، وأدباء، ومؤرخين، فأعطت كتابات هؤلاء الأواخر الأهمية للمدينة على حساب البادية، ونستدل على ذلك بالمصادر التاريخية التي اقتصرت عناوينها على أسماء بعض المدن رغم أنها تناولت أحيانا التاريخ العام ونشير في هذا الصدد إلى المصادر التالية : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبي زرع، مؤلف أندلسي مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، 1978، ابن غازي، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية، المطبعة الملكية، الرباط، 1988، علي الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1967.

54– البيذق، أخبار المهدي، ص.23-24.

55– أخبار المهدي، ص.24.

56– أخبار المهدي، ص.24.

بعض الولاة والحكام كما حدث بالفعل مع سكان منطقة أكرسيف[57]. إن ذلك يكشف لنا عن واقع آخر للمغرب الأقصى في ظل السيادة المرابطية حيث كان بعض الحكام يستغلون مناصبهم الإدارية والسياسية والعسكرية لابتزاز السكان أحيانا من خلال إصدار أحكام قاسية عليهم كما هو الأمر بالنسبة لصلب الناس وهم أحياء كما جاء في رواية البيذق[58].

لقد استغل ابن تومرت هذا الواقع من أجل استقطاب الأتباع وضمهم لحركته، وكذا زرع بذور الفتنة ضد المرابطين وذلك بعد إزالة الحاجز النفسي على السكان ليجعلهم قادرين على التمرد على جهاز الدولة، ولعل ما يُدعم رأينا في هذا الاتجاه هو قيام انتفاضات أخرى في الوقت ذاته بمنطقة غمارة لقيت مواجهة صارمة من قبل المرابطين[59].

وإذا كانت قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالعنف الرمزي والجسدي قد وجدت استجابة في كثير من المناطق حسب رواية البيذق[60]، فإن جهات أخرى لم تستجب لدعوة ابن تومرت، بل على العكس من ذلك قامت بمواجهته وهددت جماعته بملاحقتها، كما هو الشأن بالنسبة لأهل "دشر قلال" في ضاحية تازة[61]. إن ذلك يقدم لنا صورة عن واقع آخر من المغرب المرابطي حيث كان السكان يرفضون أحيانا الانصياع والخضوع لتعليمات أولي الأمر سواء تعلق ذلك بالجهاز الحاكم أو بالفقهاء والعلماء[62].

57– البيذق، أخبار المهدي، ص.21.

58– البيذق، أخبار المهدي، ص.21.

59– ذكر البيذق بأنه كان "ينالو" **"يومئذ سلطان الغرب، وكان يسكن بني تاودة، فخرج في ذلك الوقت ينالوا لغمارة، وكان فيهم أقوام مخالفون عليهم، فخرج إليهم "ينالوا" وقتل منهم ثلاثة أشياخ : يكساس، وحيان، وسحنون ثم قتل لجاية وساق رؤوسهم وعلقها في باب السلسلة وأتى بغنائمهم"**. أخبار المهدي ص.24.

60– يشير البيذق إلى أنه كلما أمر المهدي جماعة بفعل شيء إلا فعلته، وما نهاها عنه تنتهي وكان ذلك منذ دخوله مدينة تلمسان.

61– البيذق، أخبار المهدي، ص.22.

62– لقد اعتبرنا أن ابن تومرت كفقيه وجه نداءه لهذه الجماعة كأنه يمثل أولي الأمر، ويمكن الرجوع في هذا الصدد إلى كتاب الإحياء للوقوف على رأي الإمام الغزالي ومناقشته لقضية المحتسب في سياق حديثه عن أركان الأمر بالمعروف وشروطه. أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1992، ص ص.11-27.

ونستنتج كذلك من خلال تتبعنا لخطوات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي قام بها المهدي قضية تتعلق بمدى حضور الدولة المرابطية كجهاز سياسي وأمني في مختلف جهات المغرب، فالمصادر لا تشير إلى أي اصطدام وقع بين ابن تومرت وأصحابه من جهة، وبين المسؤولين عن فرض الأمن من رجالات الدولة المرابطية من جهة أخرى، بل إنه في بعض الحالات يجدون تأييدا من طرف بعضهم كما حدث مع قاضي فاس[63]، ويمكن القول بأن تحرك ابن تومرت وجماعته بهذه الحرية في حواضر وبوادي المغرب الأقصى قد أزال هيبة الدولة من جهة، كما شجّع الناس على ممارسة العصيان المدني من جهة أخرى، مما أدى إلى ظهور محاولات للتمرد والثورة ضد النظام السياسي المرابطي[64].

تبقى مسألة أخرى ترتبط بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي تدريس العلم في مجموعة من حلقات الدرس ببعض الحواضر خاصة منها مدينة فاس التي تضاربت المصادر حول المساجد التي تردد عليها الفقيه السوسي، في حين اكتفى البعض منها بالإشارة إلى تلقينه للعلم دون ذكر بعض الوقائع الهامة التي حدثت له مع فقهاء المدينة[65].

63– لقد قال القاضي بعد ما لجأ إليه تجار الآلات الموسيقية يشتكون، **"لولا ما رأى في السُنَّة ما كسَّرها ومزّقها مُرُّوا فإنكم مخالفون للحق"** أخبار المهدي، ص.24.

64– إن ما يثير الانتباه في هذا الصدد هو أن الحضور الأمني والتغطية العسكرية المرابطية كانت متواجدة بشمال فاس خاصة في حصن "بني تاودا" حيث كان الجيش يقوم بمهمة إجهاض كل المحاولات التمردية في جبال غمارة خصوصا. غير أن ما يلاحظ من خلال رواية البيذق أنه لم يصدر أي رد فعل عسكري تجاه ابن تومرت. فهل يرجع ذلك إلى عدم الاهتمام بابن تومرت من قبل قادة الجيش؟ أم أن الأوامر التي كانت تعطى للجيش المرابطي "ببني تاودا" كانت تقتصر فقط على مراقبة تحرك قبائل غمارة ؟ أم أن البيذق يحاول أن يعطي صورة براقة عن عمليات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التومرتية ؟ وسنتحدث عن أهمية هذه الحصون العسكرية بمنطقة غمارة في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

65– يتعلق الأمر هنا بابن أبي زرع في روض القرطاس، والذي اكتفى فقط بالإشارة إلى مسألة تدريس ابن تومرت للعلم دون ذكر ما حدث له أثناء مناظرته لفقهاء فاس، الشيء الذي نجده واردا عند صاحب المعجب. فقد أشار هذا الأخير بأن والي المدينة جمع "**الفقهاء وأحضره معهم، فجرت له مناظرة كان له الشفوف فيها والظهور، لأنه وجد جوّا خاليا، وألفى قوما صياما عن جميع العلوم النظرية خلا علم الفروع...**". المعجب، ص.270. فهل يمكن القول أن ابن أبي زرع لم يعط أهمية لذلك، أم أنه تحفظ في الخوض في قضايا تمس الحضرة المرينية مقر السلطة التي عاش تحت ظلها صاحب القرطاس؟ أم أن الرواية تلمح إلى تحجيم، وتقزيم المستوى العلمي لفقهاء فاس من أصحاب الاتجاه المالكي؟ ويبقى التساؤل الثاني في تقديرنا واردا خصوصا إذا ما علمنا مدى أهمية الفقه المالكي من بين العلوم المُلقنة في مختلف المدن المرينية وخاصة منها العاصمة فاس.

إن الاتصال بين ابن تومرت ونخبة الحواضر كان له أثر كبير على ظهور الاهتمام بعلوم أخرى غير تلك التي تعوّد طلبة المدن دراستها، فذكر صاحب المعجب في هذا السياق ما يلي : « **وكان جل ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريق الأشعرية، وكان أهل المغرب ينافرون هذه العلوم، ويعادون من ظهرت عليه...**»[66]. ذلك أن تدريس هذه العلوم من شأنها أن تساهم في تكوين ونشأة نخبة من الفقهاء يحملون ثقافة مغايرة للاتجاه السائد وتعارض في الوقت نفسه الثقافة الرسمية التي يسهر على حمايتها فقهاء المالكية.

إن البيذق وهو يروي لنا أحداث عودة الفقيه ابن تومرت إلى المغرب يشير إلى أنه في كل مدينة دخلها المعصوم تلتقي به طائفة من الطلبة لتلقي العلم ويحثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[67]، ويبدو أن هذه الفئة قد مارست تأثيرا ظرفيا على مستوى الاتصال بالعامة، وتفقيهها في أمور الدين والمعاملات، كما أنها قد خلقت المتاعب لحماة العقيدة من فقهاء دولة المرابطين[68].

فقضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقدر ما ظهرت من خلال النصوص على أنها إيجابية وتدخل في إطار تصحيح مفاهيم العقيدة الإسلامية، وتفقيه المغاربة بتعاليم السُّنة النبوية ومحاربة البدع، فإنها من جهة

66– عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص.270.

67– لقد ذكر البيذق بخصوص طلبة فاس أنهم "**كانوا ملازمين الإمام المعصوم يأخذون عنه العلم ويذاكرونه فيما عندهم من المحفوظ، فكان المعصوم يفحمهم ويفهمهم**". أخبار المهدي، ص.23. وبخصوص طلبة مكناسة "**فكانوا يأخذون عنه العلم ويذاكرونه فيما عندهم من القلم والفهم، فكان المعصوم يبين لهم ما جهلوه ويذكر لهم ما لم يذكروه**" أخبار المهدي، ص.25.

68– يذكر البيذق وغيره من مؤرخي الدولة الموحدية أن ابن تومرت قد وجد تأييدا من طرف نخبة من سكان المدن المغربية أثناء قيامه بتدريس العلم، غير أنه في نظرنا رغم محاولة الفقيه السوسي في جر الأتباع، والعمل على تغيير رؤية هؤلاء الطلبة للواقع الذي يعيشونه، ورغم مجهوداته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لجر العامة بشكل خاص سواء في فاس ومراكش، فإن التأييد –على ما يبدو من خلال المصادر– كان ظرفيا بحيث سرعان ما كان ينتهي بمجرد خروج ابن تومرت من تلك المدينة إلى غيرها. إن ما حملنا على هذا الاستنتاج كون معظم المدن المغربية على عهد عبد المؤمن الموحدي قد تم فتحها أكثر من مرة. فلو كانت مشايعة سكان تلك الحواضر لابن تومرت حقيقية لما وجد الموحدون صعوبة في إخضاعها في مرحلة بناء دولتهم بالمغرب الأقصى، ولسهّل عليهم عامتها وخاصتها عملية فتح هذه المدن دون الاضطرار إلى اللجوء إلى استعمال القوة العسكرية لإرغام ساكنة هذه الحواضر على الخضوع لنظامهم السياسي.

أخرى قد ساهمت في ظهور الفوضى وترويع السكان، فمهّدت بذلك لاندلاع الانتفاضات والتمردات بالمجتمع المغربي.

لقد حاول ابن تومرت أن يُغير صورة الواقع في ذهنية هذا المجتمع[69]، وتزامن ذلك مع افتعال مشاكل للسلطة المركزية المرابطية، والتي كان عليها أن تهتم بأكثر من واجهة واحدة، فبالإضافة إلى مواجهة نصارى إسبانيا، في إطار سياسية الجهاد بالأندلس، كان عليها الاستعداد للتصدي لمجموعة من الثورات والانتفاضات التي ظهرت سواء بالأندلس أو في منطقة غمارة بالمغرب الأقصى[70].

لقد حاولنا تتبع تحركات ابن تومرت بعد دخوله للمغرب ورصد علاقته مع بعض فئات المجتمع، وأشرنا كذلك إلى غياب حضور السلطة المرابطية في كثير من المناطق مما لم يتأتَ لنا تحديد وجهة نظر المسؤولين في الدولة وموقفه م من ابن تومرت وسلوكاته، فقد أصبحت هذه الأخيرة تؤثر في مجرى الحياة الاجتماعية اليومية لسكان مجموعة من المناطق مما أعطى لقيام المهدي طابع حركة اجتماعية. ولن يتم الكشف عن موقف السلطة المركزية المرابطية من الحركة التومرتية إلا من خلال تحليلنا لمختلف النصوص التي روت لنا أخبار عاصمة دولة المرابطين مراكش عندما دخلها ابن تومرت وإلى حدود مغادرته لها باتجاه جبال المصامدة.

69– لقد سبق للأستاذ الراحل محمد زنيبر أن توصّل إلى هذه الحقيقة عندما ذكر في مقاله عن ابن تومرت قائلا : "**هكذا استطاع المهدي ابن تومرت أن يقدم لمعاصريه من المغاربة النظام المرابطي كجهاز متسلط ومستغل وفاسد...**". محمد زنيبر، الخلفية الإجتماعية الثقافية لحركة المهدي بن تومرت، مجلة المناهل، عدد 24، السنة 1982، ص.140.

70– انظر في هذا الصدد ما قمنا بدراسته بخصوص انتفاضات الأندلس في كتابنا: محمد العمراني، حواضر الأندلس بين الانتفاضة والثورة خلال العصر المرابطي، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2006، كما أننا خصصنا الفصل الثاني من هذا الكتاب لدراسة وتحليل ثورات منطقة غمارة.

المبحث الثالث :

من المطالبة بالمعروف والنهي عن المنكر إلى تهديد السلطة المركزية

تكاد تُجمع المصادر على أن المسؤولين المرابطين لم يبدأوا بالشعور بخطر دعوة ابن تومرت إلا عند دخوله مراكش، ذلك أن وجود هذا الزعيم المذهبي بالعاصمة المرابطية يدل على أن الفقيه السوسي يريد توجيه خطابه للسلطة المركزية، وهذا فعلا ما قام به المهدي بعد أن حاول القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مختلف أحياء المدينة، خاصة منها تلك التي كانت توجد بها تجمعات بشرية أو تُنَظَّمُ فيها الأسواق[71]، فقام بإراقة الخمر وتكسير آلات الطرب، مما جعل خبره ينتشر في المدينة إلى أن وصل ذكره إلى الأمير المرابطي "علي بن يوسف" الذي أصدر أمره بإحضاره[72].

ويظهر من بعض النصوص أن الأمير المرابطي لم يستطع إدراك قيمة ابن تومرت نظرا لكون مظهره لم يكن، على ما يبدو، يُجسّد تلك الصورة التي ترسخت عبر قرون مضت في ذهنية المجتمع المغربي حول الفقيه العالم من المنظور الذي تبناه النظام المرابطي بشكل خاص، وكذا من المنظور الذي رسخته تقاليد المجتمع المغربي بشكل عام منذ انتشار المذهب المالكي بالمغرب الأقصى خلال القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي[73]، وهكذا وقع اللقاء

---

[71]– يذكر ابن أبي زرع في هذا الصدد عن ابن تومرت قائلا : "...**فكان يمشي في أسواق المدينة وشوارعها يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر**". ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.174.

[72]– ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 174.

[73]– تكاد تُجمع المصادر على أن الفقهاء والعلماء شكلوا شريحة اجتماعية متميزة داخل المجتمع الإسلامي الوسيط، فقد أشارت كتب الطبقات إلى أن هذه الفئة الاجتماعية كانت تملك الأراضي والضيعات الفلاحية، كما أنها كانت تلبس أفخر الثياب، وبخصوص علماء وفقهاء الغرب الإسلامي الوسيط يمكن الرجوع إلى المؤلفات التالية :
أبو عبد الله محمد بن الحارث الخشني، قضاة قرطبة، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتب الإسلامية، القاهرة وبيروت، الطبعة الأولى 1982، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب العربي القاهرة 1967، أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي، كتاب "المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا أو تأريخ قضاة الأندلس"، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الخامسة، 1983، القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، مطبعة فضالة (عدة أجزاء).

وجرى حوار بين الأمير المرابطي علي بن يوسف والفقيه محمد بن تومرت نستنتج من مضامينه ما يلي :

- لقد حاول المهدي ابن تومرت التأكيد على أنه ليست لديه أطماع دنيوية، وأن ما يقوم به لم يكن سوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- حمّل ابن تومرت مسؤولية ما كان يقع في المغرب للأمير "علي بن يوسف".
- أمر ابن تومرت الأمير المرابطي بإحياء السّنة وإماتة البدعة.
- تحدث ابن تومرت للأمير المرابطي عن تفشي المنكر بالمغرب، كما أخبره بانتشار البدع فيه.

ويتضح من خلال معطيات هذا الحوار، أن ابن تومرت قد نفى عن نفسه أي مصلحة ذاتية من وراء قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، غير أنه برجوعنا لمختلف المصادر نجد أن الفقيه السوسي منذ عودته من بلاد المشرق الإسلامي كان عازما على إزالة حكم المرابطين والقضاء على نظامهم السياسي[74]، فقد حاول من خلال مُقابلته مع المسؤول المرابطي ومحاورته له، أن يُحمّل الأمير علي بن يوسف كل ما وقع في بلاد المغرب من انتشار البدع وظهور الفساد على كل المستويات[75].

لقد حاول المهدي بن تومرت القيام بحرب نفسية ضد الحاكم المرابطي، فهو يريد أن يضيف هموما أخرى للسلطة المركزية المرابطية، فبالإضافة

74– يظهر ذلك من خلال الروايات التي تؤكد اتصاله بالغزالي، فقد جاء عند ابن خلدون، "**ولقي فيما زعموا أبا حامد الغزالي، وفاوضه بذات صدره في ذلك فأراده عليه لما كان فيه الإسلام يومئذ بأقطار المغرب من اختلال الدولة، وتقويض أركان السلطان الجامع للأمة المقيم للملة بعد أن سأله عمن له من العصابة، والقبائل التي تكون بها الاعتزاز والمنعة، وبشأنها يتم أمر الله في درك البغية وظهور الدعوة**". ابن خلدون، العبر، ج6، ص.267.

75– ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.174.
لا شك أن ابن تومرت قد حمّل مسؤولية كل ما شاهده ووقع له منذ مغادرته الإسكندرية إلى وصوله مدينة مراكش للأمير المرابطي وكأنه المسؤول عن كل ذلك. فمن خلال تتبع رحلة العودة من كتاب أخبار المهدي نرى أن المؤلف حاول أن يُقنعنا بأن تلك المناطق قد عرفت انتشار الظلم والفساد، وأن الفقيه السوسي لم يعمل إلا بما أملاه وفرضه عليه واجبه الديني والسنة النبوية.

إلى الاهتمام بشؤون الأندلس الداخلية والخارجية[76]، والاهتمام بشؤون الدولة ومواردها المالية[77]، فإن ابن تومرت أراد أن يدفع بالأمير المرابطي للقيام بمحاولة تصحيحية للدين الإسلامي بالمغرب والعمل في الوقت نفسه على إحياء السنة وتغيير المنكر [78].

غير أن المسألة التي تدعو إلى التساؤل، من خلال النصوص المعتمدة، هي تلك المتعلقة بالأسلوب الذي نهجه المهدي بن تومرت، فعندما يتصل هذا الأخير بالعامة يستعمل خطابا له دلالة اجتماعية واضحة، فهو يُكسر آلات اللهو ويقوم بإراقة الخمر ومنع

الاختلاط بين الجنسين[79]، وعندما يتصل بأولي الأمر من ولاة[80] وأمراء الدولة المرابطية وفقهائها[81]، فإن الفقيه السوسي يوظف خطابا آخر لا يمتُّ إلى واقع المجتمع المغربي بصلة، فهو يناظرهم في قضايا فقهية ولا يحاول أن يطرح معهم قضايا الشحاذين والفقراء وقضايا الناس ومشاكلهم عامتهم وخاصتهم بشكل عام[82].

76- تشير المصادر إلى تحركات الجيوش النصرانية في الأراضي الإسلامية بالأندلس خلال الفترة قيد الدرس، كما تحدثت عن اندلاع بعض الفتن كما هو الشأن بالنسبة لثورة قرطبة عام 515هـ. مؤلف أندلسي مجهول، الحلل الموشية، تحقيق سهيل زكار، وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، 1978، ص.86.

77- نقصد بذلك قضية الجباية التي تعتبر ضرورية لزيادة مداخيل خزينة الدولة من أجل تمويل الحملات العسكرية لضبط الأمن الداخلي سواء بالأندلس والمغرب أو أثناء مواجهة التحرك العسكري النصراني ببلاد الأندلس.

78- إن المصادر وهي تروي لنا حوار ابن تومرت مع الأمير المرابطي بخصوص تغيير المنكر، تحاول أن تقدم لنا الحاكم المرابطي وكأنه لم يسبق له أن قام بمجهودات في هذا الصدد. هذا على الرغم من أن بعض هذه المصادر تتحدث عن وجود رسائل للأمير علي بن يوسف وجهها إلى كبار المسؤولين في الدولة كان يحثهم من خلالها على ضرورة التزام السنة وتعاليمها، ويأمرهم بتجنب الظلم ورفعه عن الرعية، فقد جاء في البيان كتاب وجهه علي بن يوسف عام 510هـ إلى أبي محمد بن فاطمة يحضه فيه على إقامة الحق. ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص.63-64.

79- يمكن الرجوع إلى المبحث الثاني من هذا الفصل تحت عنوان: "من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى مواجهة السلطة المرابطية".

80- نموذج والي مدينة فاس، المعجب، ص. 270.

81- كما هو الشأن في العاصمة المرابطية مراكش.

82- غير أن "ابن خلكان" يشير إلى أن ابن تومرت واجه قاضي المرية، واسمه محمد بن أسود وهو في مجلس الأمير المرابطي علي بن يوسف، بما يلي "**فهل بلغك يا قاضي أن الخمرة تباع جهارا، وتمشي الخنازير بين المسلمين، وتؤخذ أموال اليتامى؟ وعدد من ذلك شيئا كثيرا**". ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت 1977، المجلد 5، ص.50.

فهل هذا الخطاب المزدوج جاء مفروضا من قبل السّلطة المرابطية التي كانت تُحاول اختبار علم محمد بن تومرت وتقييم مستواه المعرفي والفكري خاصة فيما يتعلق بقضايا الفقه والعقيدة والعلوم الدينية[83] ؟ أم أن ابن تومرت قد تعَمَّدَ رفض طرح القضايا الاجتماعية في مناظرته واقتصر فقط على الجانب العلمي والمعرفي ؟

يبدو في نظرنا أن المهدي كان يطمح قبل كل شيء إلى الحصول على شهادة فقهاء المرابطين بخصوص تفوقه المعرفي وذلك رغبة منه لإجبارهم على ضرورة اقتسام سلطة العلم معه، إن لم نقُل محاولة منه لاحتكارها بمفرده، لهذا كان يجادلهم في أمور وأثبت عجزهم فيها كما جاء في نص المناظرة[84]. وفي هذا السياق ذكر ابن أبي زرع[85] بأن ابن تومرت كان عالما بالجدال في حين أن جل من حضر ذلك المجلس من الفقهاء أصحاب حديث وفروع وليس فيهم من له معرفة بالأصول والجدل. ولعل هذا ما جعل الفقيه الذي استجوبه ابن تومرت «**لم يفهم مقالته وعجز عن الجواب**»[86] ثم أضاف صاحب القرطاس قائلا: «**فلما رأى عجزه وعجز أصحابه عن فهم السؤال وفَحوى الخطاب ولم تكن لهم معرفة بالجواب شرع لهم في تبيين أصول الحق والباطل...**»[87].

إن هذه الشهادات تشير بشكل جلي إلى أن ابن تومرت حاول من خلال مناظرته تقزيم مكانة فقهاء الدولة المرابطية، ذلك أن المهدي قد جادلهم في الذي ليس بعلمهم، فكان الأمر طبيعيا أن يفحمهم ويتفوق عليهم. وهكذا لجأ

83- حول الاتجاه الفكري والمذهبي لابن تومرت يمكن الرجوع إلى :

DOMINIQUE URVOY, La Pensée D'Ibn TUMART, Bulletin d'études orientales, Tome XXVII, DAMAS, 1975, p.19-44.

الحسين بولقطيب، ابن تومرت وتجديد الفكر الإسلامي، مجلة الاجتهاد، بيروت، العدد 20، صيف 1993، ص.59-83.

84- توجد وقائع مضامين هذه المناظرة ضمن كتاب "أعز ما يطلب" لابن تومرت، هذا بالإضافة إلى وجود ذكر وقائعها في مؤلفات الحوليات وكتب التاريخ العام الوسيطية. محمد بن تومرت، أعز ما يطلب، تحقيق د. عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص. 29-37.

85- روض القرطاس، ص. 174-175.

86- روض القرطاس، ص.175.

87- ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.175.

الفقهاء إلى إجهاض تياره منذ البداية، ولعل هذا ما عبروا عنه عندما رأوا «**باهر علمه وإصابة معرفته أخذتهم فضيحة العجز وركنوا إلى ظلمة الجحد والإنكار، فلبسوا عليه وقالوا لأمير المسلمين علي بن يوسف : هذا رجل خارجي مسعور أحمق صاحب جدل ولسان يُضل جُهال الناس**»[88].

يتضح لنا من خلال حكم فقهاء المرابطين على أفكار ابن تومرت أن هناك رغبة في الانتقام، والتخلص من أي شخص حاول التقرب من العامة[89]، فالفقهاء لم يعطوا أهمية لعجزهم الفكري وقصورهم المعرفي في قضايا دينية وفقهية أثناء انعقاد المناظرة التي جمعتهم بابن تومرت في حضرة الأمير المرابطي علي بن يوسف بقدر ما اهتموا بأبعاد خطاب ابن تومرت ورسائله التي كان يبعث بها عند اتصاله بعامة الناس، فهو بإمكانه أن «**يُضل جُهال الناس وإن بقي بالمدينة يُفسد عقائد أهلها وينشر ذلك عند الناس حتى يرسخ ذلك في قلوب أكثر العامة**»[90].

إن ذلك يكشف لنا، بشكل صريح، عن وجود فئة اجتماعية تحتل مكانة واسعة في المجتمع المراكشي على عهد المرابطين وهي العامة، والتي لا شك أنها عانت كثيرا خلال تلك الفترة من السياسة المرابطية، ولعل ما يؤكد ذلك هو تخوف فقهاء المرابطين من اتصال ابن تومرت بهذه الفئة[91]، فهل يمكن القول بأن حركة ابن تومرت وقيامه على المرابطين جاءت تلبية لطموحات العامة ؟

88- ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.175.

89- نستعمل هنا العامة بمعنى الفئة الاجتماعية التي تقابل الخاصة، ونقصد بها فئة الحرفيين والبنائين والفقراء وكذا صغار التجار. ونشير إلى أن دراسة تهتم بالعامة في المغرب المرابطي لم يتم إنجازها بعد، فلا توجد إلا بعض المقالات نذكر منها ما يتعلق بالفترة قيد الدرس، إبراهيم القادري بوتشيش، العوام في مراكش خلال عصري المرابطين والموحدين، ضمن أعمال ندوة مراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحدي، كلية الآداب بمراكش، السنة 1988، ص ص.117-133، كما خصص هذا الباحث ضمن أطروحته فقرة هامة "حول العامة" في الفصل الثالث من دراسته.

إبراهيم القادري بوتشيش، الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، أطروحة دكتوراه الدولة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس، 1991، خزانة كلية الآداب مكناس، رقم : 100، الفصل الثالث، ص.524-563.

90- ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.175.

91- إبراهيم القادري بوتشيش، الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، الفصل الثالث، ص. 552-568.

إنه من الصعب الإجابة عن هذا التساؤل، وإن كان المهدي يظهر من خلال المصادر بمظهر الزاهد المتقشف، فلا شك أن هذا الفقيه كان يطمح الوصول إلى مرتبة تؤهله لاحتكار السلطة بمفرده[92]، ذلك أن قدرة محمد بن تومرت على فهم الواقع الاجتماعي المغربي خلال تلك الفترة من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي مكنته من استكشاف مكامن ضعف السلطة المركزية مما جعله يقوم بتحريض العامة ويستغلها للانتفاضة والثورة ضد المرابطين[93].

لقد وقفت السلطة المركزية المرابطية على خطورة هذه الحركة، غير أن تضارب مواقف العناصر المشكلة لهذه السلطة حول تقييم حركة ابن تومرت هو الذي ساعد هذا الأخير ومكنه من مغادرة مدينة مراكش والهروب منها دون إحداث مشاكل. فالفقيه مالك بن وهيب حذّر الأمير المرابطي من خطورة ابن

---

[92]- نقصد بمفهوم السلطة هنا امتلاك القرار من خلال الأمر والنهي من جهة وكذا احتكار العلم والمعرفة من جهة أخرى. "...ولا نِدَّ له في الورى، ولا من يعانده، ولا من ينازعه، ولا من يخالفه ولا من يضاده ولا من يكابره ولا من يعصيه، ولا من يجهله، ولا من يهمل أمره، من ناوأه فقد تقمع في الردى، وليس له التطرق إلى النجاة، لا يقابل إلا بما يوافقه، ولا تصدر الأشياء إلا عن أمره، ولا تجري الأمور إلا على محبوبه، ومحبوبه محبوب ربه، فالعلم به واجب، والسمع والطاعة له واجب، وإتباعه والإقتداء بأفعاله واجب، والإيمان به والتصديق به واجب على الكافة، والتسليم له واجب، والرضا بحكمه واجب، والانقياد لكل ما قضى واجب، والرجوع إلى علمه واجب، وإتباع سبيله واجب، والاستمساك بأمره حتم، ورفع الأمور إليه بالكلية لازم، والإعراض عنه، بعد، وعصيانه بعد، ونزاعه بعد، والشك فيه بعدّ والظن فيه بعد، وخيانته بعد، والأنفة عنه بعدّ، وإهمال أمره بعدّ، والاستخفاف بحقه بعد، وإنكار أموره بعد، والتلبيس على قوله بعد، والتأويل دون تأويله بعدّ، والسبيل دون سبيله بعد، والعمل بغير سنته بعد، وسنته سنة الله ورسوله، وأمره أمر الله ورسوله، وطاعته طاعة الله ورسوله". محمد بن تومرت، "أعز ما يطلب" ص.234-236.

[93]- إضافة إلى الفصول التي خصصها ابن تومرت لانتقاد المرابطين فقد جاء في رسالة المنظمة ما يلي: "...واغتنموا الأجر والثواب في هذه الأيام قبل فواتها، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله حق جهاده، فجهاد الكفرة الملثمين قد تعين على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر، لا عذر لأحد في تركه، ولا حجة له عند الله، فإنهم سعوا في هدم الدين، وإماتة السنة واستعباد الخلق، وتمادوا على الفساد في الأرض، وعلى العتو والطغيان، وعلى هلاك الحرث والنسل، والاعتداء على الناس في أخذ أموالهم، وخراب ديارهم، وفساد بلادهم، وسفك دمائهم، واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل، وأخذ أموال اليتامى والأرامل، وتمالوا كلهم على ذلك وتعاونوا عليه فرحين مسرورين، يجمعون الحرام ويتمتعون بالسحت، حتى اعتادوا الإسراف والتبذير في اللذيذ من الطعام، والرقيق من الثياب، والخيل المسوّمة، وغير ذلك مما علم من أباطيلهم وجورهم وفسادهم في الأرض، قد علمه الخاص والعام، واشتهر في سائر البلدان، وقد ظهر باطلهم للصغير والكبير لا يحتاج إلى بيان...". محمد ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص.-260-261، فلا شك أن هذه الانتقادات قد ساهمت في إذكاء الحماس في العامة والخاصة على السواء مما أدى إلى تزايد حقدها على المرابطين.

تومرت، وطلب منه أن يحجبه عن الناس وذلك بوضعه في بيت من حديد[94]، وأشار البعض الآخر من الفقهاء على الأمير بأن يقوم باعتقاله[95]، أما الوزير المرابطي "ينتيان بن عمر" فقد استضعف شأن ابن تومرت وقلل من مكانته ونصح علي بن يوسف ألا ينتبه إليه أو يعبأ بشخصه وبأفعاله[96].

إن هذا الاختلاف في المواقف يعكس لنا تصور كل فئة لشروط نجاح زعيم سياسي ومذهبي أو قائد حركة ثورية، فالوزير المرابطي نظر إلى المهدي من منظور ومعايير مختلفة عن تلك التي قيَّمَ بها الفقهاء شخصية ابن تومرت، ذلك أن الوزير والقائد العسكري نظر إليه بالمقارنة مع مدى القوة العسكرية والجاه الذي يتوفر عليه الأمير المرابطي، أما الفقهاء فقد اعتمدوا في موقفهم على معيار قدرة ابن تومرت على فهم واقع المجتمع المغربي آنذاك، ومدى قدرة هذه الشخصية على التأثير في ذهنية الناس وتوجيه الرأي العام[97].

لقد اكتفى الأمير علي بن يوسف بطرد ابن تومرت من مراكش[98]، ضانا منه أنه بهذا الإجراء سيتمكن من القضاء على المشاكل التي أحدثها هذا الفقيه بعاصمة المرابطين، غير أن هذا القرار لم يستطع وقف نشاط ابن تومرت ودعوته، وذلك عندما وصلت التقارير إلى البلاط المرابطي حول مدى خطورة حركة ابن تومرت التي بدأت تتسع قاعدتها في ضواحي العاصمة[99].

ويحدثنا ابن أبي زرع في هذا السياق عن قيام المهدي بنصب «**خيمة بالجبانه بين القبور بقرب المدينة وقعد بها، فكان يأتيه بعض الطلبة فيقرأون عليه ويأخذون عنه حتى كثر عليه الجمع واجتمع عليه أتباعه وتلاميذه**

94- البيذق، أخبار المهدي، ص.27-28.

95- البيذق، أخبار المهدي، ص.27-28.

96- مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص.101، البيذق، أخبار المهدي، ص.29.

97- بالاعتماد على رواية البيذق يظهر بأن "يينتان بن عمر" كان متعاطفا مع المهدي حيث صاحبه الفقيه السوسي إلى منزله مع أصحابه كما نصح الفقيه بمغادرة مراكش بعدما تبين له بأن الأمير المرابطي عازم على مواجهته "**فقال له يا فقيه سر حيث شئت وأمرك لله، ولا تجعلنا نهلك على يديك**" البيذق، أخبار المهدي، ص.29.

98- البيذق، أخبار المهدي، ص.28.

99- البيذق، أخبار المهدي، ص.28، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.175.

وتكاثر عليه الناس، وامتلأت قلوبهم له محبة ومهابة وتعظيما، فأعلم الخاصة منهم بالذي قصده وبما يريده، وأخذ يطعن في المرابطين ويقول عنهم بأنهم: هم كفرة مجسمون، وغزوهم واجب على كل من يحلم أن الله تعالى واحد في ملكه أوجب من غزو الروم والمجوس، وتابعه على ذلك ما يزيد على ألف وخمسمائة، فرفع خبره إلى أمير المسلمين علي بن يوسف، وعرف أنه يطعن في دولته ويكفرهم، وأنه قد كثر أتباعه على مذهبه...»[100].

وإذا ما أخذنا برواية القرطاس يمكن القول أن مغادرة محمد بن تومرت مدينة مراكش تعتبر مؤشرا عن بداية الفعل السياسي للحركة التومرتية ما دام زعيمها قد أعلن عن أهدافه المتمثلة في القضاء على دولة المرابطين، كما بدأ في الوقت نفسه بنهج خطة لتأطير الأتباع.

إن ما يؤكد على مدى تزايد خطورة هذه الحركة هو إصدار الأوامر من طرف السلطة المركزية للبحث عن ابن تومرت حيث اشتدت اللهجة هذه المرة عندما قرر الأمير علي بن يوسف إعدامه غير أن ابن تومرت استطاع النجاة بعد ما أعلمه أحد تلامذته بالمكيدة المدبَّرة ضده[101].

لقد غيرت السلطة المركزية المرابطية –في شخص الأمير علي بن يوسف– موقفها من ابن تومرت، وقررت اللجوء إلى أسلوب الاغتيال لجعل حد لحركته. ولعل السبب في مراجعة الموقف الرسمي المرابطي من الفقيه السوسي يكمن في اعتماد السلطة المركزية في شخص الأمير علي بن يوسف على التقارير التي رُفِعَتْ إليها بشأن تداعيات نشاط الحركة التومرتية.

---

[100]– ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.175.

[101]– ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 176-177، حيث ذكر في هذا الصدد أن التلميذ "**نادى بأعلى صوته : يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين، وكرر النداء ثلاث مرات ثم سكت ففطن المهدي لندائه فخرج في الحين مسرعا مختفيا حتى بلغ تينمل**"، ويستنتج من خلال هذه الرواية كذلك مدى التأييد الذي لقيه ابن تومرت وجماعته كما أنها قد تدل على رغبة الأتباع والمريدين في الخروج والتمرد عن سلطة المرابطين.

ذلك أنه بالإضافة إلى ما قد يترتب عن مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مشاكل بالنسبة للسلطة المرابطية[102]، وكذا ما قد ينتج عن ذلك من ظهور خلية من المريدين والأتباع، فإن ما زاد من خطورة الحركة التومرتية هي الدعوة إلى الإمامة والبيعة التي أصبح يطالب بها ابن تومرت[103]، وهذا ما يمكن تفسيره عند الدوائر الرسمية بشكل صريح وتأويل أبعاد طموح الحركة التومرتية على أساس رغبة زعيمها وعزمه على القضاء على المرابطين كسلطة شرعية، ولعل ما يُفَسِّرُ لنا ردود فعل علي بن يوسف عند اشتباهه في أمر محمد بن تومرت هو اتخاذه لتدابير زجرية تتجلى في كونه «**عزم على قتله، وبعث من يأتيه برأسه**»[104].

يبدو أن التدابير التي اتخذها الأمير المرابطي جاءت متأخرة، هذا في الوقت الذي تتضح لنا فيه مدى أهمية رأي الفقيه "ابن وهيب" في ابن تومرت ونشاطه بالعاصمة مراكش، فالسؤال الذي يطرح نفسه هو التالي: ما هو السبب الذي أدى بهذا الفقيه المالكي لكي يتخذ موقفا صارما من ابن تومرت منذ تواجده بعاصمة المرابطين ؟

---

[102]– نقصد بذلك حالة الفوضى بشكل عام، خصوصا وأن المهدي بن تومرت لم يكتف في دعوته هذه بالوعظ والإرشاد، وإنما استعمل العنف المادي في قيامه بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذلك ما حدث مثلا في مدينة فاس عندما تم تحريض أتباعه وتلامذته على الهجوم على محلات بيع الأدوات الموسيقية كما أشرنا إلى ذلك في المبحث الثاني ضمن هذا الفصل تحت عنوان : "من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى مواجهة السلطة المرابطية".

[103]– لقد ذكر ابن أبي زرع أن الناس تكاثروا عليه "**وامتلأت قلوبهم له محبة ومهابة وتعظيما، فأعلم الخاصة منهم بالذي قصده وبما يريده، وأخذ يطعن على المرابطين ويقول : هم كفرة مجسمون، وغزوهم واجب على كل من يعلم أن الله تعالى واحد في ملكه... فرفع خبره إلى أمير المسلمين علي بن يوسف وعرف أنه يطعن في دولته ويكفرهم، وأنه قد كثر أتباعه على مذهبه**". روض القرطاس، ص.175، غير أن ما يلاحظ على ابن أبي زرع اعتمادا على معطيات هذا النص أنه تبنّى الموقف الذي طرحه ابن تومرت في كتابه "أعز ما يطلب" وأسقطه على الفترة التي تواجد بها في ضواحي العاصمة المرابطية. إلا أن الحيطة والحذر المعروف بهما ابن تومرت لا تسمح لنا أن نوافق صاحب القرطاس فيما رواه لنا من أخبار في هذا الصدد، دليلنا في ذلك أن البيذق وهو المشايع للموحدين ورفيق ابن تومرت في رحلة العودة إلى المغرب، وملازمته أينما حل وارتحل لا يذكر لنا في هذا السياق سوى أنه التزم القراءة أياما حتى سمع علي بن يوسف خبره، فأرسل في طلبه حيث تميز حواره بالهدوء، ولم يَرِدْ في كلام ابن تومرت ما قد يفيد أي طعن أو قذف واضح للمرابطين ورموز دولتهم. البيذق، أخبار المهدي، ص.29.

[104]– ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.176.

يقدّم لنا المراكشي جوابا عن تساؤلنا هذا على لسان الفقيه المرابطي "مالك بن وهيب" عندما قال في ابن تومرت «**هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه، وإن وقع هذا في بلاد المصامدة ثار علينا منه شر كثير!**»(105).

إن البحث في علاقة المرابطين كسلطة شرعية بالمصامدة في "جبال درن"، هي وحدها الكفيلة بتفسير أعمق للحركة التومرتية التي جعلت من هذه المنطقة بؤرة للمشاكل وفضاءً لانتشار الأزمات التي أدت في فترة لاحقة إلى انقراض دولة الملثمين بالمغرب والأندلس.

المبحث الرابع :
من تهديد السلطة المركزية إلى ممارسة التغيير، أو ابن تومرت في جبال المصامدة

تجمع المصادر على أن ابن تومرت اختار جبال درن مركزا لنشر دعوته ومجالا لاستقطاب أتباعه واستنفارهم ضد المرابطين، إلا أن النصوص تضاربت حول الوجهة التي اتخذها المهدي بعد أن اضطر إلى الخروج من مراكش(106)،

105– عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص.272.
ويبدو أن الرواية الموحدية تحاول دائما إبراز أهمية المصامدة في حركة ابن تومرت، وجاء الحرص على ذكر رأي "مالك بن وهيب" لتحقيق هذا الغرض، ولا شك أن كتاب الأنساب في معركة الأصحاب، للبيذق جاء من أجل إعطاء قيمة لهذه القبائل بالنسبة للحركة التومرتية.

106– فقد ذكر البيذق أنه بعد خروجه من مراكش اتجه إلى أغمات تم ارتحل إلى تنملل بعد أن مر بمجموعة من المراكز والتجمعات البشرية، وتحدث صاحب المعجب عن خروج ابن تومرت وأصحابه متوجها إلى سوس، فنزل المهدي بموضع يعرف بتينملل، أما صاحب نظم الجمان فقد أشار بأنه عام 515هـ حل بجبل إيجليز وأقام به ثلاثة أعوام يدَرِّسُ العلم ويخاطب القبائل. وذكر ابن أبي زرع بأن ابن تومرت اتجه مختفيا ومسرعا إلى تينملل في شهر شوال 514هـ فنزل بها، ولحقه أصحابه العشرة الذين أقاموا معه إلى حدود رمضان 515هـ فكثر أتباعه وعظم صيته في جبل درن. أما صاحب الحلل الموشية فأشار إلى ذهابه إلى مدينة أغمات فدرّس بها العلم إلى أن أخرجه صاحبها وغرّبه إلى منطقة سوس الأقصى وذلك سنة 515هـ فتبعه الناس، واجتمعت عليه البرابر يسألونه في أمور دينهم. البيذق، أخبار المهدي، ص.29-34، عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص.273، ابن القطان، نظم الجمان، ص.78، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.176، مؤرخ مجهول، الحلل الموشية، ص.101.

غير أن هذا التضارب في الآراء لم يمنع النصوص التاريخية من الاتفاق نسبيا حول سنة بداية دعوة المهدي وإعلان إمامته حيث تراوحت التقديرات بين 514 و 516هـ[107].

إن اختيار ابن تومرت لمنطقة جبال درن لم تكن عملية اعتباطية بقدر ما كانت مدروسة ومخطط لها سلفا[108]، لذلك يبقى من الضروري الكشف عن أسباب هذا الاختيار الذي أملته في اعتقادنا عوامل متعددة نشير إلى بعضها في ما يلي :

– **الدافع الأمني** : ذلك أنه باللجوء إلى هذه الجبال المعروفة بوعورتها الطبيعية ومسالكها الصعبة خاصة تينملل التي تُعتبر حصنا منيعا بأعلى الجبل الذي يقول عنه الإدريسي بأن «**الصعود إليه على مكان ضيق وعر المرتقى لأنه يشبه الدرج الحرج ولا ترتقي إليه دابة البتة إلا بعد جهد ومشقة**»[109]. فهذه المنطقة تبقى الملجأ المناسب بالنسبة لابن تومرت، الذي اقتنع بضرورة تغيير استراتيجيته التي راهنت في بدايتها على الاعتماد على سكان حواضر المغرب الأقصى. إن مخاطبة هؤلاء السكان، على ما يبدو، لم يهدف من ورائها سوى تحفيزهم للوقوف ضد سياسة المسؤولين، ومحاولة منه لإقناعهم بانحراف سلوك وسيرة ملوك دولة المرابطين وفقهائهم[110]. فالمهدي بن تومرت كان على وعي بمدى الحضور الأمني بالمناطق السهلية، خاصة منها مدينة

107– فابن القطان يذكر بيعته في سنة 514هـ على قول، وفي 515هـ على قول آخر، أما البيذق فقد أشار إلى أن البيعة تمت بتينملل خلال سنة 514هـ، ويذكر ابن عذاري في هذا الصدد: "**وفي سنة ثمان عشرة وخمسمائة تسمى محمد بن تومرت السوسي بالمهدي وكان لما اشتهر صيته في قبائل الجبال ووصلوا إليه رحل معهم إلى جبل إيجليز لهرعة فلما صار في منعة الجبل وحماية عشيرته خاطب القبائل ومد يده للبيعة وذلك في سنة ست عشرة**". البيان، ج4، ص.68، نظم الجمان، ص.123، البيذق، ص.34.

108– إن المصادر التي تحدثت عن عودته من بلاد المشرق، تشير إلى أن ابن تومرت كان يتطلع إلى منطقة درن وبالضبط تينملل ذلك ما نجده عند نزوله بضيعة يقال لها ملالة بالقرب من بجاية حيث التقى بعبد المؤمن "**سُمِعَ وهو يقول ملالة! ملالة!...**". المعجب، ص.266.

109– الشريف الإدريسي، الإدريسي، "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، المجلد الأول، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، دون تاريخ، ص.230.

110– يعبر عن هذه الصورة بشكل واضح كتاب "أعز ما يطلب" من خلال الأبواب التي خصصها ابن تومرت "**لبيان طوائف المبطلين من الملثمين والمجسمين وعلاماتهم، ووجوب جهادهم، والتبشير بالطائفة التي ستحاربهم**"، محمد بن تومرت، أعز ما يطلب، ص.242-254.

مراكش والمناطق المجاورة لها لذلك لم يحاول أن يتخذ من أتباعه فيها نواة قوة عسكرية، فاكتفى الفقيه السوسي فقط بشحن الأشخاص وتحريضهم من أجل فك الارتباط بينهم وبين المرابطين كحكام شرعيين.

إن التهديد باغتيال ابن تومرت من طرف الأمير المرابطي علي بن يوسف[111] ثم إصدار الأمر بتغريبه إلى سوس من قبل صاحب أغمات هو ما دفع بالمهدي إلى التوجه نحو حصن تنمل «**الذي زاد في تشييده ونظر في تحصينه وجعله مدخرا لأمواله**»[112].

- **دافع العصبية** : وهو المتمثل في تواجد عصبية ابن تومرت في قبيلة هرغة إذا ما حاولنا الاعتماد على الطرح الخلدوني في كون الدعوة لا بد لها من عصبية تؤازرها[113]، غير أن هذا العامل لم يكن في نظرنا سببا كافيا، ذلك أن طبيعة علاقة السلطة المرابطية بقبائل المصامدة هي التي فرضت على ابن تومرت اختيار هذا المجال منطلقا لحركته[114]، غير أن المصادر التاريخية لا تسعفنا في تحليل هذا الجانب، فلا توجد إلا إشارات قليلة تتحدث عن مشاركة قبائل المصامدة في الحملات العسكرية الموجهة إلى الأندلس[115]، وكذا إشارتها إلى موقف المرابطين الحذر من القبائل المجاورة لعاصمتهم بجبال

111– ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.176.

112– ويذكر الإدريسي هذا الحصن باسم "تانملت"، ويسميه صاحب الاستبصار بـ "تينمل"، أما بن سعيد في كتابه الجغرافيا فيسميه "تينملل". الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص.230، مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص.208، ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1970، ص.125.

113– يذكر ابن خلدون "**أن كل أمر تُحمَلُ عليه الكافَّة فلا بد له من العصبية**". ابن خلدون، العبر، المجلد الأول (المقدمة)، ص.168.

114– تشير المصادر إلى الصراع القائم بين المصامدة أهل الجبل وصنهاجة، فهذا الصراع تزايد مع وصول المرابطين إلى الحكم، وتأسيسهم لعاصمة دولتهم مراكش في قلب أرض المصامدة. محمد زنيبر، مقال سابق، ص.137.

115– نشير في هذا السياق إلى ما جاء عند ابن عذاري قائلا : "**وتحرك أمير المسلمين علي بن يوسف من حضرة مراكش مع جيوش المرابطين والمصمودين والجنود والحشود يوم الجواز إلى بلاد الأندلس**". ابن عذاري، البيان، ج4، ص.48.

درن، والذي دفع المسؤولين الصنهاجيين منذ بداية تأسيس دولتهم على احتواء ومراقبة هذه القبائل الجبلية مما استوجب ضرورة بناء العاصمة مراكش[116].

ويشير ابن خلدون في هذا السياق عند حديثه عن مصامدة الجبل قائلا : «...**إلى أن أظلتهم دولة لمتونة فكان أمرهم فيها مستفحلا، وشأنهم على أهل السلطان والدولة مُهِمًّا. حتى لقد اختَطُّوا مدينة مراكش لنزلهم جوار مواطنهم من درن ليتمرسوا بهم، ويذللوا من صعابهم**»[117]. هذا ويتحدث الإدريسي عن الضغط الجبائي الذي عرفته مراكش وغيرها خلال حكم المرابطين[118]، يضاف إلى ذلك تأكيد المهدي بن تومرت، في سياق انتقاده للنظام السياسي المرابطي ضمن كتابه "أعز ما يطلب"، على تعدد المغارم والضرائب التي تم استحداثها خلال العهد المرابطي[119]. وفي هذا السياق جاء في "رسالة المنظمة" للمهدي منتقدا المرابطين بكونهم : «...**تمادوا على الفساد في الأرض، وعلى العتو والطغيان، وعلى هلاك الحرث والنسل، والاعتداء على الناس في أخذ أموالهم، وخراب ديارهم، وفساد بلادهم، وسفك دمائهم، واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل، وأخذ أموال اليتامى والأرامل، وتمالوا كلهم على ذلك، وتعاونوا عليه، فرحين مسرورين، لا ناهي ولا منتهي، يجمعون الحرام، ويتمتعون بالسُّحت...**»[120].

ويبدو أنه على الرغم من كون هذا النص يلخص لنا السياسة المرابطية عامة تجاه الرعايا، فإن ذلك ينطبق بشكل كبير على علاقة السلطة المرابطية مع قبائل جبال درن.

أما بخصوص الرواية المشرقية فهي تقدم لنا بعض التفاصيل عن مسألة الضرائب وطرق جبايتها بجبال درن خلال العهد المرابطي، فتحدّثت هذه الرواية

116– مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية 1985، ص.209.

117– ابن خلدون، العبر، ج6، ص.266.

118– نزهة المشتاق، ج1، ص.209.

119– محمد بن تومرت، أعز ما يطلب، ص.244-245.

120– محمد بن تومرت، أعز ما يطلب، ص.260.

عن السلطة المركزية المرابطية التي كانت تبعث كل سنة بمجموعة من الفرق العسكرية النصرانية إلى جبال المصامدة من أجل جباية الضرائب حيث كانوا يأخذون ما لهذه القبائل من الأموال المقررة لهم من طرف السلطة المرابطية[121].

ويتضح لنا من كل ذلك أن مصامدة الجبل لم يكونوا راضين عن السياسة العامة للمرابطين وخاصة منها تلك المتعلقة بالنظام الضريبي، ولعل هذا هو ما يفسر الموقف الذي اتخذه الفقيه المرابطي "مالك بن وهيب" من ابن تومرت بعد انعقاد مناظرته بالعاصمة المرابطية[122]. إن تخوف "مالك بن وهيب" من الحركة التومرتية لا يمكن تفسيره إلا بالضغط المفروض على هذه القبائل جبائيا من جهة وكذا من خلال تمويل الحملات العسكرية بالرجال والمؤن من جهة ثانية[123].

لا شك أن ابن تومرت حاول من خلال هذه الهوة أن ينفد داخل هذه القبائل، ليعمل على محاولة تفجير الصراع المكبوت وغير المعلن بين مصامدة الجبل من جهة والسلطة المركزية المرابطية من جهة أخرى، وفي هذا السياق يتحدث صاحب العبر عن المصامدة قائلا : « **ولهم مع لمتونة ملوك المغرب حروب وفتن سائر أيامهم، حتى كان اجتماعهم على المهدي وقيامهم بدعوته فكانت لهم دولة عظيمة أدالت من لمتونة بالعدوتين...**»[124].

121– ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 8، ص.296-297، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 5، ص.51-52.

122– عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص.272.

123– لقد استنتجنا ذلك من خلال حديث ابن القطان عن المصامدة بعد اعتناقهم للدعوة التومرتية حيث أشار في هذا السياق قائلا بأنه: "**تمنَّعَ من أهل الجبل كل من أطاع الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه من أداء كل ما كانوا يؤدونه لعلي بن يوسف**". ابن القطان، نظم الجمان، ص.133.

124– ابن خلدون، العبر، ج6، ص.265.

لقد كانت قبائل المصامدة على استعداد لممارسة العصيان المدني ضد السلطة المركزية في أي لحظة توفرت فيها الشروط الموضوعية والمواتية للقيام بالتمرد والثورة على النظام المرابطي[125].

يتضح أن ابن تومرت قد وجد الظروف المناسبة للإعلان عن دعوته، كما تهيأت له الشروط الموضوعية للإفصاح عن مشروعه الفكري والمذهبي، فما هي الخطة التي سلكها المهدي لإعلان دعوته في المجال القبلي للمصامدة بجبال درن ؟

تكاد تتفق النصوص التاريخية حول الطريقة التي نهجها الفقيه السوسي لجر الأتباع واستمالة أهل قبيلته وباقي قبائل جبال درن، فبالإضافة إلى المصادر التي أرّخت لابن تومرت وحركته، فإن كتاب "أعز ما يطلب" للمهدي يعتبر وثيقة شاهدة على هذه المرحلة من مراحل تطور الحركة التومرتية خاصة بعد خروج صاحبها من مراكش. إن دليلنا في ذلك هو ما جاء في هذا الكتاب على لسان ابن تومرت بخصوص "العلم"، أنه قد حدَّث به برباط هرغة ببلد سوس سنة 515هـ[126]، فلا شك أن كتاب "أعز ما يطلب" قد تضَمَّنَ الخطاب السياسي والفكري والمذهبي الذي وجهه ابن تومرت إلى قبائل المصامدة، لاسيما وأن فصولا من هذا المؤَلَّف قد خصصها لانتقاد المرابطين[127].

125– لا شك أن القبائل المصمودية قد تنبهت إلى أهمية الزعيم المذهبي، ودور الدعوة الدينية في الثورة على السلطة المركزية خصوصا بعد نجاح المرابطين في إقامة دولتهم. ذلك أن المصامدة –على ما يبدو– حاولوا تجاوز الخطأ الذي ارتكبوه عندما رفضوا الاستجابة لدعوة عبد الله بن ياسين عندما مر ببلادهم ودعاهم إلى الالتفاف حول إمام معين. فقد أشار ابن عذاري في بيانه "...**فكان من عبد الله بن ياسين بعض الإلهام أن قال لبعضهم: "ألا تعرفون الله ربكم ومحمدا رسولكم عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام" فقال لهم عبد الله: "فما لكم بدلتم وغيرتم؟ هلا قدمتم عليكم إماما يحكم بينكم بشريعة الإسلام وسنة النبي عليه السلام؟" فقال له بعض أشياخ المصامدة، "لا يرضى أحد منا ينقاد إلى حكم أحد من غير قبيلة" فتركهم ورحل عنهم إلى بلاد جزولة...**". ابن عذاري، البيان، ج4، تحقيق إحسان عباس، ص.10.

فيبدو أن المصامدة قد أدركوا بأن القبائل الصنهاجية ما كانت لتضم المغرب والأندلس تحت سيطرتها لولا أهمية الدعوة التي قام بها ابن ياسين، لذلك استغلوا فرصة استقرار ابن تومرت بجبال المصامدة لمساندته والقيام بدعوته.

126– محمد بن تومرت، أعز ما يطلب، ص.30.

127– ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص.242-249.

إن الشروع في تدريس العلم وتلقينه كانت، على ما يبدو، أول خطوة قام بها محمد بن تومرت لإنجاز مشروعه[128]، ذلك أن اختيار ابن تومرت للتعليم أسلوبا لبث دعوته قد انطلق من قناعته بمكانة الفقيه العالم داخل المجتمع المغربي آنذاك والقبلي منه بشكل خاص. ذلك أنه بالإضافة إلى ما يمكن أن يحظى به الفقيه العالم من تقدير واحترام عند نخبة القبائل وعامتها لما يحمله من تراكم معرفي بمرجعية إسلامية تتمثل في القرآن والفقه والحديث، فإن ابن تومرت كان يرى في تمرير خطابه النقدي للمجتمع المرابطي[129] من خلال حلقات الدرس وسيلة لزرع بذور ثورة المصامدة ضد النظام السياسي المرابطي.

ولعل ما ساعد ابن تومرت على إنجاز مشروعه هذا هو إتقانه وتمكُّنُهُ من لغة تلك القبائل، والتي كانت وسيلة لتبليغ الخطاب التومرتي[130]، مما جعل أتباعه من هذه القبائل يتمكنون من فهم مبادئ وأفكار دعوته المذهبية، وهكذا زاد تعظيمهم لابن تومرت على حد تعبير المراكشي[131]، والذي يؤكد لنا من خلال معجبه الخطة التي نهجها هذا الزعيم المذهبي من أجل إذكاء الحماس في صفوف مريديه من بين قبائل المصامدة وتهييئهم لإعلان الثورة على المرابطين حيث تحدث في هذا الصدد قائلا : «...**فلما استوثق منهم دعاهم إلى القيام معه أولا على صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا غير**»[132]، ويضيف في السياق ذاته قائلا : «...**وأمر رجالا منهم ممن استصلح عقولهم بنصب الدعوة واستمالة رؤساء القبائل، وجعل يذكر المهدي ويشوق**

128– فقد ذكر ابن القطان في هذا الصدد ما يلي : "**وأول ما دبرهم به أنه ألف لهم كتاب "التوحيد" باللسان البربري وهو سبعة أحزاب عدد أيام الجمعة أيام كان الموحدون أعز هم الله تعالى مع الإمام المهدي –رضي الله تعالى عنه– بتينملل**"، نظم الجمان، ص.129.

129– محمد بن تومرت، أعز ما يطلب، ص ص.242–249.

130– يشير دومينيك أورفوي إلى أهمية الأصول الأمازيغية لابن تومرت ودورها في تمَكُّن هذا الزعيم المذهبي من لغته الأصلية بالإضافة إلى إتقانه للغة العربية مما جعل الجزء الكبير من دروسه في الوعظ والإرشاد تتم بلغته الأم، كما تأليف كتابه باللغة ذاتها قبل ترجمتها إلى اللغة العربية.

Dominique Urvoy, La pensé D'Ibn TUMART, op.cit, p.20.

131– المعجب، ص.273.

132– المعجب، ص.274.

إليه»[133]، فكيف تمكن ابن تومرت من إقناع قبائل المصامدة بمهدويته وعصمته[134] ؟

لقد تحدّث المراكشي[135] عن محمد ابن تومرت قائلا بأنه أورد لهم مجموعة من الأحاديث النبوية التي تفصح عن فضيلة المهدي ونسبه ونعته ونسب ذلك كله لنفسه، كما أعلن أنه المهدي المعصوم بعد ما رفع نسبه إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأتى لهم بأحاديث في ذلك[136]. وأشار صاحب القرطاس في ذات السياق إلى أن المهدي كثر أتابعه وعظم صيته في جبل درن مما جعله يُعلن دعوته[137]، فدعا الناس إلى بيعته فكان أول من بايعه أصحابه العشرة[138] في يوم الجمعة 15 من شهر رمضان عام 515هـ بعد أداء صلاة الجمعة، وفي اليوم التالي خرج إلى المسجد بتينملل مع أصحابه العشرة متقلدين سيوفهم، فصعد المنبر وأعلمهم أنه الإمام المهدي المنتظر الذي

133– المعجب، ص.274–275.

134– حول مهدوية محمد بن تومرت يمكن الرجوع إلى مقال الأستاذ عبد الله العروي :

ABDALLAH LAROUI, SUR LE MAHDISME D'IBN TUMART, in MAHDISME CRISE ET CHANGEMENT DANS L'HISTOIRE DU MAROC, Publications de la Faculté des lettres et des sciences humaines, Rabat, Série colloques et séminaires, N°35, 1994, p.9-13.

135– المعجب، ص.275.

136– المعجب، ص.275.

137– ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.176. وبالرجوع إلى كتاب أعز ما يطلب لا يوجد بشكل صريح بأن ابن تومرت قد نسب ذلك إلى نفسه باستثناء ما ذكره في آخر كتابه تحت عنوان "معرفة المهدي رضي الله عنه" حيث قال : "وأما القول فإنه قال: أنا المهدي وهو صادق في قوله"، ذلك أن كل ما أتى به ابن تومرت في كتابه بخصوص المهدي هو عبارة عن أحاديث نبوية. ويظهر من هذا الكتاب، أن الفقيه السوسي قد حاول من خلال أسلوبه والنهج الذي سلكه، أن يستند على الأحاديث والآيات القرآنية حتى يتأتى له التأثير في الناس ليقتنعوا بأنه المهدي. وهكذا يكون لقب المهدوية قد جاء من اقتراح الجماعة المرافقة لابن تومرت والمستمعة لمواعظه، وكذا من خلال مبادرة أتباعه الذين رافقوه طيلة عودته من رحلته المشرقية وذلك منذ دخوله المغرب الأقصى. دليلنا فيما ذهبنا إليه ما جاء عند ابن القطان في النص التالي: "**قال اليسع: سمعت أمير المؤمنين أبا محمد عبد المؤمن رضي الله تعالى عنه يقول: لما فرغ الإمام المهدي–رضي الله عنه– من كلامه بادر إليه عشرة رجال منهم أنا، فقلت له هذه الصفة لا توجد إلا فيك فأنت المهدي ! فبايعناه على ذلك**". نظم الجمان، ص.125، أعز ما يطلب، ص.254.

138– حول أصحاب ابن تومرت "العشرة" وما أحدثه ابن تومرت من تنظيمات إدارية وسياسية عند إقامته بجبال درن انظر: هويثي ميراندا، التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، م س، ص.92–96، هوبكنز، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، ترجمة الدكتور أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا– تونس، 1980، ص.159–192، الدكتور عز الدين عمر موسى، الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1991، ص.63–78، علاش محمادي، نظام الحكم عند الموحدين: المذهب والمؤسسات، رسالة دبلوم الدراسات العليا في القانون العام، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، أكدال الرباط، 1984.

يملأ الأرض عدلا وقسطا بعد أن ملئت ظلما وجورا، فبايعه أهل تينملل والقبائل المجاورة[139].

إن المسألة التي تستوقفنا في هذا الصدد، وهي لماذا لجأ ابن تومرت إلى الأحاديث النبوية من أجل البرهنة على المهدوية؟ ولماذا حرص على تأكيد علاقة نسبه بالرسول والتشبه به؟

إن الاعتماد على الأحاديث النبوية تكمن خلفيته الإديولوجية في محاولة إعطاء مشروعية لدعوته، هذه المشروعية التي لا يمكن الطعن في حقيقتها نظرا لكونها تستمد قدسيتها من المثل الأعلى لأي مسلم الذي يجب عليه تقليد وإعادة إنتاج النموذج المثالي الكلي الذي جسده الرسول، والذي جمع في شخصه كل صفات السيادة العليا والهيبة والهبة اللذنية (الكاريزم)[140]، فهذا هو سر محاكاة ابن تومرت وتشبهه بمنهج النبي محمد صلى الله عليه وسلم، كما يندرج في السياق ذاته تأكيد هذا الزعيم المذهبي على الانتساب إليه[141].

إن ابن تومرت بإقدامه على هذه الخطوات لم يكن قد انطلق بعد عمليا في تنفيذ مشروعه السياسي الذي يتجلى في محاربة المرابطين، ولكن مع ذلك تبقى لهذه المرحلة أهميتها، وفي الوقت نفسه يمكن اعتبارها محطة حاسمة في مسار المشروع الثوري للحركة التومرتية. فابن تومرت لم تنحصر دعوته في التحصيل العلمي فقط، ولكنه كان يروم كذلك إلى إحياء وتجديد الإسلام، وهذا

139– ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.176. وحول استقرار محمد بن تومرت بحصن تينملل يمكن الرجوع إلى:
Henri Basset et Henri Terrasse, SANCTUAIRES ET FORTERESSES ALMOHADES, Hesperis, volume4, 1924, Deuxième édition, 1986, p.25-32.

140– محمد أركون، الفكر الإسلامي، قراءة علمية، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومي بيروت–لبنان، 1987، ص170.

141– ويذكر المستشرق الإسباني "هويثي ميراندا" في هذا السياق قائلا : "**وإذا كان النبي قد بشّر عشرة من أصحابه بالجنة، وهؤلاء لا زال أئمة المساجد يدعون لهم في خطب الجمعة بعد الدعاء لأمير البلاد، فإن المهدي حاول دون شك في اصطفائه لعشرة من أصحابه تقليد النبي**". هويثي ميراندا، التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، ترجمة عبد الواحد أكمير، م س، ص.94.

ما أدّى به إلى الانتقال من الالتزام الفكري إلى الالتزام السياسي، وهي تجربة قل نظيرها عند فقهاء تلك الفترة[142].

يبدو أن اعتماد ابن تومرت الاعتماد على المرجعية الدينية من خلال الأحاديث النبوية، وكذا عبر الانتساب للرسول ومحاولة تقليد السيرة النبوية، كان بهدف تنزيه عمله وإرجاعه إلى السيادة العليا (القرآن/سنة)، بصيغة أخرى أنه أراد أن يبرهن لأتباعه من المصامدة على أن ما كان يصدر عنه من أقوال، وما يأمر به من أفعال، ما هو إلا وحي يوحى إليه، لذلك لا يمكن المجادلة في أفعاله ما دام أن المهدي معصوم ومُنَزَّهٌ عن الخطأ.

إن قضية العصمة التي تم الترويج لها من طرف ابن تومرت[143] كانت أداة ضرورية توقَّفَ عليها إنجاز مشروعه الذي كان في حاجة ماسة إلى عدد لا يستهان به من الرجال المستعدين إلى تقديم أرواحهم لإنجاحه. فضمان أتباع مخلصين قادرين على مواجهة أخطار وصعوبات كثيرة، تتجلى في مواجهة ومحاربة القوة العسكرية المرابطية، لا يمكن أن يتم إلا من خلال ثقتهم وإيمانهم بأن زعيمهم المذهبي يسير على النهج الصحيح نظرا لتلقيه العون من الله والإتيان بالخوارق والكرامات، فيذكر ابن أبي زرع في هذا الصدد أن ابن تومرت : **«فرق من يثق بسياسته من تلاميذه في البلاد القاصية والدانية يدعون إلى بيعته ويثبتون عند الناس إمامته، ويزرعون في قلوبهم محبته مما يذكرون له من الفضائل والكرامات ويصفونه به من الزهد في الدنيا وإظهار الحق، فقصد الناس إليه من كل جهة ومكان يبايعونه ويتبركون**

142_ MOHAMED ZNIBER, L'ITINERAIRE PSYCHO-INTELLECTUEL D'IBN TOUMERT, in MAHDISM CRISE ER CHANGEMENT DANS D'HISTOIRE DU MAROC, Publication de la faculté des lettres et des sciences Humaines-Rabat, Série: Colloques et séminaires N°,35, p.28.

143_ لا يوجد في كتاب "أعز ما يطلب" على أن ابن تومرت ادعى العصمة ما عدا في إشارته في "الرسالة المنظمة" إلى ما يرمز إلى عصمته كما يلي : "**فهذه صفة المؤمن عندهم الذي تمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، واعتصم بدين الله، وهذا افتراء على الله، واستهزاء بآياته، وتلاعب بدينه، حجبهم الله عن الحق، وحال بينهم وبين الإقرار به، عصمنا الله من بليتهم...**". محمد بن تومرت، أعز ما يطلب، ص.262.

برؤيته، فيأخذ عليهم البيعة ويعلمهم أنه المهدي المنتظر حتى علا أمره، وقوي سلطانه»[144].

يطرح لنا هذا النص قضية في غاية الأهمية وهي تتعلق بدور الرواية الشفوية في تمرير الخطاب التومرتي إلى مختلف القبائل المجاورة لتنمل، فالدعاة وأتباع المهدي عند اتصالهم بسكان القبائل، أخذوا يقصُّونَ عليهم كرامات ابن تومرت، ولا شك أنهم بدأوها منذ خروجه من الإسكندرية، وتكمن أهمية هذه الرواية بخصوص الحركة التومرتية في كونها تضفي الهالة والقدسية على زعيمها مما كان يساعد على تزايد عدد أتباعه ويقوي صفوفه.

وإذا كان الأمر كذلك، فما هي العلاقة بين هذه الكرامات[145] وبين قبائل المصامدة ؟

إن تحديد هذه العلاقة بإمكانها الكشف عن ذهنية جانب من المجتمع القبلي المغربي خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي.

لقد كان ابن تومرت على وعي بمدى أهمية تلك الحكايات ومدى تأثيرها في ذِهْنِيَة تلك القبائل، فكان تمسُّكُ الفقيه السوسي بالمهدوية والعصمة دليل على مدى إدراكه لطبيعة المشاكل التي عانى منها مجتمع المصامدة بجبال درن[146]، ذلك أن ظهور المهدي يرتبط في الأدبيات الإسلامية عادة بالخلاص ونشر العدل والقضاء على الظلم والفساد[147].

فابن أبي زرع يشير بخصوص علاقة المصامدة بابن تومرت أنهم **«كانوا لا يذكرون غيره، ولا يمتثلون أمرا إلا أمره، يستغيثون في شدائدهم، ويتبركون**

144– روض القرطاس، ص.176-177.

145– لقد ذكر ابن القطان هذه الكرامات عند حديثه عن عصمة المهدي، نظم الجمان، ص.91-93.

146– يتضح من خلال المصادر أنه من بين هذه المشاكل نجد مسألة الضرائب التي فرضت على مصامدة الجبل ثم تفشي ظاهرة الاغتيالات والاقتتال فيما بين القبائل دون أن تعطى أسباب ذلك. ولا يُستبعد أن تكون الرغبة في السيطرة على الموارد الاقتصادية من بين دوافع الاقتتال بين قبائل المنطقة، على أن المصادر تميز دائما بين مصامدة الجبال ومصامدة السهول.حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى: ابن خلدون، العبر ج6، ص.245-265 ثم ص.311-326.

147– يذكر ابن خلدون في مقدمته "**اعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممر الاعصار أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين، ويظهر العدل، ويتبعه المسلمون، ويستولي على الممالك الإسلامية ويسمى بالمهدي**". العبر، ج6، ص.330.

بذكره على موائدهم»[148]، أما صاحب المعجب فيذكر بأن المهدي **«دعاهم إلى القيام معه أولا على صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا غير، ونهاهم عن سفك الدماء ولم يأذن لهم فيها»**[149].

إن تأكيد المراكشي على مسألة سفك الدماء يدل على عدم الاستقرار من جهة، كما يدل على وجود صراع قبلي في الوقت نفسه ببلاد المصامدة من جهة أخرى[150]، فالنهي عن القتل لا يمكنه أن يَرِدَ بهذه الحدَّة إلا إذا كان منتشرا ومستفحلا في المجتمع المصمودي، لذلك يبقى ظهور المهدي مسألة حتمية وذلك حتى يجعل حدا لهذا الظلم والجور الذي كانت تعاني منه المنطقة[151]، وإذا كانت المصادر لم تحدثنا عن أسباب انتشار القتل في صفوف قبائل المصامدة، فإن الشيء الذي أمدّتنا به تلك النصوص أنها كشفت لنا عن جانب من مشاكل هموم المجتمع والمتمثلة في انتشار ظاهرة القتل والاغتيالات. إن دليلنا فيما ذهبنا إليه، هو استجابة المصامدة للنداء التومرتي حيث **«أقاموا على ذلك مدة»** وتم الاعتراف بمهدويته[152]، مما يكشف لنا عن رغبة قبائل المصامدة في الانتقال إلى مرحلة جديدة يتميز فيها المجتمع بسيادة السلم بين مختلف فئاته وعناصره القبلية.

يبدو أن أسلوب الحد من القتل الذي نادى به ابن تومرت لم يكن إلا عبارة عن استراتيجية سلكها هذا الزعيم من أجل تقوية صفوفه وتعزيز مكانته

148– ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.177.

149– عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص.273.

150– لا شك أن الموارد الاقتصادية بمنطقة جبال درن قد كانت محط صراع بين مختلف البطون والأسر القبلية المتواجدة بهذه المنطقة، فنصوص الجغرافيين الذين زاروا جبال درن، أو سمعوا عنها في فترة زمنية قريبة من الفترة قيد الدرس، تحدثت في معظمها عن الأهمية الاقتصادية للمنطقة، ويمكن الرجوع في هذا الصدد إلى: الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، مجهول، كتاب الاستبصار.

151– إن تأكيد ابن تومرت في كتابه "أعز ما يطلب" على أن الملثمين أحدثوا مناكر، ومغارم، وتقلبوا في السُحت والحرام، يأكلون فيه ويشربون وربط ذلك بظهور المهدي وبنهاية الزمان فقد حاول الفقيه السوسي من خلال ذلك أن يؤسس مشروعية لبرنامجه الذي يهدف به في الأساس إلى محاربة المرابطين بعد إقناع قبائل جبال درن بضرورة مخالفة حُكَّامِهم من صنهاجة وتحريم الاقتداء بهم والتمرد والثورة على نظامهم. ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص.242–254.

152– عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص.273.

ونفوذه داخل المجتمع القبلي للمصامدة، فكان عليه أن يُظْهِرَ قوَّته وقدرته على فرض الأمن والاستقرار حتى يتمكن من ضمان التحاق مزيد من الأتباع والأنصار في صفوف حركته، ذلك أن هذا الزعيم المذهبي كان في حاجة ماسة إلى استمالة رؤساء وشيوخ القبائل[153] من أجل تفجير طاقتهم خدمة للحركة التومرتية بدل توجيهها إلى صراع قبلي أو عنف إثْنِي، ذلك أن ابن تومرت لم يجرؤ على المغامرة بإعلان مشروعه المذهبي إلا بعد ابتعاد المصامدة عن سفك الدماء، فيذكر المراكشي في هذا السياق ما يلي : « **ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر، وفتنتهم به تشتد، وتعظيمهم له يتأكد إلى أن بلغوا في ذلك إلى حد لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادروا إلى ذلك من غير إبطاء، وأعانهم على ذلك وهونه عليهم ما في طباعهم من خفة سفك الدماء عليهم، وهذا أمر جبلت عليه فطرهم واقتضاه ميل إقليمهم**»[154].

إن مسألة منع سفك الدماء لم تكن غاية في حد ذاتها، بل كانت فقط بمثابة خطة أملتها على الحركة التومرتية ظروف إعداد المصامدة لمواجهة الجيوش المرابطية، ذلك أن هذه الحركة لم تلبث أن وظفت هي الأخرى أسلوب القتل والاغتيال والتصفية الجسدية بشكل مأساوي ضد خصومها، وكل من اشتبهت في أمره، وذلك عندما تمكنت دعوتها من قبائل المصامدة سواء في مرحلة الدعوة، أو عند بناء الدولة، فيما عرف في المصادر بالتمييز والاعتراف، والذي لم تسلم منه كل مناطق المغرب خلال فترة حكم الخليفة عبد المؤمن الموحدي[155].

153–ابن الأثير، الكامل، ج8، ص.

154– عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص. 280-281.

155– البيذق، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1971، ص.36-60، البيذق، أخبار المهدي، ص.69-72، ابن عذاري، البيان، ج4، صفحات. 68،75-69، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.179، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص.297-298، هويثي ميراندا، التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، م س، ص.75-77، محمد المغراوي، الموحدون وأزمات المجتمع، جذور للنشر، الرباط، 2006، ص.19-21، وص.26-32.

إذا كان ابن تومرت قد استطاع من خلال الوسائل المذكورة أعلاه قد تمكن من إعلان مهدويته وعصمته، فهل وجد استجابة لندائه هذا؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هي الفئة التي اقتنعت بأفكاره واعتنقت مذهبه؟

يجيبنا المراكشي عن التساؤل الأول بشكل صريح في سياق حديثه عن المصامدة قائلا : «**...حتى استقر عندهم أنه المهدي، وبسط يده فبايعوه على ذلك وقال : أبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول الله**»[156]، أما بخصوص الفئة التي ساندت المهدي فلا يمكن تحديدها من خلال النصوص المتوفرة، ذلك أن المصادر المعتمدة في هذه الدراسة لا تسعفنا في معرفة العناصر التي أيدت هذه الحركة، غير أن قراءة متأنية لهذه النصوص المصدرية مكنتنا من بعض الملاحظات والوقوف على دور النخبة في المجتمع المصمودي، ذلك أنه عند استقرار محمد بن تومرت بتنمل «**اجتمع إليه وجوه المصامدة**»[157]، ويضيف صاحب المعجب في موضع آخر أن ابن تومرت «**أمر رجالا من المصامدة ممن استصلح عقولهم بنصب الدعوة واستمالة رؤوس القبائل**»[158]، وقال ابن تومرت لأهل جبال المصامدة «**أبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول الله، ثم صنف لهم تصانيف في العلم**»[159]. وأشار ابن خلدون، أنه عندما استقر ابن تومرت في بلاد هرغة «**...بنى رابطة للعبادة، واجتمعت إليه الطلبة والقبائل، فأعلمهم المرشدة والتوحيد باللسان البربري**»[160]. وذكر ابن الأثير أنه عندما التحق المهدي بجبال درن واتصل بالمصامدة «**اجتمعوا حوله وتسامع به أهل تلك النواحي فوفدوا عليه وحضر أعيانهم بين يديه وجعل يعظهم ويذكرهم بأيام الله ويذكر لهم شرائع الإسلام...**»[161].

156- المعجب، ص.275.

157- المعجب، ص.274.

158- المعجب، ص. 274-275.

159- المعجب، ص.275.

160- العبر، ج6، ص.268.

161- الكامل، ج8، ص.296.

إن هذه الشهادات تشير إلى أن الفئة التي شملها الخطاب التومرتي لم تكن فئة عادية، فهي مثلت النخبة داخل المجتمع المصمودي سواء كان ذلك على مستوى الجاه والثروة أو على مستوى مكانتها الفكرية والعلمية[162]. يظهر بأن الفقيه السوسي استطاع التأثير في هذه الفئة التي لا شك أنها كانت مهيأة، ومستعدة للتمرد والثورة على سلطة الملثمين[163]، إلا أنه في تقديرنا أن هذه النخبة لا يمكنها بمفردها مجابهة المرابطين، وقوتهم العسكرية خصوصا وأن المشروع التومرتي لا يستثني الجانب العسكري في برنامجه. فابن تومرت «**يحرض أصحابه على قتال الملثمين ويقول لهم اقتلوا المجسمين والبرابر المفسدين والفقهاء المكارين**»[164]، لذلك لم يغيِّب الفقيه السوسي العامة في خطابه، ولعل ما يدل على ذلك هو ما أورده صاحب المعجب عندما أشار إلى أن المهدي كان لا يظهر ما يؤمن به من أفكار الشيعة إلى العامة[165]، ذلك أن هذه الأخيرة قد شكَّلتْ، على ما يبدو من هذه الإشارة المصدرية، الغالبية الكبرى من المجتمع القبلي المصمودي.

إن ما يمكن قوله في هذا الصدد، وأمام صمت المصادر بخصوص التصنيف الاجتماعي للفئة المساندة لابن تومرت، أن المهدي قد وجد تأييدا من

162- لم تكن الفئة التي ناصرت الحركة التومرتية تتكون -على ما يبدو- من النخبة المثقفة فقط، بل شملت كذلك أصحاب الثروة، ونستدل في ذلك بتلك الرواية التي رواها لنا صاحب المعجب والمتعلقة بأحد أصحاب ابن تومرت المسمى يوسف بن سليمان الذي سقى عبيده أحد الرجال خمرا إلى حد السُكر، وأضاف المراكشي في السياق ذاته قائلا بأن يوسف بن سليمان كان أحد وجوه أصحاب المهدي. لذلك يمكن القول أن وجود عبيد في منزله هو بمثابة مؤشر على ثراء وغنى صاحب المهدي بن تومرت، المراكشي، المعجب، ص.284.

163- إن أهمية جبال درن موطن القبائل المصمودية بما تتوفر عليه من خيرات فلاحية ومعدنية، وكذلك على مستوى تحكم المنطقة في بعض مسالك التجارة الصحراوية قد ساعد على نمو فئة اجتماعية حاولت -على ما يبدو- استغلال نفوذها داخل القبائل المصمودية، والانفراد باحتكار تلك الخيرات، وتعارض هذا الطموح -على ما يظهر- مع محاولة المرابطين الضغط عليها جبائيا، مما جعلها تتحين الفرصة للخروج عن السلطة الشرعية، فكان تواجد ابن تومرت بالمنطقة مناسبة لها للتعبير عن ردود فعلها ضد السياسة الجبائية للمرابطين. كما أن الرغبة في السيطرة على خيرات السهول ومنطقة حوز مراكش بشكل خاص كانت -دون شك- إحدى العوامل التي دفعت بقبائل المصامدة إلى الالتفاف حول الحركة التومرتية بحثا عن مشروعية لهذا التمرد والعصيان ضد السلطة المركزية المرابطية.

164- ابن عذاري، البيان، ج4، ص.68.

165- المعجب، ص.275. إن حضور العامة في صفوف الحركة التومرتية يتمثل كذلك من خلال حديث ابن تومرت في أعز ما يطلب عندما حاول استعراض الطعون التي ذكرها خصوم المهدي، أعز ما يطلب، ص.257-264.

طرف عدة شرائح اجتماعية في وسط قبائل مصامدة الجبل، بل إن تأثير هذا الزعيم المذهبي في هذه القبائل كان واضحا وتجلى في كون الرجل منهم كان يقاتل «**أباه وأخاه في داره إذا تخلف عن اتباع المهدي ويُكفِّرُ بعضهم بعضا أما مصامدة الجبل فاتبعوه أجمعين وأما مصامدة الفحص فقليل**»[166].

وفي تقديرنا أنه مَهْما بلغت القناعات التي كان من أجلها يتصارع الطرفان[167]، فإنها لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تصل إلى درجة أن يصطدم خلالها الإنسان ضد أخيه وأبيه من أجل الدفاع عن حركةٍ ما إذا لم يكن هذا الشخص منبهرا بزعيمها ومقتنعا بأفكاره ومذهبه[168]. وقد عبَّرت النصوص التاريخية الوسيطية عن ظاهرة الاغتيالات ببلاد المصامدة في زمن ظهور الحركة الموحدية التومرتية بما يصطلح عليه بقيام الفتنة[169]. يضاف إلى ذلك أن هذه النصوص المصدرية مكنتنا من بعض الاستنتاجات حول علاقة ابن تومرت بمجتمع المصامدة نشير إليها كما يلي[170]:

- تَمَكُّن ابن تومرت من الحصول على الزعامة الروحية داخل المجتمع المصمودي.
- تخَلّصّ المهدي من الأشخاص غير المرغوب فيهم من خلال اعتماده على الاغتيال والتصفية الجسدية.
- استجابة المصامدة لابن تومرت وتقديم الطاعة له مع الامتثال لأوامره.

إن حصول المهدي على الزعامة الروحية يعتبر نتيجة للمجهودات التي بذلها في الأيام الأولى من إقامته بجبال المصامدة، أما قضية الاغتيالات فقد

166- ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص85.

167- أقصد العناصر المؤيدة لابن تومرت والعناصر المعادية له داخل المجتمع القبلي للمصامدة.

168- يبدو أن ابن تومرت قد أخضع المصامدة لتأثير مذهبي قوي، فمن خلال إصراره على توجيه الانتقادات للمرابطين وفقهائهم، وكذلك حثه الناس على القيام بالجهاد وتشديده على أن المهدي سيأتي في آخر الزمان حيث طالب ابن تومرت تلك القبائل بتدوين ما يرويه لهم مما جعلها تخضع لتأثير قوي لدرجة أنها أصبحت ترى الواقع بالمنظور الذي أراده لها ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص. 242-254.

169- ابن عذاري، البيان، ج4، ص. 85.

170- عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص.280-281، ابن عذاري، البيان، ج4، ص.85.

عادت إلى الظهور من جديد في مجتمع المصامدة الذي سبق وأن عانى منها كثيرا قبل استقرار ابن تومرت بجبال درن[171]، ذلك أن الفقيه السوسي استطاع أن يُحوّل الصراع داخل المجموعة القبيلة فيما بينها إلى صراع بين أنصار العقيدة التومرتية من جهة وبين خصومها من جهة أخرى[172]. فهذا النزاع يكشف لنا عن وجود معارضة للحركة التومرتية وهي لا زالت في مهدها، وفي تقديرنا أن هذه المعارضة لم تكن–حسب بعض المصادر– مبنية على أسس فكرية ومذهبية بقدر ما كانت فقط عبارة عن ردود فعل من قبل سكان المنطقة ضد الضائقة الاقتصادية -أحيانا- والتي نتجت عن الحصار الذي فرضه المرابطون على منطقة تواجد ابن تومرت وأصحابه بجبال درن، وفي هذا السياق يتحدث صاحب الكامل في التاريخ قائلا : «... **فَقَلّت عند أصحاب المهدي الأقوات حتى صار الخبز معدوما عندهم وكان يطبخ لهم كل يوم من الحسا ما يكفيهم فكان قوت كل واحد منهم أن يغمس يده في ذلك الحسا ويخرجها فما علق عليها قنع به ذلك اليوم فاجتمع أعيان أهل تينملل وأرادوا إصلاح الحال مع أمير المسلمين...**»[173].

وإذا كانت هذه الرواية تشير إلى أعيان تينملل كمحركين لهذه المعارضة ضد ابن تومرت وجماعته، فإن إشارات مصدرية أخرى تؤكد على أن من شملتهم عملية التمييز ينتمون إلى فئة العامة التي تم نعتها بأهل الشر والفساد[174].

يمكن القول أن سياسة التمييز التي اختارتها الحركة التومرتية قد عبَّرت عن الرغبة في خلق عصبية مؤطرة مذهبيا ومؤمنة بعصمة المهدي وذلك حتى

171– لقد خصصنا في نهاية هذا الفصل حيزا لمناقشة هذه المسألة.

172– رغم أن ابن خلكان يشير أن سكان مصامدة الجبل من ذوي العقل والعلم كانوا ينهون ويحذرون سكان المنطقة من اتباع ابن تومرت ويخوفونهم من سطوة الملك، فإن هذا في نظرنا قد يعود إلى موقف الرواية المشرقية التي تحاول تقزيم دور الزعيم المذهبي للحركة التومرتية والتنقيص من قيمته، ذلك أن هذه الرواية كانت تحاول ما أمكن أن تثبت كذلك بأن الذين اتبعوا ابن تومرت وساندوه لم يكونوا سوى من الأطفال والصبيان. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص.51.

173– ابن الأثير، الكامل، ج8، ص.297.

174– ابن الأثير، الكامل، ج8، ص.297.

تتمكن هذه الحركة من مواجهة المرابطين في عاصمة دولتهم مراكش، كما أننا لا نستبعد أن يكون هاجس السيطرة على أملاك الغير سببا محركا لعملية التمييز حيث تحدث ابن الأثير في هذا السياق عن سبي الحريم ونهب الأموال[175].

يتضح من خلال الإشارات المصدرية أنه لا يوجد أي حضور عسكري للسلطة المركزية في محاولة استئصال شأفة هذه الحركة في مهدها، كما يتبين بأن تفكير المرابطين في توجيه حملات عسكرية ضد الحركة التومرتية جاء متأخرا وذلك بعد أن تمكن المهدي من إقناع مصامدة الجبل بضرورة الخروج عن سلطة الملثمين والثورة على نظام دولة المرابطين.

ويمكن القول أن توقف منطقة جبال درن عن أداء الضرائب لخزينة الدولة هو ما دفع بجيوش السلطة المركزية المرابطية للقيام بملاحقة قبائل المصامدة التي تأثرت بالفكر المذهبي لابن تومرت وحركته على مستوى سلوكها الاجتماعي[176]. وفي هذا السياق يتحدث ابن الأثير عن الدور الذي قام به ابن تومرت في صفوف قبائل المصامدة عند استقراره بتينملل قائلا بأنه :

«... ألف لهم كتابا في التوحيد وكتابا في العقيدة ونهج لهم طريق الأدب بعضهم مع بعض والاقتصار على القصير من الثياب القليل الثمن وهو يحرضهم على قتال عدوهم وإخراج الأشرار من بين أظهرهم وأقام بتينملل

175- ابن الأثير ، الكامل، ج8، ص.296. لقد مهد ابن تومرت لقضية التمييز بشحن أتباعه وسامعيه بفكرة أن من تشكك في المهدي كافر ويقتل "**وأمر المهدي حتم، من خالفه يُقتل، لا دفع في هذا الدافع، ولا جبلة فيه لزائغ، ثبت بثبوت نصوص الكتاب، وقواطع الشرع، وبنات العلم، ودام ما دامت السماوات والأرض، بإذن الله الواحد القهار، والحمد لله رب العالمين، وكل متدين يكتب هذه التذكرة، ويتذكر بها كل يوم بكرة وعشيا، ويقف على معانيها، ويعمل بمقتضاها، ويدعو إليها، وينشرها ويرغب فيها ويحض عليها، ينتفع بها في الدنيا والآخرة، وينال بها السعادة والبركة، والخير كله بيد الله...**"، محمد بن تومرت، أعز ما يطلب، ص.236.

176- لقد تم التوصل إلى هذا الاستنتاج من خلال روايتي ابن الأثير وابن خلكان، وإن كنا نتحفظ على صحة بعض المعلومات الواردة في الروايتين والمتعلقة بإرسال نصارى لجباية الضرائب، وما جرى لهؤلاء الجباة مع سكان المنطقة، فلا يعدو أن تكون المسألة تتعلق بتحامل الروايتين على ابن تومرت وأتباعه من قبائل مصامدة الجبل الذين شكلوا عصبية هذه الحركة.

وبنى له مسجدا خارج المدينة فكان يُصَلِّي فيه الصلوات هو وجَمْعٌ ممَّن معَهُ عِنْدَهُ...»[177].

ونستنتج من خلال معطيات نص الكامل في التاريخ أن ابن تومرت قد تَمَكَّن من التأثير في قبائل المصامدة لدرجة أنه جعل من قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة لافتعال صراع قبلي يهدف من خلاله هذا الزعيم المذهبي إلى الوصول إلى السلطة وتدبير شؤون الدولة.

المبحث الخامس :

من الطموح الشخصي إلى التمرد القبلي،

أو الحركة الموحدية بين إصلاح ابن تومرت وثورة المصامدة

يظهر من خلال المصادر التي دوّنت أخبار الحركة التومرتية على أنه بعد مبايعة قبائل المصامدة لابن تومرت ومساندتها له لم يعد للمهدي إلا الدور التنظيمي، في حين تزايدت أهمية النفوذ القبلي للمصامدة سواء على مستوى بعض الزعامات القبلية التي أخذت تلعب دورا فاعلا في أحداث هذه الحركة[178]، أو على مستوى مشاركة أفراد هذه القبائل في الجيش التومرتي الذي هدّد غير ما مرّة عاصمة المرابطين مراكش[179].

فما هي المدة التي استغرقتها عملية تجنيد المصامدة وتعبئتهم ؟ وما هي هذه المعارك التي عبَّرت من خلالها القبائل عن تمردها؟ وكيف تَمَّ تقديم هذه الوقائع والأحداث من طرف المؤرخين ؟

177– ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص.296.

178– نذكر من بين هؤلاء الزعامات أبو عمران موسى بن تمارى الكدميوي أمين الجماعة، وهو من خاصة المهدي العشرة حيث توفي في وقعة البحيرة عام 524هـ ثم أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي، شيخ قبيلة هنتاتة وهو من أقرب أعوان المهدي. البيذق، كتاب الأنساب، ص.31-32.

179– يذكر صاحب القرطاس أن ابن تومرت قد جمع "قبائل الموحدين وعبأ الجيوش وقصد مدينة مراكش، فسار حتى نزل "**بجبل كليز قريبا من المدينة فأقام به ثلاثة أعوام يباكر جيوش لمتونة بالقتال ويراوحهم في كل يوم من ست عشرة (516هـ) إلى سنة تسع عشرة (519هـ)**". ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.178.

يظهر من خلال إشارات بعض النصوص أن فترة الاستعداد العسكري لم تتجاوز ثلاث سنوات[180]، وهي فترة وجيزة بالمقارنة مع الصعوبات التي كانت تعرفها عملية استقطاب الأتباع. فبالإضافة إلى وعورة تضاريس المنطقة، التي تمنع سهولة الاتصال بمختلف القبائل، هناك الصراع الذي كان قائما بين هذه القبائل حيث كانت جبال درن مسرحا للاغتيالات كما تم تفصيله فيما سبق[181]، ورغم ذلك كله استطاع ابن تومرت وفي مدة زمنية قصيرة من تكوين ونشأة جيش عظيم على حد تعبير المراكشي[182].

وتتضارب الروايات حول المعارك التي خاضتها جيوش ابن تومرت المكونة من مصامدة الجبل ضد المرابطين[183]، ورغم اختلاف آراء المؤرخين حول تحديد سنوات هذه المعارك ومناطق حدوثها، فإن المصادر قد أجمعت على أن أغلب الوقائع قد تم حسمها لصالح أتباع ابن تومرت. ويظهر من خلال روايات نظم الجمان[184] والبيذق[185] أن الحروب التي خاضها مصامدة الجبل لم تقتصر فقط على العاصمة مراكش، وإنما شملت كذلك المناطق المجاورة لها وامتدت إلى حدود منطقة سوس. ولا شك أن هذه العمليات العسكرية المتعددة وغيرها في فترات لاحقة من تطور الحركة الموحدية، هي

180– لقد حدد عبد الواحد المراكشي تاريخ قيام ابن تومرت بمنطقة سوس في سنة 515هـ، كما تحدث عن قيامه بتجهيز حملته العسكرية بجيش مكون في معظمه من أهل تينملل مع من انضاف إليه من أهل سوس عام 517هـ. المعجب، صفحات.281،262-282.

181– يمكن الرجوع إلى المبحث الرابع ضمن هذا الفصل تحت عنوان : "من تهديد السلطة المركزية إلى ممارسة التغيير، أو ابن تومرت في جبال المصامدة".

182– المعجب، ص.281.

183– يشير البيذق إلى تسع غزوات إضافة إلى معركة البحيرة التي كادت أن تقضي على حركة ابن تومرت، هذا ولم تقتصر الاختلافات بين المؤرخين حول عدد هذه المعارك، بل تعدته إلى تحديد تاريخ وقوعها، فمثلا يجعل البيذق تاريخ وقعة البحيرة عام 524هـ بينما يحددها صاحب المعجب في سنة 517، كما شمل هذا التباين بين المؤرخين كذلك في تقدير نتائج هذه المعركة، فمثلا يشير البيذق إلى هزيمة الحركة التومرتية بينما يعطي صاحب القرطاس النصر فيها للموحدين. أخبار المهدي، ص.35-41، الأنيس المطرب، ص. 179، المعجب، ص.281-283.

184– ابن القطان، نظم الجمان، ص.129-142.

185– البيذق، أخبار المهدي، ص.35-41.

ما دفعت بأحد الباحثين الغربيين إلى القول بأن المجتمع الموحدي كان من منظور مؤسسه ابن تومرت بمثابة آلة حربية[186].

ويظهر من خلال بعض المصادر أن الدافع الاقتصادي كان حاضرا في بعض المعارك كإستراتيجية نهجها التومرتيون، فمن خلال المعجب يتضح أن المصامدة قد تنبهوا إلى مدى أهمية استخدام الحصار الاقتصادي كأسلوب لمواجهة المرابطين في قلب عاصمتهم حيث يشير إلى أنهم «**يقطعون عنها مواد المعايش وموصول المرافق ويقتلون ويسبون**»[187]، ذلك أن عدم وصول الأقوات إلى العاصمة مراكش كان يتسبب في إلحاق الضرر بأهلها خصوصا منهم فئة العامة التي لم تكن –في الغالب– تتوفر على مخازن للحبوب والزيوت وغيرها من الأقوات[188]، فقد تمكن المصامدة من خلال هذا الأسلوب من شل الحركة الاقتصادية للسلطة المركزية، كما مكنها في الوقت نفسه من جلب أتباع سواء من خلال مغادرتهم مدينة مراكش فرارا من الحصار أو التحاقهم بالحركة التومرتية عن طريق اللجوء والاستقرار بحصن تنملل، أو كذلك من خلال إعلان قبائل أخرى عن خضوعها للحركة التومرتية ومناصرتها لدعوة المهدي بن تومرت. ويشير صاحب المعجب في هذا السياق «**وكثر الداخلون في طاعتهم والمنحاشون إليهم**»[189]، ويذكر صاحب القرطاس[190] أن ابن تومرت استطاع أن يجمع من أنصاره المصامدة ما يزيد على العشرين ألف رجل فدعاهم إلى جهاد المرابطين وقام بإعداد جيش منهم مكونًا من عشرة

186– Georges Marçais, LA BERBERIE MUSULMANE ET LORIENT AU MOYEN AGE, op.cit, p.269.

187– عبد الواحد المراكشي، م س، ص.283.

188– لقد سبق أن أشرنا إلى أن فئة العامة عانت كثيرا في ظل السيطرة المرابطية، ومن أجل معلومات حول موضوع العامة خلال العصر المرابطي يمكن الرجوع إلى دراسة الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش، "الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس خلال العصر المرابطي"، مرجع سابق، ص.524-568.

189– عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص.283.

190– ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.177. ويشير في موضع آخر أن ابن تومرت خرج في إحدى المواجهات العسكرية إلى أغمات وبلاد هزرجة بثلاثين ألفا من الموحدين فكان النصر لأصحاب ابن تومرت. القرطاس، ص.178.

الاف رجل وأمّر عليهم عبد الله البشير قائدا لهم حيث عقد لهم راية بيضاء فقصدوا مدينة أغمات.

فالتوجه إلى هذه المدينة يدل على محاولة السيطرة على طريق تجاري هام كان يعتبر المنفذ الاقتصادي الأساسي لتزويد العاصمة مراكش بمختلف المواد والسلع والمنتوجات. ذلك أن مدينة أغمات قد عُرفت في الكتابات الجغرافية الوسيطية[191] بمدى أهميتها كسوق تجاري، وتعتبر السيطرة على هذه المدينة بمثابة الضامن للحركة التومرتية في التحكم في مركز تجاري له مكانة استراتيجية، وفي الوقت نفسه يعتبر محاولة من طرف ابن تومرت من أجل خنق وتأزيم الوضع الاقتصادي بالعاصمة المرابطية، من خلال فرض الحصار عليها، ولعلّ ذلك هو ما دفع صاحب القرطاس إلى القول أن المواجهات العسكرية قد تم حسمها لصالح التومرتيين عام 516هـ[192].

إذا كانت بعض الإشارات المصدرية تمكننا من الكشف عن بعض الخطط العسكرية التي لجأ إليها الموحدون في حربهم ضد الجيوش المرابطية، فإن النصوص نادرا ما تُمكننا من رصد الأهداف المحرّكة لبعض المعارك، إلا أن ما يُلاحظ على هذه المصادر أن أصحابها وفي معظمهم من مؤرخي الدولة الموحدية كانوا يقرأون أخبار هذه المعارك والأحداث من منظور الدولة الموحدية المنتصرة، ولا ينظرون إليها من زاوية الحركة أو من موقع الثورة والعصيان المصمودي ضد السلطة المركزية المرابطية. ونستدل على ما ذهبنا إليه برواية للمعجب حول مواجهة عسكرية بين التومرتيين من جهة والسلطة الشرعية المرابطية من جهة أخرى في منطقة البحيرة قرب مراكش والتي انتهت بهزيمة أتباع ابن تومرت وحركته[193].

191– يمكن الرجوع إلى نزهة المشتاق للإدريسي، والاستبصار لمؤلف مجهول، وكتاب الجغرافيا لابن سعيد وغيرها من الكتابات الجغرافية الوسيطية.

192– ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 177.

193– لقد جعل صاحب المعجب وقائع هذه المعركة ضمن أحداث عام 517هـ في حين أن معظم المصادر الأخرى تشير إلى هزيمة الموحدين في سنة 524هـ. عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص.281-283.

إن السياق العام لمضمون رواية المعجب يفسر لنا بأن ابن تومرت لم يكن له إلا هدف واحد يتمثل في القضاء على المرابطين وانتزاع الزعامة السياسة منهم، فرغم أن النص لا يكشف عن ذلك بشكل جلي ولكننا نستخلص ذلك من خلال الإشارة إلى مطالبة ابن تومرت المرابطين بالإقرار بالإمام المهدي المعصوم[194]، فالتصريح بالإمامة والمهدوية والعصمة يدل على الاعتراف بالزعامة.

إن ابن تومرت ومن خلال رواية المعجب يظهر أنه كان متيقنا من رفض المرابطين الاستجابة لدعوته المذهبية، أو تلبية مطالبه المتمثلة في التزام الحكام المرابطين بضرورة القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذلك أن قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يصعب القيام بها خلال تلك الفترة التي تراكمت فيها على المرابطين مجموعة من المشاكل منها ما كان مرتبطا بالهجومات النصرانية بشبه الجزيرة من جهة، ومنها ما كانت له علاقة بانشغال الجيش المرابطي بمحاولة إخماد بعض ثورات وتمردات حواضر الأندلس من جهة أخرى[195].

يضاف إلى ذلك أن مسألة الاعتراف بالمهدوية تحمل في طياتها التنازل عن السلطة، وكذا الإقرار ببيعة ابن تومرت الذي رسّخ عند المصامدة أنه الإمام المعصوم والمهدي المعلوم[196]. ونشير كذلك إلى أن ابن تومرت قد حاول بكل الوسائل إقناع المصامدة بكونه لا يهدف من خلال نشاطه المذهبي وحركته الدعوية أن يحصل على الزعامة السياسية، كما أنه حرص من خلال خطابه أن يظهر بمظهر ذلك الشخص الذي يريد الخير ويدعو إلى التآخي إذا ما أظهر الطرف الآخر استعداده للاستجابة لدعوته حيث ذكر عبد الواحد

194- عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص.282.

195- من بين هذه المشاكل التي عرفتها بلاد الأندلس بعد قيام دعوة ابن تومرت في جبال المصامدة، هناك ثورة قرطبة عام 515هـ والتي تجسدت خطورتها في كون علي بن يوسف توجّه بنفسه إلى الأندلس لفرض الأمن واستتبابه. انظر حول ثورة قرطبة ما جاء في دراستنا. محمد العمراني، حواضر الأندلس بين الانتفاضة والثورة خلال العصر المرابطي، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2006، ص.16-24.

196- المراكشي، المعجب، ص.275.

المراكشي على لسانه في هذا الصدد قائلا : « **فإن أجابوكم فهم إخوانكم، لكم ما لهم، وعليهم ما عليكم**»[197]، أما إذا حدث العكس فإن ابن تومرت كان يأمر أصحابه بمقاتلتهم، ويزكي لهم ذلك بمشروعية دينية يستند فيها حسب رأيه على أساس مرجعي وهو السُنة النبوية حيث ذكر صاحب المعجب على لسان ابن تومرت قائلا في هذا الصدد : « **فقد أباحت لكم السُنّة قتالكم**»[198].

يبدو أن غاية ابن تومرت من خلال إشارته للمهدوية، وكذا تبرير خطابه بأساس مرجعي إسلامي، كانت هي إحياء واستحضار فترة البعثة النبوية في ذهنية المصامدة، فكان هذا النهج بمثابة استراتيجية تضمن النجاح لحركة ابن تومرت أثناء المواجهة العسكرية ضد المرابطين.

فمهما كانت قبائل المصامدة ساخطة عن السياسة العامة للمرابطين، فإنه على ما يبدو أن هذه القبائل لا يمكنها أن تتناسى أو تتغافل عن الدور الذي قام به ملوك صنهاجة وأمرائهم من المرابطين على مستوى حماية الإسلام بالأندلس[199].

وإذا ما افترضنا بأن المصامدة قد راودهم الشك في مدى مصداقية السلطة الشرعية المرابطية[200]، فإن هذه القبائل يظل عندها تخوف من مواجهة جيوش سبق لها وأن أعطت الدليل على قوتها وكفاحها في الميدان خاصة في منطقة شبه جزيرة الأندلس.

إنّ هذه القضية تحتاج في نظرنا إلى سند (بسيكولوجي) يمَكّنُ المصامدة من تحقيق الانتصار قبل الشروع في المواجهة العسكرية مع المرابطين، ولعل ذلك هو ما تنبه إليه ابن تومرت عندما دعَّم أوامره بالأسس المرجعية

197- المعجب، ص. 282.

198- المعجب، ص.282.

199- يمكن الرجوع في هذا السياق إلى ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، تحقيق إحسان عباس وابن أبي زرع في روض القرطاس.

200- نقصد هنا فقط تلك الفئة من المصامدة التي دخلت في حرب ضد المرابطين دون أن تكون لها أطماع في الحصول على امتيازات اقتصادية، سواء تعلق الأمر بالرغبة في الفوز بالغنائم، أو التخلص من العبء الضريبي والضغط الجبائي، فهي فئة استهواها الخطاب التومرتي وانبهرت بالدعاية التي قام بها أصحاب ابن تومرت والمقرّبين له.

الإسلامية[201]. إن الأمر لم يبق مقتصرا على الفترة التي سبقت المعركة فقط، بل إن ذلك ظل مستمرا حتى ما بعد انتهائها بهزيمة الموحدين حيث قلّل المهدي من أمر الهزيمة وهوّنَهَا على أتباعه، وهذا ما جعله يؤكد على أنّ أمواتها من المصامدة يعتبرون في عداد الشهداء ما داموا قد حاربوا في سبيل دين الله ونصرة السُّنة[202]. ولعل ذلك هو ما أدى إلى وجود استجابة وطاعة من طرف المصامدة حيث أشار صاحب المعجب في هذا السياق قائلا بأن هذا الحدث قد «**زادهم بصيرة في أمرهم وحرصًا على لقاء عدوّهم**»[203].

إن اختيار الحركة التومرتية للأسلوب العسكري في مواجهة المرابطين قد شكّل حالة تمرد ضد السلطة الشرعية التي لا زالت رموزها قائمة، ذلك أن الدعوة باسم الأمير المرابطي علي بن يوسف ظلت متواجدة ومستمرة في الأندلس، وكذا في مختلف جهات المغرب الأقصى باستثناء جبال المصامدة[204]. ذلك أن السلطة المركزية المرابطية اعتبرت المصامدة التومرتيين متمردين وخارجين عن السلطة الشرعية ونعتتهم بمشعلي الفتن، وهذا ما عبَّرتْ عنه رسالة الأمير المرابطي علي بن يوسف التي خاطب فيها جيوش المصامدة بقيادة عبد المؤمن بن علي الكومي، خليفة المهدي بن تومرت بعد وفاته، قبل إحدى المواجهات العسكرية منبّها إياهم و «**يحذرهم عاقبة مفارقة الجماعة، ويُذكّره الله في سفك الدماء، وإثارة الفتنة**»[205].

لا شك أن استفحال أمر الحركة التومرتية ووصول تهديداتها إلى أبواب العاصمة المرابطية مراكش كان له وقع كبير مما يفسر تزايد حدة قلق وتوتر الجهاز المركزي للدولة المرابطية، فما هي المشاكل التي ترتبت عن استفحال أمر حركة ابن تومرت؟ وما هي الإجراءات التي تمّ اتخاذها للحفاظ على شرعية وهيبة الدولة بالمغرب والأندلس؟

201– المعجب، ص.282.

202– المعجب، ص.283.

203– المعجب، ص.283.

204– لقد اعتبرنا عدم أداء الضرائب لخزينة الدولة مقياسا لاستقلال هذه المناطق عن السلطة المركزية المرابطية.

205– المعجب، ص.282-283.

المبحث السادس :
السلطة المرابطية بين سياسة الجهاد بالأندلس ومواجهة التمرد المصمودي

بتتبعنا لمختلف المصادر المغربية الوسيطية، فإننا نكون أمام دولة سخَّرت كل اهتمامها لمواجهة الخطر النصراني، فعبور أمراء الدولة المرابطية إلى الأندلس[206] ومراسلاتهم لرؤساء الجند[207] كانت تدخل في إطار استتباب الأمن بشبه الجزيرة ورد الخطر الخارجي في ظل سياسة الجهاد التي أعلنها قادة هذه الدولة منذ أن كانت في طور حركة دينية ومذهبية. إلا أن المصادر عندما تبدأ في حديثها عن انتشار الحركة التومرتية فهي تعطي أهمية لسرد الوقائع المرتبطة بحدوث المشاكل الداخلية بمختلف أشكالها وذلك على حساب ذكر أخبار سياسة الجهاد، فهل هذا يدل على أن المرابطين قد أعطوا في بداية تقلّدهم مسؤولية الحكم بالمغرب والأندلس أهمية للمشاكل الخارجية؟ أم أن الحركة التومرتية وما ترتب عنها قد فرض على المسؤولين المرابطين ضرورة مواجهتها وإعطاءها أهمية وأولوية في مخططاتهم الأمنية حتى يتسنى لهم التفرغ لمواجهة الخطر النصراني؟

إن ما يتضح لنا من خلال المصادر أن المسؤولين المرابطين قد فكّروا منذ اشتداد خطر الحركة التومرتية في ضرورة تأمين عاصمة دولتهم من الهجومات العسكرية التي يقوم بها المصامدة[208]، وفي هذا السياق أشار صاحب أخبار أهل تيط[209] بأن الأمير المرابطي علي بن يوسف استشار

206- لقد أشارت المصادر إلى جواز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس أربع مرات برسم الجهاد، كما تعدّدت حملات علي بن يوسف إليها وذلك من أجل تفقد أهلها وسد خللها. يمكن الرجوع إلى المصادر التالية : ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص.48، ابن أبي زرع، روض القرطاس، صفحات : 145-149، 154، 161، 163-164، مؤلف أندلسي مجهول، الحلل الموشية، صفحات : 38-77، 85-86.

207- محمود علي مكي، وثائق تاريخية جديدة صحيفة معهد الدراسات الإسلامية مدريد، المجلدان 9-10، 1959-1960.

208- ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص.73.

209- الأزموري، أخبار أهل تيط، مخطوط الخزانة الحسنية تحت رقم 1358، ص.30.

الفقهاء والصالحين عندما أراد الشّروع في بناء سور مراكش. وترتبط قضية تسوير العاصمة في نظرنا بتخوّف المرابطين من هجومات أصحاب ابن تومرت، ولعل أهمية هذا الحدث هي ما جعلت الأمير المرابطي يستشير الفقيه ابن رشد الجد والذي أصدر فتوى في هذا الصدد مفادها أنه لا يحلّ سُكْنى هذه المدينة بغير سور[210]. وفي السياق ذاته يتحدث ابن عذاري عن تنفيذ المسؤول المرابطي لفتوى هذا الفقيه الأندلسي والتي يتعلق موضوعها بضمان الأمن لعاصمة دولته من خلال بناء الأسوار حيث ذكر في هذا الصدد أنه في سنة 520هـ : «**أخذ الأمير علي بن يوسف يبني المراصد بقرب مراكش ويسد الطرق التي ينزل منها أتباع المهدي إلى الأوطية**»[211].

إن الاهتمام بتأمين العاصمة من خطر قبائل المصامدة المساندين للحركة التومرتية قد تزامن مع بروز واندلاع اهتزازات سياسية بالأندلس، ذلك أن حدّة هذه المشاكل السياسية هي التي دفعت بالفقيه ابن رشد الجد أنْ يتجشّم مشاق السفر من قرطبة إلى الحضرة المراكشية ليلتقي فيها بالأمير المرابطي علي بن يوسف حيث بيَّنَ له « **أمر الأندلس وما بُليت به من معاهدتها وما جرّوه إليها وجنوه عليها من استدعاء ابن ردمير، وما في ذلك من نقض العهد والخروج عن الذمة. وأصغى إليه الأمير علي وتلقى قوله بالقبول، فوقع نظره على تغريبهم وإجلائهم من أوطانهم وهو أخف ما يؤخذ به من عقابهم، ونفذ عهده إلى جميع بلاد الأندلس بإجلاء المعاهدين إلى العدوة...**»[212].

ولعل بروز هذه الاضطرابات السياسية وخاصة منها تلك المرتبطة ببعض الحملات العسكرية النصرانية هو ما أجبر الأمير علي بن يوسف على إصدار أوامره للنظر في عملية بناء أسوار المدن بجميع جهات الأندلس فيما يعرف في المصادر بمسألة التعتيب[213].

210– الأزموري، أخبار أهل تيط، مخطوط الخزانة الحسنية تحت رقم 1358، ص.30.

211– ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص.75.

212– ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص.72-73، وحول مزيد من التفاصيل حول هذه الأحداث والوقائع المرتبطة بانتفاضات بعض الحواضر بالأندلس يمكن الرجوع إلى كتابنا المشار إليه سابقا: محمد العمراني، حواضر الأندلس بين الانتفاضة والثورة خلال العصر المرابطي.

213– ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص.73-74.

ويظهر أن الخطر الذي شكلته الحركة التومرتية كان إيجابيا على مستوى اهتمام المسؤولين في الدولة المرابطية بالأمن الداخلي، وفي الوقت ذاته كان حافزا من أجل النظر في أمور الناس وحل مشاكلهم في المجال الخاضع للسلطة المرابطية، فتذكر المصادر إلى أن حركة إعفاء ولاة الأقاليم الأندلسية خاصة من مسؤولياتهم وإقالتهم من مناصبهم قد نشطت بشكل كبير خلال هذه الفترة[214]. وقد كانت حركة عزل الولاة هذه، على ما يبدو من بعض النصوص، تستهدف رفع الظلم عن الرعية، كما هو الشأن بخصوص "أبو عمر ينالة" الذي كان يخافه الناس لضغطه وشدّته[215]، وفي هذا الصدد يذكر لنا ابن عذاري في النص التالي ما يلي : «... **وكان أبو عمر ينالة استدعى فقهاء وعلماء من أهل جيان فلما حضروه أمر بسجنهم ظلما واعتداء، ثم نهض للغزو إلى الشرق فلم يزل في تلك الوجهة وهم في العقلة إلى أن عزل بالأمير أبي حفص عمر بن أمير المسلمين علي بن يوسف، فلما ورد غرناطة بادر بإخراجهم وإصدارهم إلى بلدهم على غاية المبرة والكرامة، وفرّج الله بعزلة ينالة عن المسلمين الغمة وانفرجت الضيقة بالأندلس**»[216].

يتبين لنا من خلال هذا النص بأن السلطة المركزية المرابطية قد بدأت في محاولة تطبيق سياسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي دعاهم إليها ابن تومرت[217]، هذا دون أن يمنعها ذلك عن التراجع في مواجهة الحركة

---

[214]- ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص. 75.

[215]- ابن عذاري، البيان، ج4، ص.74.

[216]- ابن عذاري، البيان، ج4، ص.75.

[217]- إن ذلك لا يعني بأن المرابطين لم يقوموا بمجهودات في هذا الصدد قبل قيام الدعوة التومرتية، فهناك مجموعة من الرسائل كتبت خلال العقد الأول من القرن 6هـ/12م، وهي عبارة عن وصايا من السلطان المرابطي علي بن يوسف إلى رعيته بالأندلس، ويتمحور موضوعها حول تقوى الله وضرورة الاتحاد واجتناب التفرقة والحزازات.

غير أن ما حملنا على الاستنتاج أعلاه وهي المجهودات التي قام بها المسؤول المرابطي علي بن يوسف على مستوى الإصلاح الإداري والقضائي بتقوية سلطة القضاة، فقد منح للقاضي سلطة تعيين وإقالة الحُكام والولاة، ذلك أن هؤلاء الأواخر كان يشترط أن تتوفر فيهم صفات الثّقة والديانة والأمانة والعفاف والزّهد. ويمكن الرجوع في هذا الصدد إلى الرسائل 4-5-6 و7. محمود علي مكي، وثائق تاريخية جديدة، معهد للدراسة الإسلامية بمدريد المجلدان 9-10، 1952-1960، ص.170-177.

التومرتية حيث تشير المصادر إلى مدى استعداد الجيوش المرابطية وتجميع صفوفها للتصدي ومواجهة المصامدة عسكريا[218].

يضاف إلى ذلك أن الجهاز الأمني المرابطي قد تعامل بقسوة مع كل شخص أو جماعة أظهرت زيغًا عن الخط الرسمي للدولة، فكان اللجوء إلى الاغتيال هو الوسيلة التي واجهت بها السلطة المرابطية العناصر المشتبه فيهم، كما حدث مع ثائر ريف سبتة عام 520هـ[219].

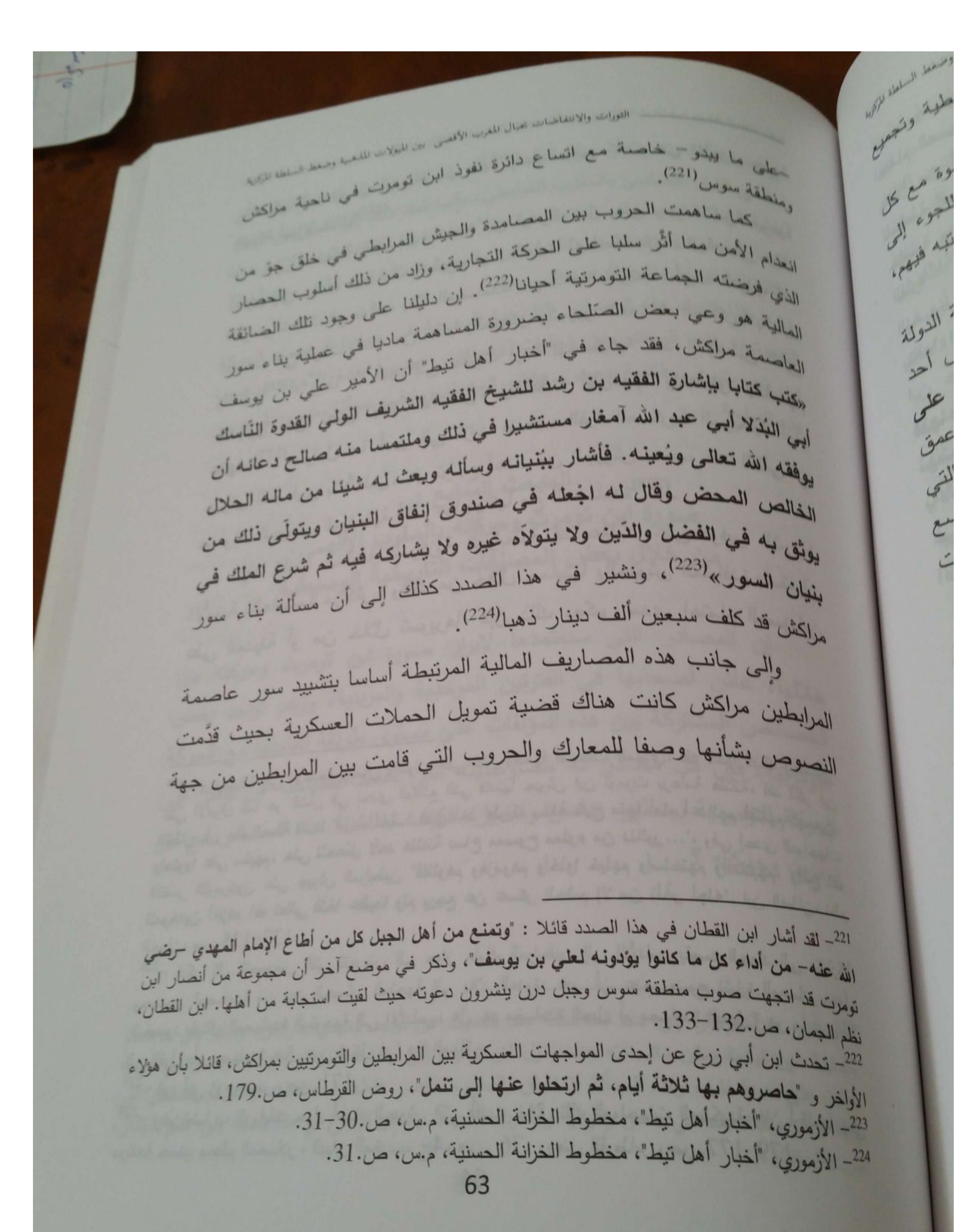
إن تكثيف الجهود لفرض الأمن بالمغرب والأندلس قد كَلَّفَ خزينة الدولة المرابطية كثيرا، وفي هذا السياق نشير إلى ما قاله الأزموري بخصوص أحد الفقهاء الذي قال لعلي بن يوسف في أمر بناء سور مراكش « **لا تقْدر على بنيانه لأنك تفني فيه بيت مال المسلمين**»[220]، مما يفسر لنا مدى عمق الأزمة الاقتصادية التي كانت تعرفها الدولة المرابطية خلال تلك الفترة، والتي تزايدت دون شك بفعل تعدد الجبهات التي فتحتها الدولة للسيطرة على الوضع الأمني بكل من المغرب الأقصى والأندلس من خلال تزايد مصاريف الحملات العسكرية.

ويضاف إلى ذلك قلة المداخيل بسبب ضعف الجبايات، والتي استفحلت بفعل ثورة المصامدة بجبال درن وأعلنت عصيانها ضد السلطة الشرعية للمرابطين مما أدى إلى حرمان المرابطين من مداخيل هامة ساهمت في فراغ خزينة الدولة، ذلك أن حركة محمد بن تومرت قد أسقطت الضرائب عن جبال درن وبلاد المصامدة، وهذا ما أدى إلى تفاقم مشكل خزينة الدولة

218– أشار ابن القطان في هذا الصدد إلى ما يلي : "**وأمر علي بن يوسف –في هذه المدة التي كان فيها الإمام المهدي رضي الله عنه بإيجليز – الفلاكي الأندلسي، وكان فاتكا شهما تاب من قطع السبل، فقدمه علي على العساكر، وسد به ثغوره، فصنع حصونا ضبط بها ثغوره، ومنع الموحدين من النزول، وولى أصحابه عليها، وتَمَنَّعَ من أهل الجبل كل من أطاع الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه من أداء كل ما كانوا يؤدونه لعلي بن يوسف**"، ابن القطان، نظم الجمان، ص. 132-133.

219– ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص.74-75، وحول هذه الثورة يمكن الرجوع إلى الفصل الثاني من هذا الكتاب.

220– أبو عبد الله محمد بن العظيم الأزموري، أخبار أهل تيط، مخطوط الخزانة الحسنية رقم 1358، ص.30.



–على ما يبدو– خاصة مع اتساع دائرة نفوذ ابن تومرت في ناحية مراكش ومنطقة سوس(221).

كما ساهمت الحروب بين المصامدة والجيش المرابطي في خلق جو من انعدام الأمن مما أثّر سلبا على الحركة التجارية، وزاد من ذلك أسلوب الحصار الذي فرضته الجماعة التومرتية أحيانا(222). إن دليلنا على وجود تلك الضائقة المالية هو وعي بعض الصّلحاء بضرورة المساهمة ماديا في عملية بناء سور العاصمة مراكش، فقد جاء في "أخبار أهل تيط" أن الأمير علي بن يوسف **«كتب كتابا بإشارة الفقيه بن رشد للشيخ الفقيه الشريف الولي القدوة النّاسك أبي البُدلا أبي عبد الله آمغار مستشيرا في ذلك وملتمسا منه صالح دعائه أن يوفقه الله تعالى ويُعينه. فأشار ببُنيانه وسأله وبعث له شيئا من ماله الحلال الخالص المحض وقال له اجْعله في صندوق إنفاق البنيان ويتولّى ذلك من يوثق به في الفضل والدّين ولا يتولّاه غيره ولا يشاركه فيه ثم شرع الملك في بنيان السور»**(223)، ونشير في هذا الصدد كذلك إلى أن مسألة بناء سور مراكش قد كلف سبعين ألف دينار ذهبا(224).

وإلى جانب هذه المصاريف المالية المرتبطة أساسا بتشييد سور عاصمة المرابطين مراكش كانت هناك قضية تمويل الحملات العسكرية بحيث قدّمت النصوص بشأنها وصفا للمعارك والحروب التي قامت بين المرابطين من جهة

221ـ لقد أشار ابن القطان في هذا الصدد قائلا : "**وتمنع من أهل الجبل كل من أطاع الإمام المهدي –رضي الله عنه– من أداء كل ما كانوا يؤدونه لعلي بن يوسف**"، وذكر في موضع آخر أن مجموعة من أنصار ابن تومرت قد اتجهت صوب منطقة سوس وجبل درن ينشرون دعوته حيث لقيت استجابة من أهلها. ابن القطان، نظم الجمان، ص.132-133.

222ـ تحدث ابن أبي زرع عن إحدى المواجهات العسكرية بين المرابطين والتومرتيين بمراكش، قائلا بأن هؤلاء الأواخر و "**حاصروهم بها ثلاثة أيام، ثم ارتحلوا عنها إلى تنمل**"، روض القرطاس، ص.179.

223ـ الأزموري، "أخبار أهل تيط"، مخطوط الخزانة الحسنية، م.س، ص.30-31.

224ـ الأزموري، "أخبار أهل تيط"، مخطوط الخزانة الحسنية، م.س، ص.31.

وأنصار المهدي بن تومرت من جهة ثانية، والتي كلّفت هي الأخرى خزينة الدولة أموالا طائلة[225].

إن استجابة المصامدة لدعوة ابن تومرت يدل على وجود سلطة شرعية أخرى إلى جانب سلطة المرابطين، فهذا الحدث له انعكاسات سلبية على هؤلاء الأواخر تمثّلت في توقف بلاد المصامدة عن أداء الضرائب لخزينة الدولة، كما امتنعت في الوقت نفسه عن مدّها بالجيوش وتجهيز الحملات العسكرية بالخيل والمؤن[226]، وهذا ما أدى إلى حدوث أزمة لوجستيكية عند المرابطين الذين «**عجزوا عن نصرة بلاد الأندلس، وضعفت أحوالهم، واشتغلوا بأنفسهم عنها**»[227]، ولعل ما أدى إلى تزايد ضعف القوة العسكرية المرابطية أمام جيوش النصارى بالأندلس، هو تراجع أعداد من الجيوش بسبب عدد القتلى في صفوف الجيوش المرابطية أثناء مواجهاتها مع المصامدة[228].

إذا كانت السلطة المركزية المرابطية قد عملت على توفير الشروط الأمنية بالعاصمة مراكش، وذلك من خلال حمايتها بالجيوش المتوافدة باستمرار على المدينة أو من خلال تسويرها، فإن ذلك يعكس مدى اهتمام المسؤولين

225– فبالإضافة إلى الأسلحة والمؤن والدواب التي كان يغنمها أصحاب المهدي، فقد كانوا كذلك يحصلون على الأموال كما هو الشأن في إحدى الوقائع التي قادتها جيوش ابن تومرت بزعامة هنتاتة، فقد ذكر ابن القطان بأن هذه الحملة قادها "أبو ماغليف" الذي أخذ "**طريقا سلكهُ خرج منها أمام أعدائهم فقتلهم أجمعين، واحتووا على سلبهم، حتى لتَحصَّل لأحد هنتاتة صاع ممسوح مملوء من دنانير...**"، وفي إحدى المواجهات انتصر التومرتيون على جيوش المرابطين "**فقتلوهم وهزموهم وأخذوا خيلهم وأسلحتهم وأسلابهم، وفتح الله للموحدين أعزهم الله تعالى فتْحًا عظيما ولم يرجع عن عسكر الحشم إلا من تأخَّر أجله**". ابن القطان، نظم الجمان، ص.135-137.

226– تذكر كل النصوص التي تتعرض إلى جواز ملوك المرابطين إلى الأندلس بقصد الجهاد إلى مشاركة وحضور المصامدة من بين الجيوش المتجهة إلى بلاد العدوة، غير أن عدم وضوح إشارة المصادر حول المقصود بقبائل المصامدة المتوجهة إلى الأندلس، هل هم مصامدة الجبل أم مصامدة السهل؟ هو ما أدى بنا إلى القول بأن مصامدة جبال درن تدخل في هذا السياق.

227– ابن أبي زرع، م س، ص.171.

228– رغم تضارب الروايات حول أعداد الجيوش التي فُقدت خلال تلك المواجهات العسكرية، فإن أرقامها تبقى مرتفعة حسب معظم المصادر، البيان المغرب، ج4، ص. 76، روض القرطاس، ص.177-179.

في هذه الدولة بالحواضر دون البوادي[229]، ولم تقتصر هذه العناية فقط على صانعي القرار السياسي بالمغرب المرابطي، وإنما امتد ذلك إلى المؤرخين الذين أهملوا في كتاباتهم أخبار البادية. فهذه الأخيرة لم يتم الإشارة إليها إلا عرضا، إذا ما ارتبطت بمواجهة بين المرابطين والمصامدة، أو في إطار سرد أخبار ووقائع لها ارتباط بنشر الدعوة التومرتية.

وإذا كانت هذه المصادر التاريخية المغربية هي عمادنا في رصد الحركة التومرتية، فإن البحث عن تجليات وسياقات حضور هذه الأخيرة وزعيمها ابن تومرت في ذهنية بعض هؤلاء المؤرخين تبقى مسألة ضرورية ضمن هذه الدراسة.

المبحث السابع :
صورة ابن تومرت وحركته بالمغرب الأقصى
من خلال بعض المصنفات التاريخية الوسيطية

إن المصادر التي سنعتمدها لإبراز صورة ابن تومرت وحركته من خلالها، عاش أصحابها في الفترتين الموحدية والمرينية، ورغم تواجد بعض الخصائص المشتركة بين هذه المؤلفات على مستوى طريقة تعاملها مع الحركة التومرتية، فإن كل مصدر له خصوصيته التي دفعت بصاحبه أن ينظر إلى الحركة التومرتية بمنظور خاص ومتميز، فكيف تعاملت هذه المصادر مع ابن تومرت وحركته ؟

229– لقد سبقت الإشارة إلى هذه الملاحظة عند الحديث عن تواجد المهدي بمراكش، ونذكر بأن الاهتمام بالمدينة دون البادية يمكن ملاحظته عند دخول ابن تومرت إلى أغمات التي قام واليها يطرده، والشيء نفسه ينطبق على مدينة فاس، وهذه المسألة لا تتعلق بالمغرب الأقصى فقط، وإنما شملت كذلك كل المناطق التي زارها ابن تومرت خاصة في مصر وإفريقية والمغرب الأوسط. ويمكن الرجوع في هذا الصدد إلى: نظم الجمان، ص.91-100.

بخصوص المؤلفات التي كتبت خلال الفترة الموحدية، فقد شايعت الحركة التومرتية وأيدت زعيمها المذهبي، فالبيذق[230] لا يذكر اسم محمد بن تومرت إلا ويُتْبِعُهُ بـ "رضي الله عنه"، أو أنه يكتفي فقط بنعته بالمعصوم أو سيدنا المعصوم رضي الله عنه[231]، كما ينعته البيذق في مواضع أخرى من كتابه بالإمام والمهدي[232].

إن صاحب "أخبار المهدي" يعتبر شاهد عيان لهذه الحركة التومرتية وفاعلا في أحداثها، فقد لازم المهدي منذ دخوله بلاد المغرب إلى حدود وفاته عام 524هـ، ولذلك يظهر من خلال رواياته بأنه مفتتن بالفقيه السوسي من خلال الإشادة بكراماته.

وقد جاء الكتاب الذي ألفه البيذق أساسا للتعريف بأهمية سيرة ابن تومرت، وكذا سرد أخبار بداية الدولة الموحدية، ولعل هذا ما عبّر عنه عنوان مؤلفه، لذلك كان سياق الإخْبار بوقائع وأحداث الحركة التومرتية متأثرا بمدى نجاح الموحدين وقيام دولتهم بعد دخولهم مراكش عام 541هـ/1147م. ورغم أن البيذق يظهر –من خلال رواياته- أنه أعطى صورة مثالية لابن تومرت، فإن الهاجس المحرك لذلك كان هو تقديم حجج وأدلة على مدى مصداقية ومشروعية دولة عبد المؤمن الموحدي.

لقد ظهر لنا من خلال تعاملنا مع نصوص هذا الكتاب بأن صاحبه حاول التأكيد على عصمة المهدي، وكذا الإلحاح على مهدويته، ليس فقط من أجل إبراز دور هذا الزعيم المذهبي، ولكن كذلك من أجل إعطاء قيمة رمزية

230– هو أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيذق، وهو أحد تلاميذ الفقيه محمد بن تومرت، وحول هذا المؤلف وكتابه المعتمد في هذه الدراسة يمكن الرجوع إلى مقدمة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور في : "أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين"، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1971، ص. 5-9.

231– البيذق، أخبار المهدي، ص.11-13.

232– أخبار المهدي، ص.16.

لمؤسس دولة الموحدين عبد المؤمن بن علي الكومي[233]، فهذا الأخير لا يتم ذكره عند صاحب أخبار المهدي إلا وهو مقترن باسم الخليفة[234].

لذلك يتضح لنا بأن قراءة البيذق لأحداث حركة ابن تومرت وزعيمها لا يتم تقديمها باعتبارها شكلا من أشكال العصيان أو التمرد ضد السلطة الشرعية القائمة آنذاك والمتمثلة في دولة المرابطين، ولكنه يتحدث عنها في سياق بناء وتأسيس دولة الموحدين.

ويذهب ابن القطان في نفس الاتجاه في كتابه "نظم الجمان"، فهو على غرار البيذق يُكن لابن تومرت التقدير والإجلال، فهو يذكره بالإمام المعصوم المهدي المعلوم[235]، ورغم كونه يخصص جزءا هاما مما عثر من مؤلفه للحديث عن المهدي، فهو لا يتوخى من ذلك إلا التأكيد على مدى مصداقية دولة الموحدين. ذلك أن كتاب نظم الجمان يخصص فقرات من كتابه للرد على ما أسماه بمآخذ المرابطين على الموحدين حيث يتحدث في هذا السياق قائلا : «...**فهذه الأبواب نسبونا فيها إلى الكفر والضلال والخروج من الدين، فسموا أهل التوحيد خوارج وجعلوهم مبتدعين، ونسبوهم إلى الخروج من الدين ! وهيهات ! فما بعد الحق إلا الضلال، فليس للإنسان ما تمنى، ولا يبلغ بغيته بهواه، ولا يفوت قوله بدعواه، فجميع ما قالوه تحريف وتشنيع، بل هو بالضد مما قالوه، وباختلاف ما اختلقوه...**»[236].

إن صاحب نظم الجمان أراد من خلال مؤلفه الدفاع عن مشروعية الدولة الموحدية وخلفائها كحكام مسلمين ملتزمين بتطبيق تعاليم الكتاب والسنة، لذلك فالإشادة بابن تومرت من خلال إثبات انتسابه إلى الرسول والتأكيد على لقائه

---

[233]- هو أبو محمد عبد المؤمن بن علي الكومي الزناتي، وحول مزيد من المعلومات بخصوص روض القرطاس، ص. 183-187.

[234]- فهذا يدل على أن كتاب أخبار المهدي قد تم تأليفه اعتمادا على ذاكرة البيذق المنبهرة بنجاح دولة الموحدين وذلك بعد دخولهم مراكش وسيطرتهم عليها سنة 541هـ/1147م.

[235]- ابن القطان، نظم الجمان، ص.61.

[236]- نظم الجمان، ص. 67.

بالغزالي[237] والطرطوشي بالإسكندرية[238] ثم قيامه بسرد كراماته خاصة منها تلك التي ظهرت له منذ عودته من رحلته بالمشرق الإسلامي انطلاقا من مصر والى حدود دخوله إلى بلاد المصامدة[239]، كل ذلك جاء ليضفي قيمة رمزية على الدولة الموحدية.

فهذه الأخيرة، على ما يبدو من بعض فصول هذا الكتاب، كانت خلال فترة ابن القطان في حاجة ماسة إلى دعاية أكثر لمذهبها، وقد يكون إحساس صاحب نظم الجمان بقرب زوال الحكم الموحدي، خاصة بعد معركة العقاب[240]، وظهور الأزمات السياسية بتعاقب عدد من الخلفاء في وقت وجيز على كرسي الحكم[241]، وكذا في مبايعة أكثر من خليفة في وقت واحد سببا في اعتماد ابن القطان على أسلوب الدعاية والترويج للمذهب التومرتي والحركة الموحدية[242]. فكأن ابن القطان أراد من خلال هذا الاختيار المنهجي في كتابته أن يعيد الثقة من جديد في هذه الدولة، ويدفع الناس إلى الاقتناع من جديد برموزها وأسسها المذهبية التي كادت أن تندثر بفعل ثورة المأمون الموحدي على عقيدة المهدي بن تومرت[243].

237– نظم الجمان، ص. 73.

238– نظم الجمان، ص. 91.

239– نظم الجمان، ص. 91.

240– وقعت هذه المعركة عام 609هـ/1212م وانتهت بهزيمة الموحدين أمام الجيوش النصرانية ويمكن الرجوع حول هذه المعركة إلى :
روض القرطاس، ص. 238-240، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص. 263-265، فقد قال ابن عذاري عن هذه المعركة "**وفي هذه السنة (أي 609هـ/1212م) كانت وقعة العقاب التي كانت السبب في هلاك الأندلس إلى الآن**". ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، –قسم الموحدين– تحقيق مجموعة من الأساتذة، دار الغرب الإسلامي، ودار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1985، ص.263.
وحول مزيد من التفاصيل حول معركة العقاب يمكن الرجوع إلى كتابنا : محمد العمراني، الموحدون والأندلس في زمن المعارك والحروب، نادية للنشر، الرباط، 2015، ص.151-155، وص. 238-245.

241– يمكن الرجوع في هذا الصدد إلى الدراسة القيمة للأستاذ القبلي :
Mohamed Kably, Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen-Age (XIVe XVe siècle), éditions maison veuve et la rose. Paris, 1986, p. 15-20.

242– كما حدث للعادل الذي بويع في شوال عام 621هـ وقيام عبد الله البياسي عليه في 623هـ بالأندلس، ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص.270-271.

243– ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص.286-287، روض القرطاس، ص.251.

لهذا الغرض جاءت سيرة هذا الأخير لامعة من خلال نظم الجمان، الذي تضمَّن تفاصيل عن رحلة المهدي إلى المشرق الإسلامي وعودته إلى بلاد المغرب بشكل لم نجده حتى عند البيذق الذي رافق صاحب هذه الرحلة بعد عودته من المشرق وشارك معه في صنع الأحداث المرتبطة بالحركة الموحدية بالمغرب الأقصى.

إن الروايات التي قام بسردها ابن القطان حول الحركة التومرتية ونشاطها المذهبي والعسكري بجبال المصامدة، وذكره للانتصارات التي حققتها أثناء مواجهته للمرابطين لا تعدو في نظرنا أن تكون سوى شعورا بالقلق من الوضعية العامة بالغرب الإسلامي خلال تلك المرحلة التي عاش خلالها صاحب نظم الجمان[244].

أما عبد الواحد المراكشي[245]، فرغم كونه يشترك مع سابقيه في تأييد ومشايعة الدولة الموحدية، إلا أن ظروف تأليفه للمعجب في المشرق جعل تعامله مع الحركة التومرتية يكتسي طابعا خاصا.

إن أبعاد تأليف هذا الكتاب نلمسها بوضوح من خلال الروايات التي تحدثت عن ابن تومرت وحركته، فقد حرص عبد الواحد المراكشي على أن ينقل صدى الدولة الموحدية إلى بلاد المشرق الإسلامي، لذلك فرغم تأييده للمهدي بن تومرت، فقد تَحَفَّظَ كثيرا عندما تحدث عن أخباره، لذلك نجدهُ يُحَمِّلُ مسؤولية خبر لقاء الغزالي بابن تومرت، وما وقع لهذا الأخير من كرامات، للروايات التي اعتمد عليها لكن دون أن يحسم في صحة أو خطأ واحدة منها[246]، غير أن ذلك لم يكن مانعا له من أجل الإفصاح عن تأييده للحركة التومرتية ومحاولة منه للبرهنة على مصداقية الدولة المؤمنية (نسبة للخليفة عبد المؤمن

244- يمكن الرجوع حول هذه المرحلة إلى ابن عذاري، البيان، القسم الموحدي، ص.265 وما بعدها.

245- حول هذا المؤلف وكتابه "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" يمكن الرجوع إلى مقدمة التحقيق، وإلى : العياشي حدوش، منهجية المراكشي في التاريخ والنقد الأدبي من خلال كتاب المعجب، مقال بمجلة البحث العلمي، عدد 36، 1986، ص.121-130.

246- فقد ذكر بخصوص ابن تومرت "...**وقيل إنه لقي أبا حامد الغزالي بالشام أيام تزهده، فالله أعلم**"، المراكشي، المعجب، ص.263.

الموحدي)، وكذا الاعتراف بمشروعية الخلافة الموحدية كلما وجد الفرصة سانحة للتعبير عن ذلك[247]. لهذا فالمراكشي لم يختلف عن معظم مؤرخي الدولة الموحدية في كونه لم يكن يهدف من خلال إبراز مكانة محمد بن تومرت سوى من أجل البرهنة على مدى مصداقية الدولة التي عاش في كنفها مدة من الزمن، وذلك قبل أن يتوجه إلى بلاد المشرق الإسلامي. ونستدل على ذلك بنماذج من مؤلفه حيث تظهر لنا ازدواجية الخطاب أثناء سرده للوقائع والأخبار، فهناك حديث ابن تومرت الذي يتضح أنه كان مقتنعا بدعوته المذهبية وبمشروعية القضاء على الدولة المرابطية وفي هذا الصدد يتحدث صاحب المعجب قائلا : « **وكان ابن تومرت يُحَدِّثُ نفسه بالقيام عليهم**»[248]، ويضيف المراكشي في موضع آخر عن ابن تومرت أنه « **سَمِعَ وهو يقول : ملالة ! ملالة ! يكررها على لسانه يتأمل أحرفها، ذلك لِمَا كان يراه أن أمره يقوم من موضع في اسمه ميم ولامان، فكان -كما ذكرنا- إذا كرّرها يقول : ليست هي !**»[249].

وأشار كذلك صاحب المعجب عند اتصال المهدي بعبد المؤمن مخاطبا له «**... شرف الدنيا والآخرة، تصحبني وتعينني على ما أنا بصدده، من إماتة المنكر وإحياء العلم وإخماد البدع**»[250].

أما عندما يسرد المراكشي الأحداث فيظهر بأنه غير متأكد مما نسبه لابن تومرت فيذكر « **ولما كانت سنة 515هـ قام بسوس محمد بن عبد الله بن تومرت في صورة آمر بالمعروف ناه عن المنكر**»[251] ثم يضيف قائلا : «**...إلى أن نزل من بلاد المغرب بجاية، فأظهر بها تدريس العلم والوعظ**»[252]، ثم يتابع المراكشي في سياق سرده لوقائع وأحداث رحلة ابن

247– نذكر على سبيل المثال الرواية التي تنبأت بخلافة عبد المؤمن بن علي الكومي، المراكشي، المعجب، ص.268-269.
248– المعجب، ص. 263.
249– المعجب، ص. 266.
250– المعجب، ص. 266.
251– المعجب، ص. 262.
252– المعجب، ص. 264.

تومرت قائلا : «...**فخرج قاصدا مدينة فاس، فلما وصل إليها أظهر ما كان يظهره، وتحدث فيما كان يتحدث فيه من العلم**»[253].

وهكذا يمكن أن نستنتج من صياغة رواية المراكشي أن القيام بمهمة تدريس العلم والالتزام بالوعظ والإرشاد لم تكن غاية في حد ذاتها، وإنما كانت فقط وسيلة لاستمالة العامة وكسب عطفها وتأييدها للحركة التومرتية، وفي الوقت نفسه محاولة من ابن تومرت لاستقطاب الخاصة كذلك وضمّها لصفوفه وإقناعها بأهمية مشروعه المذهبي والسياسي كذلك.

أما عن مصادر العصر المريني، فنكتفي بموقف ابن أبي زرع[254] في كتابه روض القرطاس الذي يعكس بشكل جلي صورة العصر المريني.

إلا أن الملاحظة التي أثارتنا أثناء دراسة الحركة التومرتية هي كون ابن أبي زرع رغم أنه كان يعيش في ظل الدولة المرينية، والتي قامت على أنقاض الموحدين، فهو لم يلبث أن اعترف بمهدوية ابن تومرت[255]. وهكذا نجد صاحب القرطاس يتحدث عن عودة الفقيه السوسي من المشرق الإسلامي مشيرا إلى مناظراته لفقهاء المرابطين بمراكش كما أشار إلى إمامته لكن دون أن يلجأ في ذلك إلى طعن وتقديح، غير أن ابن أبي زرع عند ذكره لابن تومرت في ارتباطه بمنطقة تينملل والبلاد المجاورة لها أخذ يطعن في العقيدة التومرتية، وينتقد سكان جبال درن حيث نعتهم بالجهل ووصفهم بقلة الفهم وبأنهم لا يفقهون شيئا في أمور الدنيا والدين[256].

فهل يمكن تفسير ذلك بمنظور إقليمي، أي شعور ابن أبي زرع بالانتماء إلى الحاضرة المرينية فاس باعتبارها كانت بمثابة مركز للإشعاع الثقافي والعلمي آنذاك، وذلك مقارنة مع منطقة استقرار المصامدة بجبال درن ؟

وتبقى مسألة أخرى يتناولها ابن أبي زرع في كتابه روض القرطاس ويتعلق الأمر بقضية انتماء ابن تومرت حيث جاء في هذا السياق بثلاث

253- المعجب، ص. 270.

254- هو علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي، حول المؤلف وكتابه الأنيس المطرب بروض القرطاس، يمكن الرجوع إلى مقدمة المحقق، ص.5-9.

255- فهو لا يقرنه إلا باسم المهدي، روض القرطاس، ص. 172-181.

256- روض القرطاس، ص. 177.

روايات، فالأولى تؤكد على انتساب المهدي إلى الرسول[257]، وتشير الثانية إلى أصوله المصمودية من قبيلة هرغة[258]، في حين تتحدث الثالثة عن انتماء ابن تومرت إلى قبيلة كنفيسة[259].

لقد حاول صاحب القرطاس، من خلال سرده لهذه الروايات، أن يقنعنا بأن الانتساب إلى الرسول مشكوك في صحته عندما تحدث قائلا : **«وقيل هو دعي في هذا النسب الشريف»**[260].

إن اهتمام صاحب القرطاس بقضية النسب الشريف يعكس ذلك النقاش المجتمعي خلال العصر المريني الذي عاش في ظله هذا المؤرخ، ذلك أن ظاهرة النسب الشريف والانتماء إلى الرسول قد استأثرت باهتمام الدولة ورجالاتها نظرا لكون المرينيين اعتمدوا على العصبية الزناتية، وافتقروا إلى دعوة تؤطر الدولة مذهبيا، فكان التقرب من العلماء والشرفاء خطوة ضرورية لمباركة السلطة المركزية المرينية[261].

ويمكن القول كذلك بأن مساندة ابن أبي زرع للرواية التي لا تنسب ابن تومرت إلى الرسول هي محاولة منه للتأكيد على أن ذلك لم يكن بالضرورة شرطا أساسيا للوصول إلى السلطة، ويتبين لنا كذلك من خلال كتاب القرطاس بأن صاحبه يعترف بابن تومرت ومشروعية حركته ما لم يكن ذلك يتعارض مع مشروعية الدولة المرينية وعاصمتها فاس[262]. فقد تحدث صاحب القرطاس عن رحلة ابن تومرت كما تطرق إلى المواد التي قام بدراستها بالمشرق كالحديث وعلم الأصول والاعتقادات كما تحدث عن اتصاله بالإمام الغزالي[263].

257– روض القرطاس، ص. 172.

258– روض القرطاس، ص. 172.

259– روض القرطاس، ص. 172.

260– روض القرطاس، ص. 172.

261– حول مزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى دراسة :

Mohamed Kably , Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen-Age, p. 272-302.

262– فمثلا لم يشر إلى مناظرة ابن تومرت لعلماء هذه المدينة، الشيء الذي نجده واردا عند صاحب المعجب.

263– ابن أبي زرع، م س، ص.172.

ويظهر كذلك من خلال القرطاس أن ابن زرع كان مقتنعا بالرواية التي تنبأت بثورة ابن تومرت بالمغرب الأقصى[264]، فهل تصديقه لهذه الرواية جاء عن اقتناع منه بشخصية المهدي وثقته في صدق دعوته؟ أم أنه في إشارته لهذه الرواية حاول سحب المشروعية من المرابطين، خصوصا إذا ما علمنا بخلفية الصراع التقليدي الذي كان قائما بين الصنهاجيين من جهة والزناتيين من جهة أخرى عشية وإبان قيام دولة المرابطين بالمغرب الأقصى[265]؟

كيف ما كانت الإجابة عن هذه التساؤلات، فإن ابن أبي زرع كغيره من المؤرخين بالغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط قد تناول الأحداث المرتبطة بالحركة التومرتية من منظور نجاح دولة الموحدين وإنشائها لإمبراطورية بالغرب الإسلامي، والتي شهدت ميلاد تجربة وحدوية انطلقت منذ فترة حكم عبد المؤمن بن علي الكومي واستمر نفوذها إلى حدود معركة العقاب عام 609هـ/1212م[266].

264- يظهر ذلك جليا من خلال الإشارة التالية : "...**أما أنه يثور بالمغرب الأقصى، ويظهر أمره، ويعلو سلطانه ويتسع ملكه، فإن ذلك ظاهر عليه في صفاته وبائن عليه في شمائله، وردت بذلك الأخبار، ودلت عليه العلامات، والآثار**". ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.172.

265- حول تاريخ هذا الصراع يمكن الرجوع إلى القرطاس في أحداث ما قبل قيام الدولة المرابطية، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.102-114.

266- حول هذه التجربة الوحدوية يمكن الرجوع إلى دراسة الأستاذ محمد القبلي : محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1987، ص. 7-20، كما يمكن الرجوع إلى مقالنا: محمد العمراني وحواش عبد الرزاق، التجربة الوحدوية في المغرب الكبير على عهد عبد المومن بن علي الكومي، مجلة أبحاث في العلوم الاجتماعية، العدد27، 1991، ص.61-81.

استنتاجات :

لقد تمكنا من خلال هذا الفصل من الخروج بمجموعة من الاستنتاجات وإثارة بعض القضايا حول الحركة التومرتية، كما ساهمنا في طرح بعض القضايا التي لم يتم حسمها بعد، ويرجع عدم البت فيها أساسا، إلى غياب النصوص من جهة، وكذا إلى تضارب المصادر أحيانًا من جهة أخرى. إن ذلك هو ما يؤدي بالباحث إلى اللجوء للافتراض في انتظار الكشف عن نصوص أخرى بإمكانها إزالة الغموض الذي لا زال يلُفُّ تاريخ هذه الحركة خاصة في سياق علاقتها بقبائل مصامدة جبال درن، ويُمكن تناول هذه القضايا من خلال الملاحظات الثلاثة التالية :

- حركة ابن تومرت وقبائل المصامدة.
- المهدوية بين محمد بن تومرت والقبائل المصمودية.
- الحركة التومرتية وقضية التمييز.

الملاحظة الأولى :

فقد تبيّن لنا من خلال المصادر أن التركيز على شخصية محمد بن تومرت لم يكن في واقع الأمر إلا من أجل إبراز الدور الفعال الذي لعبته قبائل المصامدة خدمة للحركة التومرتية. وفي هذا السياق ذكر أحد الدارسين[267] بأن مبادرة نعت محمد بن تومرت بالمهدوية قد جاءت كاختيار من طرف المصامدة باعتبارهم طرفا أساسيا في الصراع السياسي والعسكري القائم في المنطقة أكثر منها محاولة من طرف ابن تومرت باعتباره عالم وزعيم سياسي ومذهبي له طموح إلى الرئاسة والإصلاح.

ولعل أهمية دور قبائل مصامدة الجبل في هذه الحركة التومرتية هو ما جعل بعض الأبحاث تذهب في تفسير حركة ابن تومرت على أساس أنها ثورة

267_ محمد زنيبر، الخلفية الاجتماعية الثقافية لحركة المهدي بن تومرت، مجلة المناهل، عدد 24، السنة التاسعة، يوليوز 1982، ص.139.

قومية ضد التواجد الأجنبي الصنهاجي بالمنطقة(268). وفي هذا السياق تشير بعض الدراسات إلى أن المصامدة لم ينظروا بعين الارتياح إلى المرابطين الذين أقاموا دولة في أرضهم وأوجدوا الأجهزة التقنية والإدارية لاستثمار مواردها(269). ورغم هذا الدور الذي لعبه مصامدة الجبل، فإن ذلك لا يمكن أن تفسيرها بأن الحركة التومرتية قد جاءت لتُلبي طموحات هذه المجموعة القبلية بكاملها، ذلك أن وجود قبائل معارضة لابن تومرت بجبال درن تنفي البُعد القبلي والإثني عن هذه الحركة.

إن مسألة التمييز والاعتراف رغم كون المصادر تُشير إلى أنه تم توظيفها كآلية من أجل التعرف على المتشككين في حقيقة المهدي وصدق دعوته واتجاهه المذهبي، فإنها لم تكن في نظرنا سوى مؤشرا على وجود معارضة داخل قبائل المصامدة، كما هو الشأن عند استقرار ابن تومرت في تينملل حيث تم إعدام خمسة عشر ألف شخص(270).

فعملية التمييز والاعتراف تؤدي بنا إلى القول بأن الحركة التومرتية لم تُحقق إجماع جميع قبائل مصامدة الجبل، وإنما على ما يبدو من معطيات النصوص، كانت تلبي فقط طموح البعض منها، ولا شك أنّ الفئات المتضررة من الضغط الجبائي المرابطي، والتي كانت ترغب في رفع الكُلفِ والضرائب عنها، وكذا الفئات التي كانت تطمح إلى الاغتناء هي التي شكَّلَتْ دعامة قويّة لهذه الحركة(271).

إن أهمية قبائل المصامدة ودورها في إطار الحركة التومرتية لم تعْكسه

268_ *H.T. NORRIS, The Berbers in Arabic literature, longman london and New York, librairie du liban, 1982, p171.*

269_ محمد زنيبر، م س، ص.137.

270_ ابن القطان، نظم الجمان، ص.139-140، محمد المغراوي، الموحدون وأزمات المجتمع، م س، ص.18.

271_ يتحدث ابن الأثير عن نتائج إحدى عمليات التقتيل والاغتيال الجماعي بتينملل قائلا بأن أصحاب ابن تومرت وأتباعه قد تمكنوا من سبي الحريم ونهب الأموال، كما يشير في رواية أخرى إلى استجابة أهل جبال درن وتنفيذهم لقرار ابن تومرت بقتل المكلفين بجباية الضرائب السنوية بجبال المصامدة، مما يؤكد على أن هاجس التخلص من الثقل الضريبي، أو الحصول على الأموال والسيطرة على الأملاك كانت كذلك دافعا قويا وراء دخول قبائل المصامدة في صفوف الحركة التومرتية بجبال درن.

فقط تلك المواجهات العسكرية التي خاضتها هذه القبائل ضد جيوش المرابطين، وإنما عبّرت عنها كذلك مسألة تشبُّث هذه القبائل بقضية المهدوية.

الملاحظة الثانية : لا يظهر بأن ابن تومرت قد لقَّب فإنه برجوعنا إلى كتاب "أعز ما يُطلب" نفسه بالمهدي، فاكتفى فقط بذكر ظروف مجيء المهدي المنتظر في نهاية الزمان، وكذا ذكره للطائفة التي ستقوم على الحق دون أن ينسب ذلك لنفسه. فالتلقب بالمهدي لم يكن إلا من اقتراح الجماعة التي رافقت ابن تومرت وخاصة منها طبقة أشياخ المصامدة، فهذه الفئة من قبائل المصامدة وغيرها من أتباع المهدي المُقرَّبين، وظفَّت لقب "المهدي" كأداة سُلطوية لإخضاع منطقة المصامدة تحت نفوذها قبل أن يتم إخضاع منطقة الغرب الإسلامي ككُل. إن دليلنا في ما ذهبنا إليه هو أنّ المهدوية كلقب مرتبط بابن تومرت قد تم توظيفه لخدمة أغراض أصحاب ابن تومرت حتى بعد وفاته، فالأشياخ الموحدين اتّخذوه وسيلة لتحقيق مطامحهم، وفي الوقت نفسه من أجل إرغام عبد المؤمن–خليفة ابن تومرت من بعده– على تحقيق هذه المطامح والأهداف[272]، واستغل عبد المؤمن بدوره وكذا مصامدة الجبل لقب المهدوية ووظّفوه لخدمة مشاريعهم التوسعية في باقي جهات المغرب[273] والأندلس[274].

---

[272]– نقصد هنا بالضبط، الموقف الذي سلكه الأشياخ الموحدون من أجل تقليص سلطة الخليفة عبد المؤمن وذلك بتهديده من خلال مرجعية ابن تومرت سواء عند فتح مراكش وتردّده في قتل أحد الأمراء المرابطين حيث صاح أحد الأشياخ متكلما أن عبد المؤمن قد ارتد. كما يُلاحظ ذلك عندما قُتل أخ عبد المؤمن من قبل أحد الأشياخ وأراد للانتقام لأخيه، فقام له الأشياخ وقالوا له ألم يقل المهدي بأن : "**أهل الجماعة وصبيانهم عبيدهم كل من في الدنيا**" فأرغموه بذلك على التخلي عن قتل ذلك الشيخ. يمكن مراجعة تفاصيل ذلك في : البيذق، أخبار المهدي، ص.55، ص.65، ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص.29، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.189.

[273]– استغلت المجموعة التومرتية "المهدوية" لصالح مشاريعها التوسعية بالمغرب، دليلنا في ذلك أنه عند فتح بعض المدن فقد تم الجهر باسم المهدي كما هو الشأن عندما فتح الموحدون مكناسة حيث تعالت أصوات جيوشهم ناطقة بما يلي : "**أبانا يا المهدي! وكان ذلك شعارهم**"، محمد بن غازي العثماني، الروض الهتُون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية، المطبعة الملكية، الرباط 1988، ص.19.

[274]– نقصد بذلك انفراد الموحدين بالدفاع على لقب المهدوية، وهذا ما عبّر عنه عبد المؤمن بن علي الكومي في رفضه للسفارة التي بعث له بها ابن قسي وهو محاصر لمدينة تلمسان، فقد أنكر عبد المؤمن على ابن قسي ما يدعيه من مهدوية في قصة جاءت عند صاحب العبر، ج6، ص.276. وحول ثورة ابن قسي يمكن الرجوع إلى دراستنا المشار إليها ضمن هذا الكتاب: محمد العمراني، حواضر الأندلس بين الانتفاضة والثورة خلال العصر المرابطي، ص.65-102.

إن التأكيد على مهدوية ابن تومرت لم يأخذ وظيفته السياسية بشكل فعلي إلا عند تأسيس المصامدة لدولتهم وترسّخ بشكل فعلي مع تأسيس إمبراطوريتهم بالغرب الإسلامي[275].

الملاحظة الثالثة :

فرغم أننا أشرنا أعلاه إلى مسألة "التمييز"، إلا أن اهتمامنا بها في هذا السياق سيركز على نتائجها وأثرها على الوضع الديموغرافي بجبال درن وانعكاساتها العامة على المجال الخاضع لسلطة المرابطين.

يتضح لنا من خلال رسالة المنظّمة أنها مقنعة ومُغرية في آن معًا، فهي توجّه عدة انتقادات للنظام القائم، كما تفْتح لمُعتنقي الدعوة التومرتية آفاقا للانفلات من الضغط الضريبي المرابطي. يُضاف إلى ذلك كله أن المهدي استطاع من خلال هذه الرسالة أن يُقدم تصوُّره لبناء مجتمع إسلامي يقوم على مبادئ مُستندة على القرآن والسُّنة، لذلك يبقى من المشروع طرح السؤال التالي : إذا كان الخطاب التُّومرتي الموجّه لقبائل مصامدة الجبل أساسا خطابا مُقْنعًا، فلماذا لجأت الحركة التومرتية إلى أسلوب الإعدام في إطار تطبيق سياسة التمييز؟

إن المصادر غير واضحة في هذا الشأن غير أن الأرقام التي قدّمتها بخصوص عدد ضحايا تنفيذ حكم الإعدام في إطار عمليات التمييز كانت مأساوية حيث تم تقديرها بالآلاف[276]، وهذا من شأنه أن يكشف لنا عن مدى فشل أساليب الوعظ والإرشاد في كسب الأنصار.

275– فرغم ثورة محمد المأمون على المهدوية والعقيدة التومرتيتين لم يلبث الموحدون أن عادوا إلى تبنيهما من جديد على عهد الخليفة الرشيد كمحاولة خجولة منهم للحفاظ على استمرارية سلطتهم شكليا بعدما برزت القوة المرينية الزناتية، والتي فرضت نفوذها على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية بالمغرب الأقصى مع العقد الثالث من القرن 6هـ/12م.

276– ابن القطان، نظم الجمان، ص.139–140.

بصيغة أخرى أن ابن تومرت وأصحابه وظّفوا أسلوب التمييز بعد أن تبين لهم عدم نجاعة الأساليب السّلمية في استقطاب الأتباع، فالمصادر لا تُقدّم لنا أدلّة على استنتاجاتنا، غير أن الشيء الذي يجب التأكيد عليه في هذا الصّدد هو أن ابن تومرت قد أعطى أهمية للتّمييز على حساب خطاب الوعظ والإرشاد أو القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذلك أنه من خلال الرجوع إلى كتاب "أعز ما يطلب" نجد فيه دعوة صريحة من المهدي بن تومرت للقيام والتحريض عن الجهاد والقتال في سبيل الحق وضرورة الاعتقاد في المهدي وأن من خالفه يُقتل[277].

ويبدو في تقديرنا أن شُعور ابن تومرت بعدم وجود استجابة واسعة لمشروعه هذا، هو ما جعله يُخصّص مجموعة من الأبواب في كتابه "أعز ما يُطلب" للحديث عن الطائفة التي تقوم بأمر الله وتقاتل على الحق في آخر الزمان[278]، وإذا كانت المصادر التاريخية لا تُقدّم لنا مبررات كافية لتفسير أسباب تبني أسلوب التمييز والاعتراف، فإن الذي مكنتنا منه هذه المصادر هو الكشف عن تجليات العنف في إخضاع سكان جبال درن.

ولعل استفحال ظاهرة الاغتيالات بشكل كبير من خلال توظيف أسلوب التمييز والاعتراف كآلية للإبادة الجماعية والتصفية الجسدية لخصوم الحركة التومرتية هو ما أدى ببعض النصوص إلى نعت هذه الظاهرة بانتشار الفتنة.

ولم تكن ظاهرة القتل والاغتيالات ناتجة فقط عن استعمال أسلوب التمييز، بل كانت ناتجة كذلك عن مختلف المعارك التي خاضتها الحركة التومرتية ضد خصومها من القبائل وكذا جيوش المرابطين، فقد نتج عن هذه المعارك –حسب المصادر– انهيار ديمغرافي كان له دون شك تأثير وانعكاس سلبي على مستوى تجهيز الحملات العسكرية إلى الأندلس. يُضاف إلى ذلك أن المسؤولين المرابطين، بعد ما فقدوا السيطرة على منطقة جبال المصامدة،

277_ محمد بن تومرت، أعز ما يُطلب، ص.236.

278_ محمد بن تومرت، أعز ما يُطلب، ص.251-253.

أصبحوا يتخوفون من عصيان وانتفاضة مناطق أخرى وخروجها عن سلطتهم، ولعل ما يُفسرُ ذلك هو الاهتمام بشؤون الأندلس من خلال المراسلات الرسمية التي كان يتم توجيهها رؤساء الجند والولاة على أساس التزام حدود الشريعة وفرض الأمن وكذا إقرار العدل والمساواة، ويُفسَّر هذا الاهتمام كذلك بالتخوّف من وقوع اهتزازات سياسية كما سبق وأنْ حدثت في قرطبة عام 515هـ بشكل مُتزامن مع ظهور خطر المهدي في جبال المصامدة بالمغرب الأقصى.

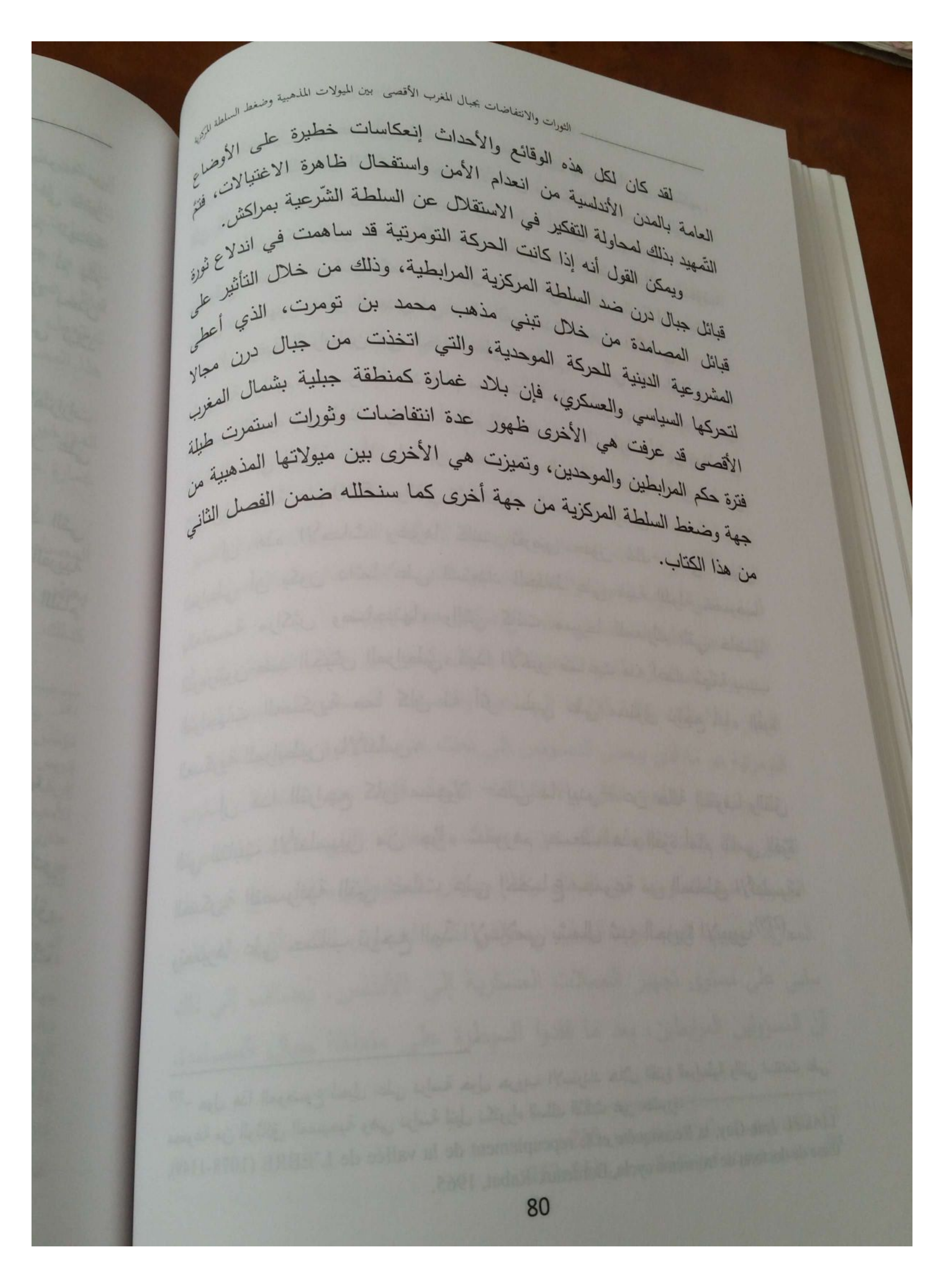
إن رغبة المرابطين في الحفاظ على مجالهم السياسي وكذا الدفاع عن مشروعية دولتهم، خصوصا بعد قيام مصامدة الجبل وثورتهم على الدولة، هو ما يُفسر اللّجوء إلى العنف وتنفيذ أحكام الإعدام ضد كل طرف أظهر زيغا عن الخط الرسمي للدولة، هذا ما عبّر عنه موقف السلطة المركزية المرابطية من ثائر ريف سبتة عام 520هـ والذي تمَّ اغتياله بالعاصمة مراكش.

إن هذه الأحداث وغيرها كانت تَفرض -دون شك- على الجيش المرابطي أن يكون دائما على استعداد للحفاظ على هيبة الدولة خصوصا بالعاصمة مراكش وضاحيتها، والتي كانت مسرحا للمعارك التي خاضها التُّومرتيون ضد الجيش المرابطي، فهذا الأخير ضاعت منه أعداد مُهمّة بسبب المواجهات العسكرية مما كان له أثر سلبي على مستوى تَراجُع أداء القُوة العسكرية للمرابطين بالأندلس.

إن هذا التراجع كان مسؤولا -على ما يبدو- عن حالة الخوف والقلق التي انتابت الأندلسيين من جرّاء شعورهم بضعف هذه القوّة أمام تَنَامي القوّة العسكرية النصرانية التي عَملت على إخضاع مجموعة من المناطق الأندلسية، وتعميرها على حساب تراجع المدّ الإسلامي بشمال شبه الجزيرة الإيبيرية[279].

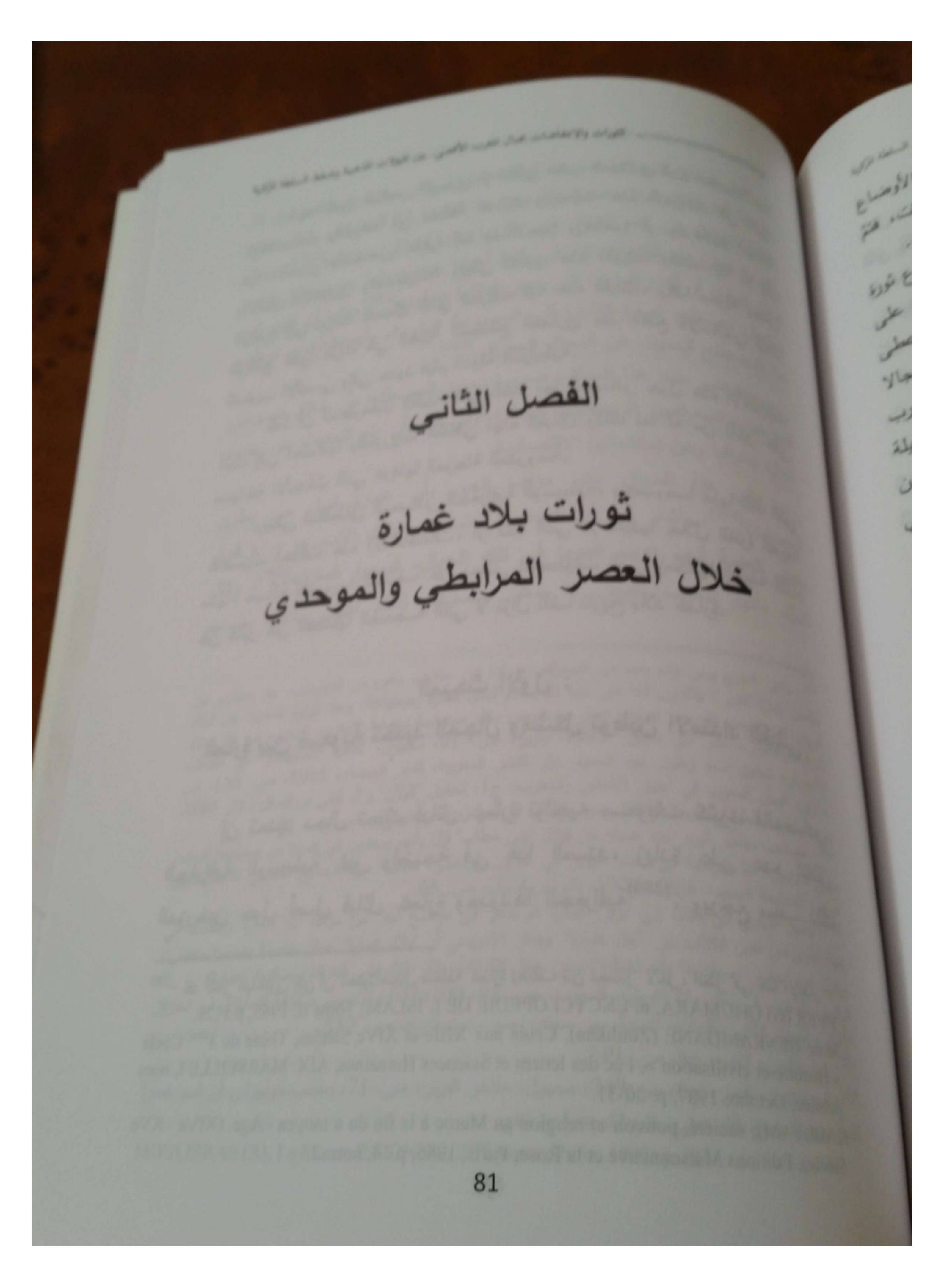
[279]- حول هذا الموضوع نُحيل على دراسة حول حروب الاسترداد خلال الفترة المرابطية والتي استندت على مجموعة من الوثائق المسيحية وهي دراسة لنيل دكتوراه السلك الثالث غير منشورة.

LIAUZU Jean Guy, la Reconquête et le repeuplement de la vallée de L'EBRE (1078-1149), thèse de doctorat de troisième cycle, Bordeaux-Rabat, 1965.



لقد كان لكل هذه الوقائع والأحداث إنعكاسات خطيرة على الأوضاع العامة بالمدن الأندلسية من انعدام الأمن واستفحال ظاهرة الاغتيالات، فتمّ التّمهيد بذلك لمحاولة التفكير في الاستقلال عن السلطة الشّرعية بمراكش.

ويمكن القول أنه إذا كانت الحركة التومرتية قد ساهمت في اندلاع ثورة قبائل جبال درن ضد السلطة المركزية المرابطية، وذلك من خلال التأثير على قبائل المصامدة من خلال تبني مذهب محمد بن تومرت، الذي أعطى المشروعية الدينية للحركة الموحدية، والتي اتخذت من جبال درن مجالا لتحركها السياسي والعسكري، فإن بلاد غمارة كمنطقة جبلية بشمال المغرب الأقصى قد عرفت هي الأخرى ظهور عدة انتفاضات وثورات استمرت طيلة فترة حكم المرابطين والموحدين، وتميزت هي الأخرى بين ميولاتها المذهبية من جهة وضغط السلطة المركزية من جهة أخرى كما سنحلله ضمن الفصل الثاني من هذا الكتاب.



الفصل الثاني

ثورات بلاد غمارة
خلال العصر المرابطي والموحدي

شهد القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي قيام مجموعة من الانتفاضات والثورات في منطقة غمارة، وارتبطت هذه التمردات في كثير من الأحيان بأشخاص عُرفُوا إما بصلاحهم وزهدهم، أو بادعائهم الهداية والإتيان بالخوارق والمعجزات، ويبقى تفسير هذه الثورات ناقصا إذا لم يتم الرجوع إلى دراسة المجال الذي تحركت فيه هذه القبائل، وكذا معرفة بعض الوقائع التي أثَّرت في ذهنية المجتمع الغماري منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الأقصى وإلى حدود قيام الدولة المرابطية.

كما أن المعلومات القليلة التي تمدنا بها المصادر حول هذه الاهتزازات أدت إلى اهتمامنا بالموروث الثقافي لهذه القبائل وذلك لما له من تأثير على صياغة الأحداث التي عرفتها المرحلة المدروسة.

ويبقى استنطاق المصادر الجغرافية الوسيطية، وخصوصا منها تلك التي عاصرت أحداث هذه الانتفاضات، أو تلك التي تم تأليفها خلال الفترة القريبة منها، مسألة ضرورية للكشف عن بعض المعطيات التي بإمكانها إماطة اللثام عن كثير من القضايا الغامضة التي لا تزال تلف تاريخ بلاد غمارة.

المبحث الأول :
غمارة بين صعوبة تحديد المجال ومشكل توطين الامتداد القبلي

إن تحديد مجال تحرك قبائل غمارة تواجهه صعوبات كثيرة، فالمصادر الجغرافية الوسيطية غير واضحة في هذا الصدد، زيادة على عدم اتفاق المؤرخين حول أصل قبائل غمارة وحدودها الجغرافية[280]. ويرجع سبب ذلك

---

[280]– لقد أشار الباحثون إلى أن تحديد مجال منطقة غمارة يختلف من مصدر لآخر، انظر في هذا الإطار :
- YVER (G) GHUMARA, in ENCYCLOPEDIE DE L'ISLAM, Tome II, 1965, p.1121.
- Mme BENRAMDANE (Zoulikha), Ceuta aux XIIIe et XIVe Siècles, Thèse de 3ème Cycle « Histoire et civilisation », Fac des lettres et Sciences Humaines, AIX. MARSEILLE I, nom publiée, Octobre 1987, p. 30-31.
- KABLY (M), société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du « moyen –Age. (XIVe –XVe Siècle), Editions Maisonneuve et la Rose, Paris, 1986, p.34, note. 2.

إلى كون النطاق الذي تواجدت فيه قبائل غمارة لم يكن حكرًا عليها فقط، بل قد نافستها فيه كذلك قبائل صنهاجة. وهذا ما تعكسه لنا المصادر بشكل جلي عندما تتحدث عن هذه القبائل فهي تقرنها دائما بقبائل صنهاجة[281]. ولعل ذلك ما جعل هذه الكتابات تقع في خلط أحيانا عند حديثها عن مناطق تواجد قبائل غمارة، أو أثناء إشارتها إلى بعض قبائلها وبطونها[282]، كما أن المصادر تستعمل مصطلح غمارة كإشارة إلى المجموعة البشرية، وأحيانا أخرى توظف هذا المصطلح للحديث عن المجال الجغرافي[283].

ويفرض علينا هذا الموقف ضرورة تحديد المصطلح من خلال نصوص المؤرخين والجغرافيين الوسيطيين كخطوة أولى قبل أن يتم الحديث عن حدود غمارة جغرافيا وعن إمكانياتها الاقتصادية.

وفي هذا السياق ذكر مؤلف العبر بأن غمارة قبيل من بطون المصامدة[284]، وأشار إلى أن السبب في تسميتهم بذلك الاسم هو : « **قول بعض العامة أنهم عرب غمروا في تلك الجبال، فسموا غمارة**»[285]، وقال كذلك بأنهم شعوب وقبائل لا يمكن حصرها، لذلك اكتفى بذكر بطونهم

281- يشير البكري ومن جاء بعده من الجغرافيين، وكذا ابن عذاري، وغيره من المؤرخين، عند حديثهم عن مؤسس إمارة "نكور"، يذكرون أنه على يديه تم إسلام قبائل غمارة وصنهاجة. وعند توزيع المغرب بين أبناء إدريس ابن إدريس كان من نصيب عمر بن إدريس بلاد صنهاجة وغمارة. البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر دي سلان، 1965، باريز، ص. 91، مجهول، "كتاب الاستبصار" في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص. 136، ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، تحقيق "كولان" و"إ. ليفي بروفنسال"، دار الثقافة، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 1980، ص. 176، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 51.

282- فصاحب مفاخر البربر عند حديثه عن قبائل "بني خطاب" قال بأنهم يوجدون في غمارة من صنهاجة الريف. مؤرخ مجهول، نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى، منتخبة من المجموع المسمى كتاب مفاخر البربر، المطبعة الجديدة، الرباط، 1934، نشر بروفنسال، ص. 66.

283- يشير البكري في كتابه إلى "بربر غمارة" ثم يذكر في موضع آخر من مؤلفه "بلد غمارة" ويتحدث في جهة أخرى من نفس الكتاب عن "أهل غمارة". ويذكر الإدريسي أن "بلاد غمارة" "جبال متصلة بعضها ببعض"، ويقول عن "حصن مسطاسة" بأنه لغمارة"، وعن جبال الكواكب يذكر الإدريسي أنه كان يسكنها "غمارة". البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص. 91، 100-102، الإدريسي، "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، المجلد الثاني، المكتبة الدينية، بور سعيد، مصر، دون تاريخ، ص. 532.

284- ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 249.

285- ابن خلدون، العبر، ج6، ص.249، مجهول، مفاخر البربر، ص. 71، وحسب موليراس أن اسم غمارة كقبيلة بربرية موجود قبل مجيء فتوحات عقبة بن نافع.

MOULIERAS (A), Le Maroc INCONNU, 2ème partie, Paris, 1895, p. 251.

المشهورة، والتي حددها في "بنو حميد"، "متيوة"، "بنونال"، "اغصاوة"، "بنو زروال"، و"مجكسة"[286]. وجاء في "كتاب الأنساب" لابن عبد الحليم[287] ذكر قبائل أخرى لم ترد في كتاب العبر[288]، أما صاحب "مفاخر البربر" الذي اعتمد على كثير من أهل العلم بالأنساب فقد ذكر : **"أن غمارة إسم رجل، وهو غمار بن مصمود لصلبه"**[289]. غير أن ما يثير الانتباه فيما جاء به هذا المؤرخ المجهول عن غمارة، أنه يتحدّث عنها باعتبارها إحدى القبائل الأمازيغية المنتمية إلى البرانس إلى جانب المصامدة وصنهاجة، وغيرهما من القبائل، دون أن يؤكد على أنها إحدى الفرق المصمودية، وقال بأن **"لها شعوب كثيرة وقبائل جمة، وبطون، وأفخاذ، وعمائر غزيرة"**[290]. في حين ينص فيه ابن خلدون على أن غمارة ما هي إلا إحدى بطون المصامدة[291]، ويبرهن على رأيه هذا بأن "قصر المجاز" ينسب إلى **"المصامدة الذين يستوطنون المنطقة الممتدة ما بين سبتة وطنجة"**[292].

لم ينحصر هذا التضارب بين روايات المؤرخين ونصوص الجغرافيين على مستوى تحديد أصل غمارة فقط، وإنما تعداه كذلك إلى مستوى تحديد مجال تحرك هذه القبائل. فيشير بعض الإخباريين إلى أن غمارة كانت تستوطن جبال الريف بساحل البحر الرومي من "غساسة" إلى "طنجة" مرورا عبر "نكور"، "بادس"، "تيكساس"، "تيطاوين"، "سبتة" ثم "قصر المجاز" عبر خمس

---

[286]– ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 249.

[287]– عاش هذا المؤرخ خلال القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي.

[288]– ابن عبد الحليم، كتاب الأنساب، ضمن ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي، دراسة وتحقيق الدكتور محمد يعلى، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد، 1996، ص. 54-55. فقد أخبرنا ابن عبد الحليم برواية عن البنية القبلية في غمارة قائلا : **"والذين كانوا في بلاد غمارة إلى حد طنجة وسبتة بنو كترات وبنو سكر، وفي مدينة تطاوين بناحية سبتة بنو مرزوق بن عون الله ثم إلى فج الفرس وبه قرارات للمصامدة منهم بنو سمغرت وبنو معديد وبنو دغاغ ومنهم قبيلة يقال لها كتامة ولهم سوق يقال له : سوق كتامة"**.

[289]– مؤرخ مجهول، مفاخر البربر، ص. 71.

[290]– مؤرخ مجهول، مفاخر البربر، ص. 64-65.

[291]– ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 249.

[292]– ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 250.

مراحل، أو أكثر حيث اتخذوا من جبالها ملجأ عبر خمس مراحل أخرى عرضا إلى حدود بسائط قصر كتامة ووادي ورغة[293]. وكان هذا المجال يمتد في الماضي باتجاه الجنوب، عندما كانت قبيلة بني حسان الغمارية تستوطن الساحل الممتد من أصيلا إلى آنفا[294]. وإذا كانت رواية العبر قد أعطت تحديدا للامتداد الجغرافي لهذه القبائل، فإن ابن عبد الحليم اكتفى فقط بتحديد الجهة الغربية لبلاد غمارة والمتمثلة في طنجة وسبتة[295]، مع إشارته لبعض المراكز الحضرية المتواجدة في هذا النطاق مثل تطاوين، طنجة، سبتة وسوق كتامة[296].

وتتميز معطيات الجغرافيين الوسيطيين بدقتها في هذا الصدد، فالإدريسي يشير إلى أن مرسى "انزلان" يعتبر أول بلاد غمارة، بينما تعتبر "بادس" آخرها[297]، وبلاد غمارة في منظوره "**هي عبارة عن جبال متصلة بعضها ببعض، وطولها حوالي ثلاثة أيام**"، ويحددها جنوبا بجبال الكواكب التي تمتد على طول أربعة أيام حيث تنتهي قرب مدينة فاس ويسكنها غمارة"[298].

ويلاحظ من خلال هذا التحديد أن هناك تمييزا بين غمارة المجال، وبين غمارة القبيلة، ذلك أن منطقة غمارة لا يقصد بها الإدريسي بالضرورة مجال استقرار سكان هذه القبيلة، ذلك ما نستنتجه من حديثه عن "حصن تيقساس" الذي يقول عنه أنه "**حصن معمور في غمارة، لكن أهله بينهم وبين غمارة حرب دائمة**"[299]. أما مؤلف كتاب الاستبصار فيحصر غمارة في الجبل الذي

293– ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 249.

294– ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 249. ولعل ما يؤكد قول ابن خلدون أعلاه، هو ما جاء عند صاحب مفاخر البربر بأن "بني حسان" هي فخذ من غمارة. مؤرخ مجهول، مفاخر البربر، ص. 67.

295– ابن عبد الحليم، "كتاب الأنساب"، م س، ص. 54.

296– ابن عبد الحليم، "كتاب الأنساب"، م س، ص. 54-55.

297– الإدريسي، "نزهة المشتاق"، ج2، ص. 532-533.

298– الإدريسي، "نزهة المشتاق"، ج2، ص. 532-533، ولعل ذلك هو ما جعل صاحب جذوة الاقتباس في مراحل لاحقة أن يؤكد ما يلي : "**... ومن جبال مدينة فاس القريبة إليها جبال غمارة من أخصب جبال المغرب وهي من الجبال المشهورة وغمارة أمة لا تحصى**". ابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، القسم الأول، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ص. 80.

299– الإدريسي، نزهة المشتاق، ج2، ص. 532.

يقول عنه، إنه من الجبال المشهورة، تسكنه قبائل كثيرة من غمارة وهي أمم لا تحصى. وأضاف في هذا السياق بأن طول هذا الجبل مسيرة ستة أيام وعرضه نحو ثلاثة أيام[300]. أما ابن سعيد فيحدد المجال الغماري دون أن يحدثنا عن القبائل التي تستوطنه فذكر في هذا الصدد قائلا أنه : « **أول ما يلقاك في بر العدوة بعد سبتة جبل غمارة العالي الطول، العريض، فيه من الأمم ما لا يحصيهم إلا الله تعالى**»[301].

وهكذا يتضح لنا أن نطاق تحرك قبائل غمارة شاسع ومطاط في آن واحد، فهو يشرف على البحر المتوسط شمالا[302]، ويمتد جنوبا إلى قرب مدينة فاس. كما أن قبائل غمارة وجيرانها تضطر، وفي كثير من الأحيان، اللجوء إلى الجبال والحصون المرتفعة قصد الاحتماء بها عند خروجها عن السلطة الشرعية مرابطية وموحدية[303].

فالوضعية غير المستقرة لسكان هذه المنطقة من جهة[304]، وكذا عدم إلمام المؤرخين والجغرافيين الوسيطيين بالمجموعات القبلية التي كانت تستوطن بلاد غمارة من جهة أخرى، كان مسؤولا عن عدم تقديم صورة واضحة عن الانتفاضات والاهتزازات السياسية التي عرفتها المنطقة خلال القرن السادس الهجري/12م، وهذا ما عبَّرت عنه طريقة نقل الخبر عن ثورة أو تمرد حدث بهذا الجزء من المغرب الأقصى[305].

300– مجهول، الاستبصار، ص. 190.

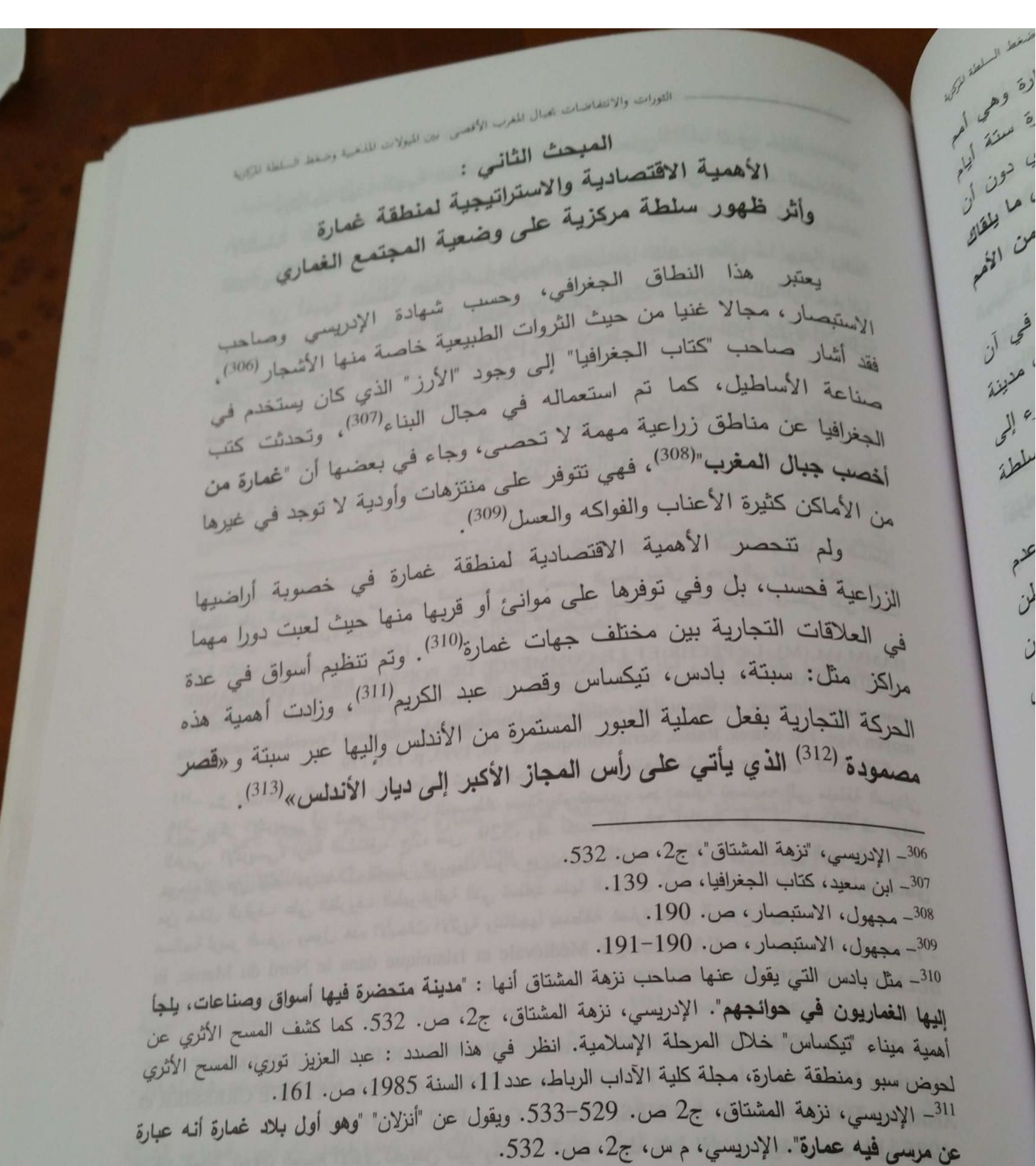
301– ابن سعيد، "كتاب الجغرافيا"، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1970، ص. 139.

302– يطلق ابن سعيد على الجهة الساحلية من غمارة إسم "الريف"، ويبدو أن هذا المصطلح سيتم تعميمه في فترات لاحقة على المناطق الشمالية من المغرب الأقصى وخاصة منها النطاق الجبلي. ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص. 139، ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 249، الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، الشركة المغربية لدور النشر المتحدة، الرباط، 1980، ص. 252.

303– حول حصون غمارة، انظر : الإدريسي، م س، ج2، ص. 532.

304– نقصد بذلك تنقل قبائل غمارة وجيرانها بين الجبال المرتفعة من جهة وبين هجومها على أراضي فلاحية أو مراكز تجارية جنوبا من جهة أخرى.

305– يضطر المؤرخون اللجوء إلى التعميم بخصوص الثورات والانتفاضات التي عرفتها المنطقة، ونسوق مثالا في هذا الصدد من كتاب "الذخيرة السنية" المنسوب لابن أبي زرع حول قيام العبيدي عام 600هـ/1203م حيث أشار إلى ما يلي : "...**فتابعه كثير من قبائل المغرب وبواديه وجميع جبال غمارة...**". ابن أبي زرع، "الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية"، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص.38.



المبحث الثاني :
الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية لمنطقة غمارة
وأثر ظهور سلطة مركزية على وضعية المجتمع الغماري

يعتبر هذا النطاق الجغرافي، وحسب شهادة الإدريسي وصاحب الاستبصار، مجالا غنيا من حيث الثروات الطبيعية خاصة منها الأشجار[306]، فقد أشار صاحب "كتاب الجغرافيا" إلى وجود "الأرز" الذي كان يستخدم في صناعة الأساطيل، كما تم استعماله في مجال البناء[307]، وتحدثت كتب الجغرافيا عن مناطق زراعية مهمة لا تحصى، وجاء في بعضها أن "**غمارة من أخصب جبال المغرب**"[308]، فهي تتوفر على منتزهات وأودية لا توجد في غيرها من الأماكن كثيرة الأعناب والفواكه والعسل[309].

ولم تنحصر الأهمية الاقتصادية لمنطقة غمارة في خصوبة أراضيها الزراعية فحسب، بل وفي توفرها على موانئ أو قربها منها حيث لعبت دورا مهما في العلاقات التجارية بين مختلف جهات غمارة[310]. وتم تنظيم أسواق في عدة مراكز مثل: سبتة، بادس، تيكساس وقصر عبد الكريم[311]، وزادت أهمية هذه الحركة التجارية بفعل عملية العبور المستمرة من الأندلس وإليها عبر سبتة و«**قصر مصمودة** [312] **الذي يأتي على رأس المجاز الأكبر إلى ديار الأندلس**»[313].

306- الإدريسي، "نزهة المشتاق"، ج2، ص. 532.

307- ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص. 139.

308- مجهول، الاستبصار، ص. 190.

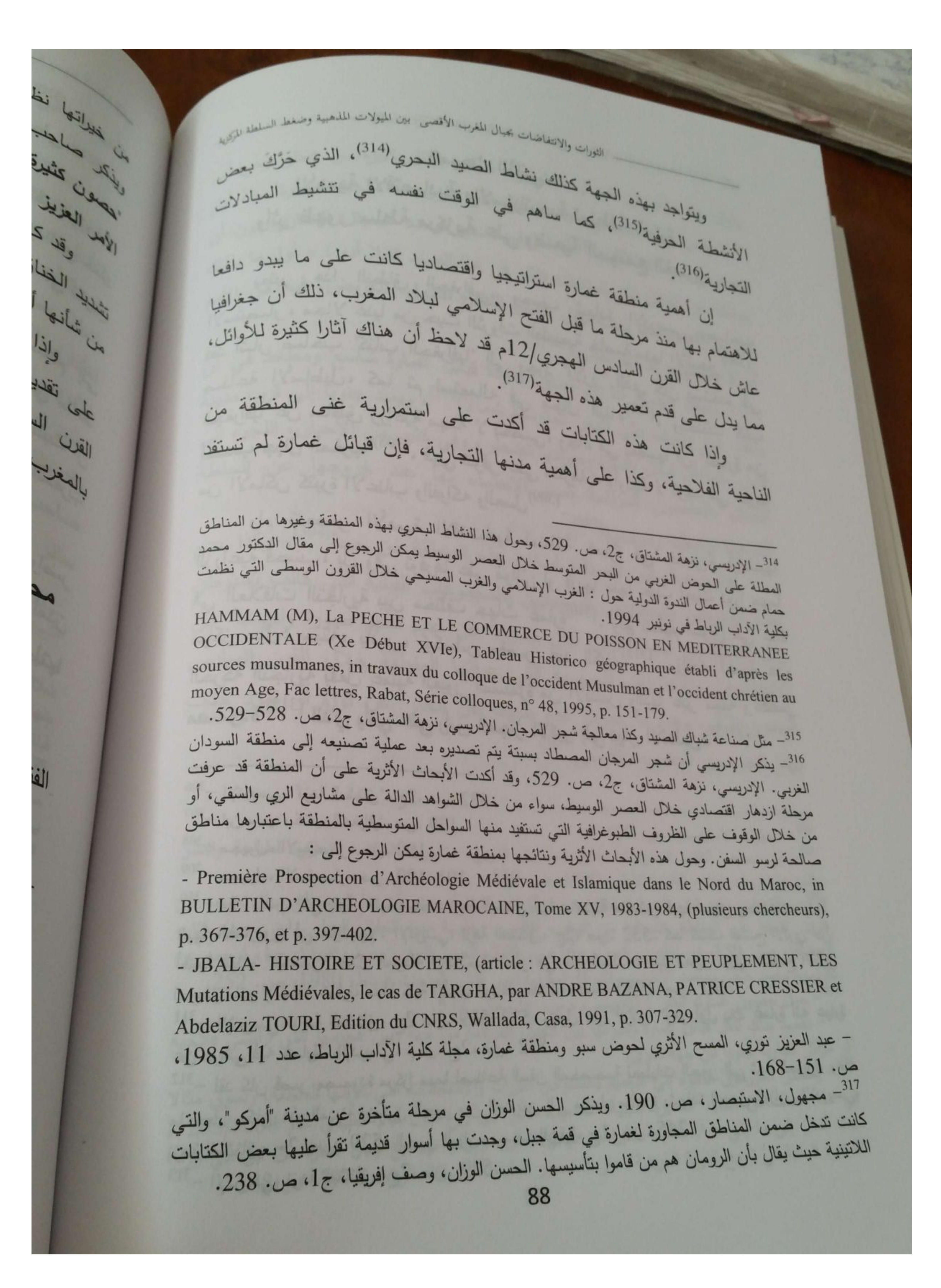
309- مجهول، الاستبصار، ص. 190-191.

310- مثل بادس التي يقول عنها صاحب نزهة المشتاق أنها : "**مدينة متحضرة فيها أسواق وصناعات، يلجأ إليها الغماريون في حوائجهم**". الإدريسي، نزهة المشتاق، ج2، ص. 532. كما كشف المسح الأثري عن أهمية ميناء "تيكساس" خلال المرحلة الإسلامية. انظر في هذا الصدد : عبد العزيز توري، المسح الأثري لحوض سبو ومنطقة غمارة، مجلة كلية الآداب الرباط، عدد11، السنة 1985، ص. 161.

311- الإدريسي، نزهة المشتاق، ج2 ص. 529-533. ويقول عن "أنزلان" "**وهو أول بلاد غمارة أنه عبارة عن مرسى فيه عمارة**". الإدريسي، م س، ج2، ص. 532.

312- لقد كان قصر مصمودة مركزا مهما لصناعة السفن المخصصة لعمليات العبور إلى شبه الجزيرة، وهذا ما جعل سكان هذه المدينة يؤمنون العبور بين العدوتين إلى مراحل متأخرة بشهادة الحسن الوزان. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج2، ص. 529، الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص. 245.

313- الإدريسي، نزهة المشتاق، ج2، ص. 529.



ويتواجد بهذه الجهة كذلك نشاط الصيد البحري[314]، الذي حرّك بعض الأنشطة الحرفية[315]، كما ساهم في الوقت نفسه في تنشيط المبادلات التجارية[316].

إن أهمية منطقة غمارة استراتيجيا واقتصاديا كانت على ما يبدو دافعا للاهتمام بها منذ مرحلة ما قبل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ذلك أن جغرافيا عاش خلال القرن السادس الهجري/12م قد لاحظ أن هناك آثارا كثيرة للأوائل، مما يدل على قدم تعمير هذه الجهة[317].

وإذا كانت هذه الكتابات قد أكدت على استمرارية غنى المنطقة من الناحية الفلاحية، وكذا على أهمية مدنها التجارية، فإن قبائل غمارة لم تستفد

314- الإدريسي، نزهة المشتاق، ج2، ص. 529، وحول هذا النشاط البحري بهذه المنطقة وغيرها من المناطق المطلة على الحوض الغربي من البحر المتوسط خلال العصر الوسيط يمكن الرجوع إلى مقال الدكتور محمد حمام ضمن أعمال الندوة الدولية حول : الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى التي نظمت بكلية الآداب الرباط في نونبر 1994.
HAMMAM (M), La PECHE ET LE COMMERCE DU POISSON EN MEDITERRANEE OCCIDENTALE (Xe Début XVIe), Tableau Historico géographique établi d'après les sources musulmanes, in travaux du colloque de l'occident Musulman et l'occident chrétien au moyen Age, Fac lettres, Rabat, Série colloques, n° 48, 1995, p. 151-179.

315- مثل صناعة شباك الصيد وكذا معالجة شجر المرجان. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج2، ص. 528-529.

316- يذكر الإدريسي أن شجر المرجان المصطاد بسبتة يتم تصديره بعد عملية تصنيعه إلى منطقة السودان الغربي. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج2، ص. 529، وقد أكدت الأبحاث الأثرية على أن المنطقة قد عرفت مرحلة ازدهار اقتصادي خلال العصر الوسيط، سواء من خلال الشواهد الدالة على مشاريع الري والسقي، أو من خلال الوقوف على الظروف الطبوغرافية التي تستفيد منها السواحل المتوسطية بالمنطقة باعتبارها مناطق صالحة لرسو السفن. وحول هذه الأبحاث الأثرية ونتائجها بمنطقة غمارة يمكن الرجوع إلى :

- Première Prospection d'Archéologie Médiévale et Islamique dans le Nord du Maroc, in BULLETIN D'ARCHEOLOGIE MAROCAINE, Tome XV, 1983-1984, (plusieurs chercheurs), p. 367-376, et p. 397-402.
- JBALA- HISTOIRE ET SOCIETE, (article : ARCHEOLOGIE ET PEUPLEMENT, LES Mutations Médiévales, le cas de TARGHA, par ANDRE BAZANA, PATRICE CRESSIER et Abdelaziz TOURI, Edition du CNRS, Wallada, Casa, 1991, p. 307-329.
- عبد العزيز توري، المسح الأثري لحوض سبو ومنطقة غمارة، مجلة كلية الآداب الرباط، عدد 11، 1985، ص. 151-168.

317- مجهول، الاستبصار، ص. 190. ويذكر الحسن الوزان في مرحلة متأخرة عن مدينة "أمركو"، والتي كانت تدخل ضمن المناطق المجاورة لغمارة في قمة جبل، وجدت بها أسوار قديمة تقرأ عليها بعض الكتابات اللاتينية حيث يقال بأن الرومان هم من قاموا بتأسيسها. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص. 238.

من خيراتها نظرا لمحاصرتها في أعالي الجبال منذ بداية الفترة المرابطية. ويذكر صاحب الاستبصار في هذا الصدد عن جبال غمارة قائلا: أن فيها "**حصون كثيرة تمتنع فيها غمارة. وتنفق على الولاة، كذلك عرفوا حتى كسر الأمر العزيز شوكتهم، وأباد شرارهم واستأصل شأفتهم**"(318).

وقد كان لتحكم غمارة في ممر استراتيجي للعبور إلى الأندلس دافعا وراء تشديد الخناق عليهم، والعمل في الوقت نفسه على إجهاض أي محاولة تمردية من شأنها أن تعرقل المشروع المرابطي أو الموحدي بشبه الجزيرة.

وإذا كانت دراسة الإطار الجغرافي قد مكنتنا من بعض الأدوات المساعدة على تقديم تفسير لمختلف أشكال الثورة والتمرد التي شهدتها المنطقة خلال القرن السادس الهجري/12م، فإن معرفة تاريخ غمارة منذ الفتح الإسلامي بالمغرب تعتبر خطوة ضرورية لفهم ميكنزمات الانتفاضات الغمارية.

المبحث الثالث :
محطات هامة في تاريخ المنطقة، أو غمارة من الفتح الإسلامي إلى القرن السادس الهجري/12م

تذكر المصادر بأن علاقة قبائل غمارة بالإسلام ترجع إلى مرحلة الفتوحات الإسلامية الأولى ببلاد المغرب(319) حيث أسلمت هذه القبائل على يد

318- مجهول، الاستبصار، ص. 191. لقد أكدت إحدى الأبحاث الأثرية في منطقة غمارة على أهمية التحصينات التي شهدتها بعض مراكز غمارة خلال الفترة الوسيطية.

- *JBALBA, op.cit, p. 317.*

319- حول هذه الفتوحات يمكن الرجوع إلى :

- عبد الرحمان بن عبد الله بن عبد الحكم، فتوح أفريقية والأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1987، ص. 46-70، أبو الحسن البلاذري، فتوح البلدان، مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1983، ص. 227-232، ابن عذاري، البيان المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ج1، دار الثقافة بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1980، ص. 8-46.

صالح بن منصور جد سعيد بن إدريس مؤسس مدينة نكور[320]، غير أن غمارة ما لبثت أن "**ارتد أكثرها لما ثقلت عليهم شرائع الإسلام**" على حد تعبير كل من البكري في مسالكه وابن عذاري في بيانه[321].

وإذا كانت المحاولات الأولى لنشر الإسلام بين قبائل غمارة قد تمت قبل مجيء موسى بن نصير، فإن هذا الأخير، وحسب رواية العبر، هو الذي حمل هذه القبائل على اعتناق الدعوة الإسلامية، كما ساهمت غمارة كذلك في تكوين جيش طارق بن زياد عند فتحه للأندلس[322].

وإذا كانت سبتة هي حاضرة المنطقة مع بداية دخول الإسلام إلى المغرب الأقصى، نظرا لأنها كانت مقرًا لحكم أمير غمارة يليان، الذي ساعد المسلمين على فتح الأندلس رغم عدم إسلامه[323]، فإن هذه المدينة لم تلبث أن دخلت تحت السيادة الإسلامية خاصة بعد تتابع الهجرات العربية إلى المغرب الأقصى[324].

فهذه الهجرات كان لها دور في عملية نشر الإسلام في مختلف حواضر غمارة وكذا في المراكز الحضرية القريبة منها كما هو الشأن بالنسبة لمدن "نكور"، "تطاوين"، "أصيلا" وطنجة[325]، واستطاعت قبائل غمارة فرض سلطتها

320– البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص. 91، ابن عذاري، البيان المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ج1، م س، ص. 176، ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 251.

321– البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، عن نسخة ديسلان، دون سنة الطبع، ص. 91، ابن عذاري، البيان، ج1، ص. 176.
وبذلك لا نوافق الباحث المختار الهراس الذي ذكر بأن سكان غمارة كان تأثرهم باللغة العربية وبالإسلام أشد من سكان المناطق الأخرى. المختار الهراس، تطور الهياكل القبلية شمال غرب المغرب، رسالة دبلوم الدراسات العليا في علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكدال – الرباط، ص. 102.

322– ابن عذاري، البيان، ج1، ص. 42، ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 250.

323– ابن عبد الحكيم، فتوح إفريقية والأندلس، ص. 71-73.

324– لما توفي "يليان" استولى العرب على مدينة سبتة صلحا من أيدي قومه وقاموا بتعميرها كما جاء عند ابن خلدون، ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 250.

325– ابن خلدون، ج6، ص. 251، بيصعين عبد الكريم، "الصراع الفاطمي الأموي في المغرب الأقصى خلال القرن الرابع الهجري"، دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز فاس، مرقونة، سنة 1984، ص. 102-104.

السياسية على سبتة بعدما تم تخريبها[326]، في حين أنه بعد قيام دولة الأدارسة بمدينة فاس خضعت لها غمارة وأدّت لها الطاعة[327].

وخلال قيام الصراع الأموي الفاطمي بالمغرب الأقصى في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي[328] خضعت مدينة سبتة ومنطقة غمارة للأمويين بالأندلس حيث قام أهلها بالدعوة السنية المالكية[329]. غير أنه وفي نفس الفترة بقي التأييد والتعاطف قائمين مع الأسرة الإدريسية، التي لجأ بعض أفرادها إلى منطقة غمارة، وأسسوا بها بعض المراكز مثل قلعة حجر النسر التي كانت ملجأ للأدارسة[330]. ولعل الدليل على استمرارية هذا التعاطف، هو أخذهم بالدعوة الإدريسية بعد القضاء على الدولة العامرية، وتقديم طاعتهم إلى الحموديين، الذين لعبوا دورا مهما في الأحداث السياسية بالأندلس عقب الفتنة البربرية[331]، وقد ظل هذا الولاء مستمرا إلى حدود قيام دولة المرابطين التي يقول عنها صاحب العبر أنها تمكنت من إخضاع غمارة « **فأقاموا في طاعة لمتونة سائر أيامهم**»[332].

326– ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 250، البكري، م س، ص. 104.
فيذكر ابن خلدون تطور الأحداث في سبتة كما يلي : "...**ثم كانت فتنة ميسرة الحقير وما دعى إليه من ضلاله الخارجية، وأخذ بها الكثير من البرابرة من غمارة وغيرهم فزحف برابرة طنجة إلى سبتة وأخرجوا العرب منها وسبوها وخربوها فبقيت خلاء. ثم نزل بها ماجكس من رجالاتهم ووجوه قبائلهم، وبه سميت مجكسة فبناها ورجع إليها الناس وأسلم. وسمع من أهل العلم إلى أن مات فقام بأمره ابنه عصام...**".

327– بعد تقسيم المغرب بين أبناء إدريس بن إدريس كان من نصيب عمر بن إدريس تيكساس وترغة وبلاد صنهاجة وغمارة، واختص القاسم بطنجة وسبتة والبصرة وما إلى ذلك من بلاد غمارة. ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 256.

328– حول هذا الصراع الفاطمي الأموي يمكن الرجوع إلى :
بيصعين عبد الكريم، مرجع سابق، الدكتور الحبيب الجنحاني، دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1986، ص. 155-177، الدكتور أحمد عزاوي، مختصر في تاريخ الغرب الإسلامي، الجزء الأول، طبعة ثانية، مطبعة رَبَانيت، الرباط، 2008، ص.156-180.

329– ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 261.

330– ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 256، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 84.

331– ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 259. وحول هذه الأحداث المرتبطة بالأندلس في فترة ما بعد سقوط الخلافة الأموية في سنة 400هـ/1010م يمكن الرجوع إلى : محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، الطبعة الثالثة، مؤسسة الخانجي، القاهرة، مصر، 1960، ص.558-623.

332– ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 262.

غير أننا لا يمكن التسليم برأي ابن خلدون هذا، خصوصا وأن مصادر أخرى تؤكد على أن هذه المنطقة قد عرفت في كثير من الأحيان ظهور حركات متمردة على المرابطين، كما تميزت بخروجها عن الولاة، وهذا ما أدّى إلى ضرورة تكثيف المراقبة العسكرية على هذه الجهة من خلال بناء مجموعة من الحصون وتعميرها بفرق عسكرية بغاية تطويق المنطقة وتشديد الحراسة على قبائل غمارة[333].

وما يلفت انتباهنا بخصوص المرحلة المرابطية هو صمت المصادر عن ذكر أحداث الثورة والتمرد، باستثناء رواية البيذق[334] التي أشارت إلى قيام انتفاضة على عهد علي بن يوسف، وكذا رواية أخرى لابن عذاري حول ظهور ثورتين على عهد يوسف بن تاشفين وخلفه[335]، ثم انفراد الشطيبي برواية عن ثائر بمدينة سبتة على عهد علي بن يوسف خلال ظهور ثورة المهدي بن تومرت في المغرب الأقصى[336].

فهل يرجع هذا إلى الحضور الأمني والعسكري للمرابطين بالمنطقة ؟ أم أن الفترة لم تعرف ظهور زعامة روحية أو شخصية جذابة تعمل على إثارة حماس قبائل غمارة، واستنفارها من أجل إعلان العصيان والقيام بالثورة والتمرد ضد النظام المرابطي ؟

لا يمكن للمصادر المعتمدة أن تقدم لنا جوابا صريحا على تساؤلاتنا، غير أن المعطيات المتوفرة تؤكد على أن الحضور المرابطي كان قويا ببلاد غمارة[337] مما أدى إلى التقليل من حدة هذه الثورات وعددها.

333– مجهول، الاستبصار، ص. 190، الإدريسي، نزهة المشتاق، ج2، ص. 532.

334– البيذق، أخبار المهدي بن تومرت، ص. 24.

335– ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط. الثانية، 1980، ص. 58، و 74-75.

336– محمد الشطيبي، "مختصر من كتاب الجمان في أخبار الزمان"، مخطوط المكتبة الوطنية، الرباط، رقم D579، وجه الورقة. 147.

337– مجهول، الاستبصار، ص. 190، الإدريسي، نزهة المشتاق، ج2، ص. 528.

ويذكر ابن خلدون أن الفترة الموحدية قد مرت دون حدوث مشاكل في غمارة، ويرجع ذلك إلى اتباعهم الدعوة التومرتية قبل دخول المصامدة مراكش، كما يرجع ذلك إلى مشاركتهم في جيوش عبد المؤمن لمحاربة أهل سبتة، **"وبذلك رعيت لغمارة هذه السابقة سائر أيامهم"**[338].

إلا أننا لا نجد في النصوص الأخرى أثرا لذلك، بل إن المنطقة قد عرفت مجموعة من التمردات، وحاولت الخروج عن سلطة مراكش الموحدية، وواجهتها الدولة بدون رأفة ولا هوادة، كما هو الشأن مع ثورة مرزدغ وسبع بن منخفاد[339].

ساهمت المرحلة الممتدة من بداية الفتح الإسلامي بالمغرب الأقصى إلى قيام دولة المرابطين في تشكيل ذهنية المجتمع الغماري، الذي وصلته تأثيرات الخوارج[340]، وتم فيه ترويج مفاهيم شيعية، نتيجة الصراع الأموي الفاطمي خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي[341]، كما زادت فيه مكانة آل البيت محبة وتقديسا من خلال لجوء الأدارسة إلى بلادهم، واتخاذ بعض أمراء هذه الأسرة لمراكز غمارية قاعدة لممارسة حكمهم[342].

338– ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 262.

339– ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 231-245، البيذق، أخبار المهدي، ص. 86، ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، دار الغرب الإسلامي، لبنان، دار الثقافة البيضاء، الطبعة الأولى، 1985، ص. 95-98، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص. 209-210.

340– لا تمدنا المصادر بمعلومات كافية في هذا الصدد، باستثناء الإشارة إلى كون الكثير من البرابرة من غمارة قد أخذوا بالمذهب الخارجي، دون أن نتعرف عما إذا كان يوجد من بينهم هناك دعاة لهذا الاتجاه المذهبي، ولا عن مدى تجاوب السكان مع هذا المذهب. ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 250.

وحول ثورات الخوارج وتأثيرهم في المجتمع المغربي يمكن الرجوع إلى الدكتور : محمود إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، دار الثقافة، البيضاء، الطبعة الأولى، 1976، ص. 62-81 وص. 275-301.

341– حول نتائج هذا الصراع يمكن الرجوع إلى : بيصعين عبد الكريم، الصراع الفاطمي الأموي بالمغرب الأقصى، مرجع سابق.

342– لعل ما يعبر عن هذا التعاطف بين قبائل بلاد غمارة والأسرة الإدريسية هو موقفهم من ابن أبي العافية عندما حاصر الأدارسة في موقعهم "بحجر النسر" وأراد استئصال وقطع دابرهم حيث ذكر ابن أبي زرع : **"فعذله على ذلك رؤساء المغرب وأكابر أهل دولته، وقالوا له : أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب وتقتلهم أجمعين، هذا شيء لا نوافقك عليه ولا نتركك له"**. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص.84.

فهذه القضايا ستمكننا من فك رموز بعض الثورات والانتفاضات التي شهدتها المنطقة، كما أن البحث عن الموروث الثقافي لهذه القبائل سيساعدنا على الكشف عن جانب من ذهنية المجتمع الغماري خلال الفترة المدروسة.

المبحث الرابع :
غمارة وموروثها الثقافي

تحاملت معظم المصادر على قبائل غمارة، فاتهمتها بالارتداد عن الإسلام[343]، وبالخروج عن الحكام، كما وصفت سكانها بالخيانة وانتشار الفساد في مجتمعهم[344]، هذا بالإضافة إلى تفشي ظاهرة السحر والكهانة بين سكانهم[345].

فقد جاء عند البكري أن حاميم قد تنبأ بجبل منسوب إليه في مجكسة ببلاد غمارة[346]، فتبعه بشر كثير أقروا بنبوتة، كما أن عمة حاميم وأخته

343– نجد هذا الحكم كذلك عند بعض المعاصرين مثل "لويكي" عندما ذكر بأن غمارة قد رفضت تعاليم الإسلام وعارضتها لمدة طويلة حيث استمرت مخلصة للاعتقادات القديمة.
LEWICKI (TADEUSZ) : PROPHETES, DEVINS ET MAGICIENS CHEZ LES BERBERES MEDIEVAUX, in FOLIA ORIENTALIA, Tome. VII, 1965, KRAKOW, 1966.
كما أشار الشيخ عبد الله بن محمد الهبطي في ألفيته إلى انتشار البدع بهذه المنطقة حيث خصص مجموعة من الأبواب في هذا الصدد على مستوى التغيير الذي أحدثه سكانها في مجال الاعتقاد والحج والجهاد وفي أحوال الخاصة والعامة. فلا ندري إن كان الشيخ الهبطي يقصد بهذا التغيير ما حدث بالمنطقة بعد مرحلة الغزو الإيبيري، أم أن الأمر يتعلق بمرحلة سابقة ترجع للعصور الوسطى؟ عبد الله بن محمد الهبطي، كتاب الألفية السنية في تنبيه العامة والخاصة على ما أوقعوا من التغيير في الملة الإسلامية، مخطوط بالخزانة الحسنية، رقم 2808، ص. 2–38. غير أن الملفت للنظر هو أن هذه النظرة التي كوّنتها هذه النصوص حول قبائل غمارة ذكر عكسها موليراس في نهاية القرن 19 حيث أشار إلى أن ما تبقى من قبائل غمارة ظلت تفتخر بتقاليدها وتقوم بهجاء غيرها من القبائل كما هو الحال بالنسبة لقبيلة "بني سميح"، فذكر في هذا السياق لأن غمارة كانت تنتقد هذه القبيلة قائلة في هذا الصدد : **"بني سميح سمحوا في قاعدة غمارة وتبعوا قاعدة الريف، لأن غمارة كلها طالب وشريف وأما بني سميح غير المكحلة... والرديف"**.
MOULIERAS (A), LE MAROC INCONNU, 2ème partie, Paris, 1895, p.338.
344– البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص. 91.
الإدريسي، نزهة المشتاق، ج2، ص.532، مجهول، الاستبصار، ص. 192.
345– مجهول، الاستبصار، ص.192.
346– البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص.100.

مارستا الكهانة والسحر[347]. وظهر عندهم كذلك رجل من السحرة بجبال مجسكة يعرف بأبي كسية حيث كان أهل موضعه يسمعون منه ولا يعصونه، وإذا عصاه أحد أو خالفه «**حوَّل كساه الذي يلتف به، فتصيب ذلك الرجل عاهة لحينه أو جايحة وإن كانوا جماعة أصابهم مثل ذلك**»[348]. وأشار البكري إلى أن لِبَنِي "أبي كسية"[349] وعقبه منزلة ومرتبة وحظوة على غيرهم استمرت إلى القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي إذا ما جاز لنا الأخذ برواية مؤلف الاستبصار[350]. وكان عندهم كذلك شخص يعرف بامرئ "بوحلاوت" في "بني شداد" ببلد غمارة يتنبأ بما قد يحدث للأشخاص من مرض، أو موت، أو ربح، أو خسران[351]. وكان عندهم كذلك قوم يعرفون بالرقادة يتنبأون كذلك بما يمكن أن يحدث في ذلك العام من خصب، أو جذب، أو حرب أو غير ذلك[352]. وروي أن شخصا بمرسى بادس كان قصير القامة مصفر اللون وله قدرة على الإخبار بقرب الماء أو بُعده، فكانت له مكانة متميزة بين السكان فيكرموه ويقدمونه[353].

إن هذه الصورة التي روّج لها البكري عن بلاد غمارة سيتم تكرارها في المصادر اللاحقة، مع إضافة عنصر جديد يرتبط بالموقف الذي اتخذته قبائل هذه المنطقة من السلطة الشرعية، مرابطية وموحدية، وفي هذا السياق نورد

347– البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص.100، فقد ذكر بأن لحاميم "**أخت تسمى دجو وكانت ساحرة كاهنة من أجمل الناس وكانوا يستغيثون إليها في كل حرب وضيق ويزعمون أنهم يجدون نفعها**".

LEWICKI (TADEUSZ), op.cit, p.10.

ويذكر موليراس بأن النساء في نهاية القرن التاسع عشر اتخذن قبر دجو أخت حاميم مكانا للزيارة، وذلك رغبة منهن في أن يصبحن عرَّافات ويمتهن السحر.

MOULIERAS (A), LE MAROC INCONNU, 2ème partie, Paris, 1985, p.346.

348– البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص.101.

349– فالبكري يذكره باسم "ابن كسية"، أما صاحب الاستبصار فيسميه لـ "أبي كسية".

350– البكري، م.س، ص.101، مجهول، الاستبصار، ص.192.

351– البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص.101. *LEWICKI (T), op. cit, p.18.*

حيث يشير هذا الباحث إلى أن طريقة هذا الشخص تُذكِّرُ بما هو سائد عند الشعوب السلافية.

352– البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص. 102.

353– البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص. 102.

النص التالي : "...**وكان يسكنها غمارة إلى أن طهّر الله منهم الأرض وأفنى جمعهم وخرب ديارهم لكثرة ذنوبهم وضعف إسلامهم وكثرة جرأتهم وإصرارهم على الزناء المباح والموارية الدائمة وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق وذلك من الله جزاء الظالمين**"[354].

إن هذا الموروث الثقافي لعب دورا مهما في تكوين ذهنية متميزة في المجتمع الغماري تؤمن بالخوارق والمعجزات، وتنجذب إلى أصحاب الكرامات، ولعل ما ساعدها في ذلك هو أن الذاكرة الغمارية كانت تؤمن بقداسة مجالها، إذ ساد الاعتقاد بأن بلاد غمارة قد شهدت أحداثا ورد ذكرها في القرآن[355]، ويتعلق الأمر بتلك الوقائع المرتبطة بقصة النبي موسى مع العبد الصالح[356] حيث كانوا ينعتون موضعا بـ "ماء الحياة" نظرا لاعتقاد سكان هذه المنطقة أن هناك نسي فتى النبي موسى الحوت[357].

354– الإدريسي، نزهة المشتاق، ج2، ص. 532.

355– سورة الكهف، قرآن كريم، "سورة الكهف"، من الآية 60 إلى الآية 70، محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة الرابعة، ص. 389–390.

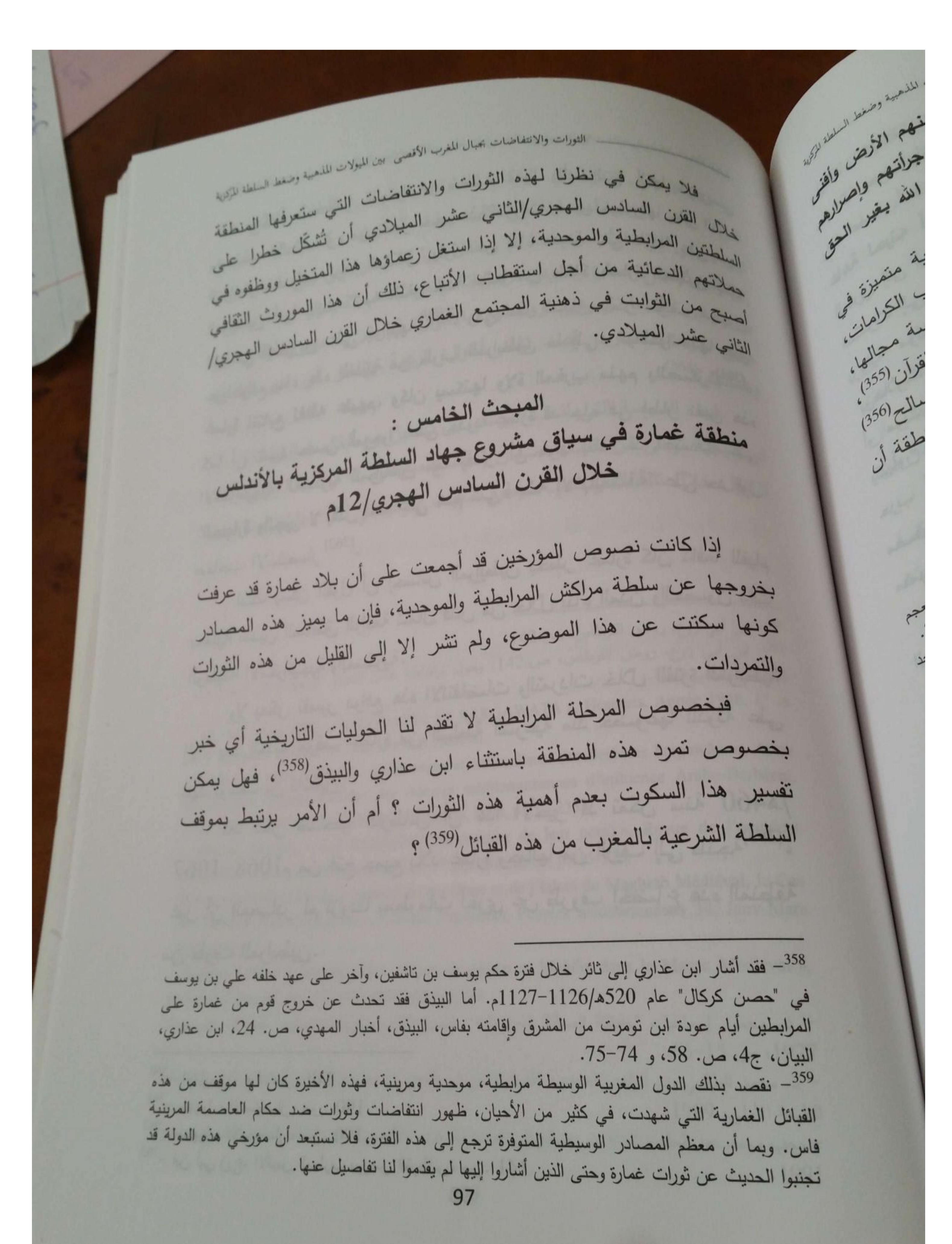
356– والمقصود به هنا "الخضر"، ويبدو في نظرنا أن اعتقاد سكان بلاد غمارة في هذه الرواية هو ما دفع أحد المؤرخين ببلاد الريف للاهتمام والتعريف بجانب من شخصية الخضر.

انظر : البادسي، "المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أحمد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، 1982، ص. 44–48، ونفس الملاحظة تنطبق على المؤلف "أبو محمد عبد الله بن محمد الأوربي"، المتوفى عام 782هـ، في حديثه عن "مناقب أبي يعقوب البادسي" ضمن مجموع، مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 9447، ص. 241، حيث خصص فقرة تحت عنوان : "**رؤية الشيخ رضي الله عنه للخضر عليه السلام**".

وقد ذكر هذا المؤلف مجموعة من الروايات التي يظهر من خلالها مدى التقديس الذي كان يحضى به الخضر عند أهل مدينة بادس، ويبدو أن هذا الموقف لم يقتصر على هذه المدينة فقط بقدر ما كان يُعبّر عن إحساس عام لدى ساكنة شمال المغرب الأقصى المطل على البحر الرومي (البحر المتوسط)، والذي كانت منطقة غمارة خلال الفترة قيد الدرس تحتل جزءا هاما منه. وحول نسب الخضر وما ورد في ذكره من أخبار، يراجع : ابن حجر العسقلاني، الزهر النضر في نبأ الخضر، شرح وتعليق سمير حسين حلبي، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1988، ص. 17–115.

357– البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص. 106، ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق الدكتور مصطفى أبو ضيف أحمد، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1988، ص. 137–138.

ويلاحظ أن كلا من الإدريسي وصاحب الاستبصار، اللذان اعتمدا في سرد أخبار غمارة على البكري، لم يثبتا هذه المسألة، ويرجع السبب في ذلك على ما يبدو في نظرنا إلى موقفهما المعارض لتصرفات الغماريين وتمردهم على الحكام المرابطين والموحدين.



فلا يمكن في نظرنا لهذه الثورات والانتفاضات التي ستعرفها المنطقة خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي أن تُشكّل خطرا على السلطتين المرابطية والموحدية، إلا إذا استغل زعماؤها هذا المتخيل ووظفوه في حملاتهم الدعائية من أجل استقطاب الأتباع، ذلك أن هذا الموروث الثقافي أصبح من الثوابت في ذهنية المجتمع الغماري خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

المبحث الخامس :
منطقة غمارة في سياق مشروع جهاد السلطة المركزية بالأندلس خلال القرن السادس الهجري/12م

إذا كانت نصوص المؤرخين قد أجمعت على أن بلاد غمارة قد عرفت بخروجها عن سلطة مراكش المرابطية والموحدية، فإن ما يميز هذه المصادر كونها سكتت عن هذا الموضوع، ولم تشر إلا إلى القليل من هذه الثورات والتمردات.

فبخصوص المرحلة المرابطية لا تقدم لنا الحوليات التاريخية أي خبر بخصوص تمرد هذه المنطقة باستثناء ابن عذاري والبيذق[358]، فهل يمكن تفسير هذا السكوت بعدم أهمية هذه الثورات ؟ أم أن الأمر يرتبط بموقف السلطة الشرعية بالمغرب من هذه القبائل[359] ؟

358– فقد أشار ابن عذاري إلى ثائر خلال فترة حكم يوسف بن تاشفين، وآخر على عهد خلفه علي بن يوسف في "حصن كركال" عام 520هـ/1126-1127م. أما البيذق فقد تحدث عن خروج قوم من غمارة على المرابطين أيام عودة ابن تومرت من المشرق وإقامته بفاس، البيذق، أخبار المهدي، ص. 24، ابن عذاري، البيان، ج4، ص. 58، و 74-75.

359– نقصد بذلك الدول المغربية الوسيطة مرابطية، موحدية ومرينية، فهذه الأخيرة كان لها موقف من هذه القبائل الغمارية التي شهدت، في كثير من الأحيان، ظهور انتفاضات وثورات ضد حكام العاصمة المرينية فاس. وبما أن معظم المصادر الوسيطية المتوفرة ترجع إلى هذه الفترة، فلا نستبعد أن مؤرخي هذه الدولة قد تجنبوا الحديث عن ثورات غمارة وحتى الذين أشاروا إليها لم يقدموا لنا تفاصيل عنها.

تمكننا المصادر الجغرافية، خاصة منها تلك التي ألفها الإدريسي وصاحب الاستبصار، من تقدير حجم هذه الثورات ومدى خطورتها على الدولة المرابطية، فمؤلف "نزهة المشتاق" يقول عن بناء مدينة "بني تاودا" على عهد المرابطين أنها كانت "**شبه الثغر سدا مانعا من طغاة غمارة العابثين بتلك النواحي المغيرين على جوانبها**"[360]. وفي هذا السياق يذكر مؤلف مجهول عن دوافع بناء هذه المدينة من طرف المرابطين ما يلي: "**ليملكوا منها جبل غمارة لتتابع نفاقه عليهم، وكان يسكنها ولاة المغرب منهم بالعسكر**"[361]، كما أن تشييد حصن "أمرجوا" على حدود غمارة قد جاء في إطار نفس هذه الاستراتيجية العسكرية للمرابطين مما يُفسّر أن مواد بنائه قد اعتمدت على "**الحجارة والجير لا يقدر أحد على هدم شيء منه إلا بالمشقة**" على حد قول صاحب الاستبصار[362].

لذلك يمكن القول أن إحساس المرابطين بخطر غمارة كان دافعا للقيام بعملية تمدين المناطق الواقعة شمال فاس من خلال بناء المدن والحصون ذات الوظيفة الاستراتيجية والعسكرية.

ولا يمكن تفسير دوافع هذه الانتفاضات والتمردات خلال الفترة المرابطية إلا بعد تحديد موقف غمارة من السلطة الشرعية منذ خضوعها للدولة على عهد يوسف بن تاشفين.

فقد ذكر صاحب القرطاس أن هذا الأخير قد تمكن سنة 460هـ/ 1067-1068م من فتح جميع بلاد غمارة وجبالها من الريف إلى طنجة[363]، غير أن المصادر لم تزودنا بمعلومات أخرى عن ظروف إخضاع هذه المنطقة من طرف المرابطين.

360- الإدريسي، ج1، ص. 249.

361- مجهول، الاستبصار، ص. 190.

362- مجهول، الاستبصار، ص. 190.

363- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص. 141.

ويبدو في تقديرنا أن الحكام اللمتونيين حاولوا استقطاب أشياخ هذه القبائل حتى يتسنى لهم إخضاع كل جهات المغرب، وكذا إنجاز مشروع توسعهم في بلاد الأندلس. هذا ما يستفاد من كلام ابن أبي زرع عند إشارته إلى قدوم أشياخ غمارة وغيرهم من زناتة والمصامدة، وتقديمهم البيعة ليوسف بن تاشفين "**فكسا جميعهم ووصلهم بالأموال، ثم خرج معهم ليطوف على جميع جهات المغرب قصد تفقد أحوال الرعية والنظر في سير ولاتهم وعمالهم**"[364].

فهذه السياسة التي اتخذها يوسف بن تاشفين مع قبائل غمارة لم تكن إلا استراتيجية توخى من خلالها ضمان إخضاع منطقة سبتة وطنجة، والتي كانت لا تزال خلال تلك الفترة تحت سيطرة "سكوت البرغواطي"[365]، دليلنا فيما ذهبنا

364– ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.142.

365– ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.142. وحول برغواطة خلال العصر الوسيط يمكن الرجوع إلى المقالات والكتب التالية :

- LIONEL GALAND, « BARQUATES ET BARGAWATA », Hesperis, Année 1948, 1er et 2ème trimestre, Librairie la Rose, Paris, p.204-206.

- Mohamed Talbi, « Hérésie, acculturation et nationalisme des Berbères bargawâta », Actes du premier congrès d'études des cultures méditerranéennes d'influence Arabo-Berbères, Alger, Société Nationale d'édition et diffusion, 1973, p.217-233.

- Mbarek Redjala, « Les BARGHWATA (origine de leur nom) », Revue de l'occident Musulman et de la méditerranées, N°35, 1er semestre, 1983, p.115-125.

Mohamed DERNOUNY, « Aspects de la culture et de l'Islam du Maghreb Médiéval, le Cas de l'Hérésie BERGHWATA », Culture Populaires, Peuples méditerranéens 34, Janv-Mars 1986, p.89-97.

- Halima Ferhat et Hamid Triki, « Faux prophètes et Mahdis dans le Maroc Médiéval », Hespéris Tamuda, vol. XXVII, 1988-1989, p.7-9.

– د. محمود إسماعيل، "حقيقية المسألة البرغواطية"، ضمن كتاب مغربيات، مطبعة فضالة، المحمدية، 1977، ص.15-56.

– د. محمد الطالبي ود. إبراهيم العبيدي، "البرغواطيون في المغرب"، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1999.

– رجب محمد عبد الحليم، "دولة بني صالح في تامسنا بالمغرب الأقصى"، دار الثقافة للنشر والتوزيع، مصر، 1991.

Scanned by CamScanner

إليه أن الأمير المرابطي لم يرد الإقدام على المغامرة بالجهاد بالأندلس إلا بعد أن تمكّن من السيطرة على مدينتي طنجة وسبتة[366].

ويتضح لنا من خلال تحليل معطيات النصوص التاريخية أن التأطير الإداري المرابطي لم يكن يشمل بلاد غمارة، فمن خلال توزيع الولاة والعمال على مختلف جهات المغرب لم تذكر المصادر وجود بلاد غمارة ضمن هذا التقسيم الترابي للدولة المرابطية[367]، فهل يمكن تفسير ذلك برفض هذه القبائل الخضوع للسيطرة المرابطية ؟ أم أن هذه الجهة كانت خاضعة للمجال الإداري لوالي المرابطين بمدينة فاس وأحوازها ؟

ويظهر من خلال بعض الإشارات المصدرية أن المرابطين قد وجدوا صعوبة في ضمان تبعية هذه المنطقة لسلطة الدولة، وهذا ما يفسر محاولة يوسف بن تاشفين لإخضاع هذه الجهة من جديد، فقد ذكر ابن أبي زرع أنه سنة 473هـ/1080-1081م فتح الأمير المرابطي "**مدينة جرسيف ومدينة مليلية وجميع بلاد الريف...**"[368].

إن رفض قبائل جبال غمارة الخضوع لسلطة الدولة المرابطية هو ما فرض على حُكّام المغرب اتخاذ تدابير أمنية لإخضاع هذه المنطقة من خلال تأسيس بعض المدن على حدودها[369]، والتي أكدت المصادر على مدى أهمية دورها العسكري في إجهاض تحركات غمارة[370].

---

[366]– ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.144.

[367]– لقد جاء عند ابن أبي زرع أنه عام 467هـ/1074-1075م فرّق يوسف بن تاشفين عماله على المغرب "**فولا سيري بن أبي بكر مدائن مكناسة وبلاد فازاز. وولا عمر بن سليمان مدينة فاس وأحوازها، وولا داوود بن عائشة سجلماسة ودرعة، وولا ولده تميما مدينتي أغمات ومراكش وبلاد السوس وسائر بلاد المصامدة وبلاد تادلة وبلاد تامسنا**"، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 142.

[368]– ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.143.

[369]– الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص. 249، مجهول، الاستبصار، ص.189.

[370]– البيذق، أخبار المهدي بن تومرت، ص. 24. وحول الأهمية العسكرية لهذه الحصون وغيرها خلال الفترة المرابطية يمكن الرجوع إلى :

LAGARDERE (V), LES ALMORAVIDES JUSQU'AU REGNE DE YUSUF B. TASFEIN (1039-1106), Paris, L'Harmattan, 1989, p.183-186.

ويمكن حصر أسباب ثورات هذه القبائل في رغبتها في الحفاظ على خيراتها الفلاحية، وكذا الاستئثار بمداخيل مراكزها التجارية، فالمصادر رغم معارضتها لموقف هذه القبائل لم يفتها التنويه بمدى الأهمية الاقتصادية لبلاد غمارة[371]. غير أن هجرة قبائل صنهاجة وحلفائها بعد قيام دولة المرابطين قد أدت إلى حرمان غمارة من مناطقها الزراعية[372]، ويرجع سبب ذلك إلى الأسلوب الزجري الذي اتخذته الدولة ضد معارضيها حيث كان المرابطون يتهمونهم بالكفر ويُصْدِرُونَ أحكام الإعدام في حقهم، كما كانوا يقومون بمصادرة أموالهم وممتلكاتهم حيث اعتبروا أن مالَهُمْ غنيمةً وفيئًا، فآلت بذلك أرض غمارة إلى ملكية الدولة المرابطية[373].

كما أن رغبة المرابطين في الاستفادة من خيرات هذه المناطق الفلاحية من جهة، وكذا ضمان جباية الضرائب من هذه البلاد من جهة أخرى، كان دافعا وراء القيام بعملية بناء مجموعة من المراكز الحضرية على حدود غمارة حتى يتم ضمان تحصيل موارد مالية هامة لخزينة الدولة.

فإلى جانب الدور العسكري الذي قامت به هذه الحواضر، وخاصة منها "بني تاودا"، فإن أهميتها تكمن كذلك في اعتبارها مركزا لاستخلاص الضرائب[374]. ورغم أن المصادر تشير إلى اعتماد المرابطين على عهد يوسف

371- انظر ما ذكرناه في المبحث الثاني من هذا الفصل.

372- ذلك أن قبائل لمطة استوطنت الأراضي الزراعية الخصبة المجاورة لبني تاودا القريبة من جبال غمارة. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص.249، وحول هجرة قبائل المرابطين، انظر حسن محمود، قيام دولة المرابطين، مكتبة النهضة المصرية، 1957، ص.215. وقد تحدّث أحد الباحثين عن منطقة غمارة بقوله أنها شهدت حركة هجرة سكانية من جهات مختلفة من جنوب المغرب خاصة من بلاد سوس. المختار الهراس، م.س، ص. 108-109.

373- عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت، الطبعة الأولى، 1983، ص.131.

374- لازلنا نفتقر إلى دراسة دقيقة حول مسألة "الضرائب" بالمغرب الوسيط، ورغم أن الأبحاث التي ظهرت مؤخرا قد حاولت معالجة الموضوع إلا أنها تبقى غير كافية ولعل السبب في ذلك يرجع بالأساس إلى غياب المادة المصدرية التي يمكنها أن تساعد الباحثين في الوقوف على مؤشرات وأرقام مضبوطة على مستوى التقديرات الجبائية وكذا تقدير الوعاء الضريبي بالمغرب الوسيط. غير أنه مع ذلك تبقى هناك بعض الأعمال والأبحاث المؤسسة لدراسة النظام الضريبي بالمغرب الوسيط، ونشير في هذا الصدد إلى: عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي، ص. 163-180، إبراهيم القادري بوتشيش، الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، رسالة دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب مكناس، السنة الجامعية 1990-1991.

بن تاشفين على الضرائب الشرعية[375]، مما يفسر أنها لم تكن مرهقة للسكان، إلا أن تواجد عدد كبير من المراكز الحضرية على حدود بلاد غمارة، ستفرض لا محالة على كل الفئات المستقرة على طول هذه المحاور أداء الواجبات الضريبية سواء كانت شرعية أو غير شرعية. ويظهر أن هذه العملية لم تكن مألوفة لدى سكان غمارة الذين كانوا يعتبرون السهول والمناطق المنبسطة المجاورة "لبني تاودا" مجالا حيويا لهم، ولا يمكن لأي جهة كانت أن تحل محلهم في استغلال مداخيل منطقتهم أو حتى أن تتقاسم معها جزءًا منها من خلال الالتزام الضريبي حتى ولو كان الأمر يتعلق بالسلطة المركزية الحاكمة، كما أن الحضور العسكري المرابطي ببعض حصون بلاد غمارة قد منع قبائل هذه المنطقة من الاستغلال الاقتصادي للمحور التجاري الذي كان يربط سبتة بفاس[376].

يضاف إلى ذلك أن الدور الجديد الذي أصبحت تلعبه بعض مدن الموانئ المجاورة لغمارة كمدينتي قصر مصمودة (قصر المجاز أو القصر الصغير حاليا) وسبتة، اللتين زادت أهميتهما على المستوى الاستراتيجي حيث كانت تنطلق منهما الجيوش المتجهة إلى الأندلس لتنفيذ عمليات الجهاد[377]، قد جعل من المنطقة معسكرا لتجمع الجيوش المرابطية في كثير من الفترات، مما فرض على قبائل غمارة شبه حصار وحرمها من الاستفادة من الأهمية

375– ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 137. فهو يقول عن يوسف بن تاشفين "**لم يوجد في بلد من بلاده ولا في عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس ولا معونة ولا خراج في حاضرة ولا بادية إلا ما أمر الله تعالى به وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة وأخماس غنائم المشركين...**".

376– فبخصوص الأهمية التجارية لمدينة فاس، ذكر الإدريسي أنه "**عليها تشد الركائب وإليها تقصد القوافل ويجلب إلى حضرتها كل غريبة من الثياب والبضائع والأمتعة الحسنة**"، الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص. 246، وحول هذا الطريق التجاري الذي كان يربط سبتة بفاس انظر : البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص. 113-115.

377– فقد سجلت لنا المصادر بخصوص الفترة المرابطية عدة تحركات وتنقلات للجيوش المغربية إلى الأندلس حيث جاز الأمير يوسف بن تاشفين أربع مرات وكذلك الشأن بالنسبة إلى خلفه علي بن يوسف. مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق عبد القادر زمامة وسهيل زكار، دار الرشاد الحديثة، البيضاء، الطبعة الأولى، 1979، ص. 38-87.

التجارية للمدينتين[378]. هذا بالإضافة إلى أن سكان غمارة قد تم إجبارهم على ضرورة القيام بمضاعفة استغلالهم لغابة جبالهم قصد توفير المادة الأولية من الأخشاب لصناعة السفن من أجل توفير الوسائل اللوجيستيكية التي ترتبط بمشاريع الجهاد بالأندلس[379].

إن هذه المستجدات، التي ظهرت مع بداية وجود سلطة مركزية تحكم بلاد المغرب الأقصى وتعطي أهمية لمشروع الجهاد بشبه الجزيرة، قد جعلت قبائل غمارة محاصرة غربا، من خلال الحضور العسكري المرابطي في كل من سبتة وقصر المجاز (قصر مصمودة أو القصر الصغير حاليا)، ومن الجنوب من خلال تواجد الجهاز العسكري المرابطي في حصن "بني تاودا".

وهكذا اضطرت قبائل غمارة إلى اللجوء باتجاه أعالي الجبال حيث قامت ببناء مجموعة من الحصون اتخذتها منطلقا للهجوم على المناطق الفلاحية الغنية بإنتاجها الزراعي، أو من خلال قيامها بعملية السطو على مراكز تجارية كلما سنحت لها الفرصة للقيام بذلك خلال العصر المرابطي والموحدي كما سيتم تفصيله من خلال النماذج التي قدمتها لنا المصادر المغربية الوسيطية.

المبحث السادس :
انتفاضات بلاد غمارة خلال الفترة المرابطية

جاءت ردود فعل الغماريين في فترات مبكرة من قيام الدولة المرابطية، وذلك منذ عهد يوسف بن تاشفين حيث يخبرنا ابن عذاري عن قيام شخص يعرف بـ "ابن الزنز"[380]. غير أن صاحب البيان المغرب لا يحدّثنا عن أسباب ظهور هذا الثائر، ومع ذلك تسمح لنا بعض مؤشرات سياق النص من القول

---

[378]- حول هذه الأهمية التجارية يراجع المبحث الثاني من هذا الفصل.

[379]- يمكن الرجوع بخصوص الدور الاقتصادي لغابات غمارة وأهمية أخشابها من الأرز في صناعة السفن إلى : ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص. 139.

[380]- ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، تحقيق إحسان عباس، ص. 58.

أن قيامه على المرابطين كان من أجل تحقيق أهداف سياسة واضحة. ذلك أنه استند في ثورته على ادعاء أنه ابن معنصر الزناتي[381]، الذي كان "حاكما على مدينة فاس" قبل قيام دولة المرابطين بالمغرب الأقصى، فاللجوء إلى هذا الادعاء كان بمثابة وسيلة لحصول "ابن الزنز" على المشروعية السياسية التي تسمح له بإعلان تمرّده وثورته ضد السلطة الشرعية[382].

وتكمن الأسس المرجعية لهذا الرأي فيما قدّمته لنا النصوص المصدرية من إشارات تفيد بأن ابن معنصر الزناتي قد سبق له أن واجه الجيوش المرابطية التي كانت تريد السيطرة على فاس، حيث ظل "...**يحارب لمتونة إلى أن اشتد عليه الأمر وعظمت الحروب في بعض الوقائع ففقد، فلا يدري ما فعل الله به وذلك في سنة ستين وأربعمائة**"[383]. فهل يمكن القول بأن هذا الزعيم القائم بغمارة، حاول استغلال هذه الرواية في اختفاء "ابن معنصر" قصد استمالة الأتباع من قبائل غمارة وضمهم إلى صفوف حركته ؟

من الصعب الإجابة عن هذا السؤال، نظرا لأن رواية البيان لا تفيدنا بدقة حول العناصر التي شكلت دعامة لثورته، بحيث أن ابن عذاري قد تحدث عن قيامه ببلاد غمارة دون أن يخبرنا عن العصبية المساندة له بشكل واضح[384].

فهل يمكن الحديث عن القيام بمحاولة زناتية للوصل إلى السلطة، وأنها لجأت إلى منطقة جبال غمارة مستغلة في ذلك حصانة موقعها من جهة،

381- حول ابن معنصر الزناتي راجع : ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص. 255، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 112-113.

382- إن الثورة على المرابطين كانت تفرض بالضرورة الاستناد على مشروعية دينية وسياسية، خصوصا وأن هذه الثورة جاءت بعد معركة الزلاقة، التي أخذ فيها يوسف بن تاشفين مشروعية الحكم محليا، من خلال بيعة المغاربة والأندلسيين، وكذا على صعيد العالم الإسلامي بمباركة الخليفة العباسي وفقهاء المسلمين آنذاك ومن أبرزهم الغزالي والطرطوشي، وقد تم إرسال مجموعة من الرسائل في هذا الصدد إلى يوسف بن تاشفين، وقد تم نشرها وتحقيقها بعناية الدكتورة عصمت دندش. د. عصمت دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، 430-515هـ، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1988، ص. 171-217.

383- ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 112-113.

384- ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص. 58.

وتثمر قبائلها، من جراء ضيق مجالها بفعل الاستقرار القبلي اللمتوني على حساب أراضيها الفلاحية من جهة أخرى ؟

فما يمكن قوله اعتمادا على رواية البيان، أن تأييد قبائل غمارة لهذا الثائر كان منذ بداية انتفاضته على سلطة المرابطين، غير أن حدوث المواجهات العسكرية بين الثائر وجماعته من جهة، والجيش المرابطي من جهة أخرى، قد وضع حدا لمساندة قبائل غمارة لهذه الثورة خصوصا بعدما تم اغتيال عدد مهم من أصحابه من طرف الجيش المرابطي[385].

ولعل ما يفسر خطورة هذه الثورة هو استعمال كل الوسائل لإجهاضها واستئصال شأفتها فقد تم استعمال القوة العسكرية، كما لجأت الدولة إلى إغداق الأموال على قبائل غمارة للفتك بالثائر[386]، وقد تجسدت هذه الخطورة كذلك من خلال اهتمام يوسف بن تاشفين باعتباره المسؤول الأول داخل جهاز الدولة بالقضاء عليها وتصفية زعيمها[387].

إن هذه اليقظة والتتبع من طرف القيادة المرابطية هو ما يدفع بنا إلى طرح التساؤل التالي : هل كانت الدولة المرابطية تشك في استمرارية وجود خطر القبائل الزناتية؟ أم أن اندلاع الثورة في بلاد غمارة هو ما كان يشكل خطرا على نظام الدولة ويهدد كيانها السياسي؟

إن كلا الاحتمالين وارد، ذلك أن ابن عذاري يخبرنا أن ثائرا آخر قام بعد ذلك على المرابطين ويعرف بـ "ماخوخ الزناتي" بناحية تلمسان حيث "**اختط بلدا لنفسه فخرج إليه يوسف بن تاشفين، وفر أمامه، وخرج من بلاده**"[388]، وهذا ما يؤكد على أن المسألة الزناتية لم يتم حسمها بعد من طرف الجهاز الحاكم، ومن ثَمَّ تتجلى لنا مدى خطورة ثائر بلاد غمارة على مستوى زعزعة أمن واستقرار الدولة المرابطية.

385– ابن عذاري، البيان، ج4، ص. 58.

386– البيان، ج4، ص. 58.

387– البيان، ج4، ص. 58.

388– ابن عذاري، البيان، ج4، ص. 58.

أما بخصوص التساؤل الثاني، فلا نستبعد مدى تخوف السلطة المرابطية من وجود الثورة في بلاد غمارة، خصوصا إذا علمنا أن قيامها صادف اهتمام الأمير المرابطي بإنجاز مشاريع معمارية في مدينة سبتة، مثل تشييد جامعها الذي زاد فيه حتى أشرف على البحر على حد قول صاحب البيان[389]، كما سبق تأسيس هذا الجامع بناء إحدى أسوار ميناء هذه المدينة[390].

ويمكن القول أن تنفيذ هذه المنجزات المعمارية حتى ولو أنها لم تكن قد قامت باستغلال اليد العاملة الغمارية، فإنها تكون على الأقل قد استغلت أخشاب غاباتها، مما جعل المنطقة تشهد ضغطا كبيرا للجيوش المترددة على جبالها، وهذا من شأنه أن يحدث توترا بالمنطقة ويؤدي إلى ظهور ردود فعل غمارية تجاه السلطة المرابطية تم التعبير عنها من خلال انتفاضة قبائل المنطقة ومساندتها للثائر المعروف "بابن الزنر".

لقد أشعر هذا التمرد أجهزة السلطة المرابطية بمدى أهمية وخطورة منطقة غمارة، والتي تعتبر من الناحية الطبوغرافية مجالا استراتيجيا مساعدا على ظهور حركات التمرد والعصيان ضد الدولة، وهذا ما عَبَّر عنه ابن خلدون في مرحلة لاحقة بقوله "**ولهم بوعورة جبالهم عز ومنعة وجوار لمن لحق بهم من أعياض الملك، ومستأمني الخوارج إلى هذا العهد**"[391]. ونظرا للأهمية الاستراتيجية للمجال الغماري فقد أولى المرابطون عناية كبيرة للتأطير العسكري بهذه المنطقة، سواء في سبتة أو "بني تاودا"، إذ كانت هذه الأخيرة بمثابة قلعة

389- البيان، ج4، ص. 58.

390- البيان، ج4، ص. 58.

391- ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 263. يبدو أن رواية ابن خلدون قد جعلت البعض يطلق حكما عاما على بلاد الريف كما هو الشأن بالنسبة لـ "موليبراس" في أواخر القرن 19 عندما ذكر بأن الريف قد عرف كيف يحافظ على استقلاله منذ ما قبل التاريخ، وأنه لم يخضع لسيطرة مختلف الحكام الذين تعاقبوا على المغرب، كما أنه ذكر بأن منطقة الريف ظلت ملجأ للثوار والمنشقين. وحسب رأينا أن في ذلك مغالطة كبيرة ذلك أن ظهور هذه الانتفاضات والثورات خلال القرن السادس الهجري/12م لا يدل على أن المنطقة لم تكن خاضعة لسلطة مركزية، فمشاركة قبائلها في العمليات الجهادية بالأندلس ضمن الجيش النظامي المرابطي هي من بين أجلى مظاهر هذا الخضوع لسلطة الدولة.

- AUGUSTE MOULIERAS, Le Maroc inconnu, première partie, exploration du Rif, 1895, Librairie Coloniale, Paris, p. 35.

عسكرية للجيوش المرابطية لدرجة أن حاكمها "ينالو" نعته البيذق بسلطان الغرب[392]، وهذا لا يمكن تفسيره إلا بالقوة العسكرية التي كان، على ما يبدو من خلال النصوص التاريخية، يتوفر عليها والتي لعبت دورا كبيرا على مستوى إحباط المحاولات التمردية لقبائل غمارة على عهد الأمير علي بن يوسف كما سنوضحه.

ذلك أن صاحب أخبار المهدي يخبرنا بأنه في الوقت الذي كان فيه "محمد بن تومرت" بفاس قامت في بلاد غمارة ثورة تزعمها بعض أشياخ هذه القبائل[393]، إلا أن هذه الرواية لم تُطلِعنا عن سبب ظهور انتفاضتهم سوى ما ذكرته بخصوص "ينالو" الذي كان يومئذ "**سلطان الغرب، وكان يسكن بني تاودة فخرج في ذلك الوقت ينالو لغمارة، وكان فيهم أقوام مخالفون عليه. فخرج إليهم ينالو وقتل منهم ثلاثة أشياخ: يكساس، وحيان، وسحنون، ثم قتل لجاية وساق رؤوسهم وعلقها في باب السلسلة وأتى بغنائمهم**"[394].

ولا يمكن فهم أسباب هذه الثورة إلا في سياق الأحداث التي كانت تعرفها بلاد المغرب والأندلس خلال تلك الفترة، ذلك أن اندلاعها قد صادف عودة محمد بن تومرت من رحلته المشرقية وقيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[395].

ويبدو من مؤشرات النصوص التاريخية أن أحداث دعوة المهدي بن تومرت، وما جرى له من وقائع مع أهالي المدن والقرى التي زارها أو مر منها قد وصل صداه إلى بلاد غمارة، ذلك أن رواية البيذق الذي كان شاهد عيان على هذه الوقائع لم تتحدث لنا عن اتخاذ أي موقف صارم ضد الفقيه السوسي على الأقل قبل مغادرته مدينة فاس، أي في الفترة التي تزامنت مع نشوب ثورة

---

[392]- البيذق، أخبار المهدي، ص. 24.

[393]- البيذق، أخبار المهدي، ص. 24.

[394]- البيذق، أخبار المهدي، ص. 24.

[395]- حول هذه العودة إلى بلاد المغرب الأقصى وإلى حدود مغادرة المهدي لمراكش انظر: البيذق، أخبار المهدي، ص. 20-29، كما يمكن الرجوع إلى الفصل الأول من مؤلفنا هذا.

غمارة المذكورة أعلاه[396]. ويظهر أن قبائل غمارة قد استغلت ظرفية انشغال المسؤولين في دولة المرابطين بأحداث تواجد المهدي بن تومرت وأصحابه بفاس، وما وقع له مع تجار الآلات الموسيقية حيث خلق جوا من الفوضى داخل هذه المدينة التي كانت تتميز بدورها التجاري الهام[397]، فقامت هذه القبائل بالثورة ضد المرابطين.

كما ساهمت الحملات العسكرية المتكررة إلى الأندلس في استفزاز ساكنة غمارة مما دفع بها إلى القيام بهذه الثورة، التي اندلعت بعد الجواز الثالث للأمير علي بن يوسف بن تاشفين في فترة لا تقل عن إحدى عشرة سنة من 500هـ إلى 511هـ/1106-1118م[398]. ولا غرو فإن هذه الحملات العسكرية قد كانت تثقل كاهل قبائل غمارة وتُكَلِّفُهم الشيء الكثير مما دفع الدولة إلى الزيادة في عدد أنواع الضرائب وكذا الرفع من قيمتها حسب ما انتهى إليه أحد الدارسين[399]. ولعل ذلك هو ما يفسر لنا سبب قيادة أشياخ القبائل لهذه الثورة التي قامت كرد فعل ضد محاولة تقليص النفوذ الاقتصادي لهذه الزعامات القبلية، خصوصا إذا ما علمنا أن هؤلاء القادة كانوا يتمتعون بنفوذ سياسي واقتصادي داخل المجتمع الغماري[400].

وتتمثل خطورة هذه الثورة في استعمال العنف في مواجهتها من خلال تنفيذ حكم الإعدام في حق ثلاثة أشياخ وتعليق رؤوسهم في إحدى أبواب فاس[401]، ولا يمكن تفسير هذا الإجراء الزجري إلا بمدى خطورة هذه الثورة

396- انظر حول موقف السلطة من أعمال ابن تومرت إلى ما تطرقنا إليه في الفصل الأول من هذا الكتاب. فعندما احتج تجار الآلات الموسيقية على ما قام به ابن تومرت وأصحابه من تكسير الدفوف وغيرها من الآلات الموسيقية، قال لهم قاضي المدينة "ابن معيشة" **"لولا ما رأى في السّنة ما كسرها ومزقها، مروا فإنكم مخالفون للحق..."**. البيذق، أخبار المهدي، ص. 24.

397- حول هذه الأحداث يمكن الرجوع إلى : البيذق، أخبار المهدي، ص. 23-24.

398- مجهول، الحلل الموشية، ص. 85-87، ابن عذاري، البيان، ج4، ص. 64.

399- عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي، ص. 165-166.

400- دليلنا في ذلك أن الجيوش المرابطية استطاعت الحصول على غنائم خلال هذه الحملة التأديبية، وهذا يفسر في الوقت ذاته بأن الرغبة في الحصول على موارد لخزينة الدولة كان هاجسا كذلك وراء القيام بهذا التحرك المرابطي إلى بلاد غمارة. البيذق، أخبار المهدي، ص. 24.

401- البيذق، أخبار المهدي، ص. 24.

التي انتشرت داخل أوساط قبلية متعددة ببلاد غمارة، دليلنا فيما ذهبنا إليه هو مساهمة ثلاثة أشياخ في تأطير هذه الانتفاضة. فهل يمكن تفسير هذا التعدد على مستوى القيادة بتصدع داخل المجتمع القبلي لغمارة ؟ أم أن الأمر كان يتعلق بغياب الاتفاق أو بالأحرى الإجماع حول زعامة موحدة لقيادة الثورة؟

لقد أثارتنا مسألة أساسية في سياق تحليل ومناقشة وقائع هذا التمرد ويتعلق الأمر بقرار الإعدام الذي لجأ إليه القائد العسكري المرابطي "ينالو" دون استشارة الأمير علي بن يوسف، وهذا بخلاف ما وقع في الثورة السابقة على عهد يوسف بن تاشفين وما سيحدث لاحقا مع ثائر ريف سبتة عام 520هـ/1126م، ذلك أن الأمير المرابطي علي بن يوسف كان يتم اللجوء إليه للحسم في قضايا أقل من تنفيذ أحكام الإعدام[402]، فهل كان "ينالو" يتمتع بسلطة واسعة تُمَكِّنُه من تطبيق قرار الاغتيال؟ أم أن الأمر لم يكن يتعلق سوى بحالة استثناء نظرا لخطورة الثورة التي استدعت التعجيل بالقتل قبل انتشارها في مناطق واسعة من شمال المغرب الأقصى ؟

رغم أن المصادر لا تقدم لنا معلومات حول حدود سلطة هذا القائد العسكري المرابطي، إلا أن الصورة التي كَوَّنها حوله البيذق كانت جد معبرة عندما نعته "بسلطان الغرب"، مما يدل على أن "ينالو" كانت له فعلا سلطة واسعة، كما أن إجراء تنفيذ الإعدام وتعليق الرؤوس في إحدى أبواب فاس كان تعبيرا عن مدى حضور أجهزة الدولة وهيبتها، والتي حاول أن يطعن في شرعيتها محمد بن تومرت من خلال نشاطه داخل حواضر المغرب الأقصى وفاس خاصة كما أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول من هذا الكتاب.

402- ذلك ما حدث لرجالات الدولة المرابطية عندما تقدّموا باستشاراتهم للحاكم المرابطي علي بن يوسف ليتخذ موقفا من قضية محمد بن تومرت أثناء تواجده بمراكش كما رأينا ذلك في الفصل الأول من هذا الكتاب، ونفس المسألة بخصوص تغريب المعاهدين النصارى بالأندلس بعد ثورة غرناطة عام 519هـ. انظر في هذا الصدد كتابنا : محمد العمراني، حواضر الأندلس بين الانتفاضة والثورة خلال العصر المرابطي، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2006، ص. 39-44.

وإذا كانت الانتفاضة الغمارية الأولى قد اعتمدت في قيامها على زعامة قبلية حاولت أن تجذب إليها الناس من خلال إظهار قدرتها على الاختفاء والظهور في الوقت المناسب[403]، فإن الثورة الثانية قد سجلت تحولا آخر على مستوى قيادتها التي تزعمها هذه المرة شيوخ من غمارة كما أنه لم تنفرد بتدبيرها زعامة واحدة، فكانت بذلك هذه الحركة الثورية بمثابة مؤشر على قيام انتفاضات أخرى بالمنطقة كما هو الشأن بالنسبة لثورة عام 520هـ/1126م بحصن "كركال" كما سيأتي تفصيلها.

يذكر ابن عذاري أحداث هذه الثورة اعتمادا على رواية ابن حمادة الذي ذكر أن رجلا قام في حصن "كركال" بريف سبتة، مُدَّعيا بأنه الخضر[404]. وقد جاء ظهور هذا الثائر في منطقة غمارة في سياق ظروف صعبة سياسيا على المرابطين، ذلك أنه بالإضافة إلى استفحال خطر الحركة التومرتية[405]، كانت هناك بعض الوقائع المرتبطة بالمشاكل الأندلسية خاصة بعد اندلاع ثورة قرطبة عام 514هـ/1120-1121م[406]، هذه الأخيرة اضطرت الأمير علي بن يوسف للعبور إلى العدوة الأندلسية للحد من هيجان قرطبة[407]. ويتضح أن هذه الأحداث بشبه الجزيرة قد شاع خبرها بمنطقة جبال غمارة باعتبارها كانت مَعْبَرًا مهما للجيوس المرابطية إلى الأندلس، فكانت بذلك قبائل غمارة على بيِّنة بخصوص انشغال الجيوش أو عدم انشغالها بمواجهة انتفاضة أو تمرد ما،

403- نقصد بذلك ادعاء "ابن الزنر" على أنه ابن معنصر الزناتي، مما يجعله شخصا متميزا داخل هذا المجتمع الغماري الذي ذكرت لنا المصادر مدى ثقته في أصحاب الخوارق والكرامات. فالقدرة على الاختفاء لمدة ثلاثين سنة تقريبا بين دخول المرابطين فاس وقيام ثورة "ابن الزنر" ليظهر من جديد، مما يجعل من هذا الثائر شخصا غير عادي. وبذلك يكون هذا الظهور من جديد لهذا الثائر المدعي أنه ابن معاصر الزناتي بمثابة حدث غريب لسكان قبائل غمارة مما دفعهم لمساندة ثورته لأنه رأوا في زعيمها ما يميز شخصيته عن باقي الأشخاص العاديين فاتبعوا بذلك حركته الثورية. وحول ذهنية هذا المجتمع الغماري يمكن الرجوع إلى المبحث الرابع من هذا الفصل تحت عنوان : غمارة وموروثها الثقافي.

404- ابن عذاري، البيان، ج4، ص. 74-75.

405- يذكر ابن عذاري أنه في سنة 520هـ/1126م، **"تواترت أخبار المهدي بمراكش وطاعت له الجبال كلها"**. ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص. 75.

406- الحلل الموشية، ص. 86-87، وحول المزيد من التفاصيل حول هذه الثورة يمكن الرجوع إلى كتابنا السابق الذكر: حواضر الأندلس بين الانتفاضة والثورة خلال العصر المرابطي، م س، ص.16-24.

407- الحلل الموشية، ص. 86-87.

ويبقى لاختيار ثائر كركال للثورة على المرابطين في هذا الظرف بالذات له ما يبرره. ففي هذه الفترة قامت الدولة بإصلاحات في مجال سياستها الضريبية تمثّلت في الرفع من قيمتها وذلك بعدما فشلت في تحويل الملكية الخاصة إلى ملكية الدولة، فكانت هذه الأخيرة في حاجة ماسّة إلى موارد مالية جديدة لخزينتها من أجل مواجهة التحركات العسكرية النصرانية[408].

كما أنه قبيل اندلاع هذه الثورة وقع تواطؤ بين النصارى المعاهدين في غرناطة وبين ابن رذمير النصراني من أجل تسهيل مأمورية دخوله المدينة، غير أن انكشاف أمرهم هو ما دفع بالأمير "علي بن يوسف" أن يتخذ في حقهم قرار الطرد والجلاء عن الأندلس عملا بمشورة الفقيه الأندلسي ابن رشد الجد[409].

لقد كان لهذه الأحداث وقعها في بلاد غمارة، خاصة بالمناطق المجاورة لسبتة، والتي كانت على علم بكل هذه التطورات، فتَحَيَّنَت الفرصة للخروج عن السلطة المرابطية. لذلك كان ظهور ثورة غمارة مرتبطا بتأييد لزعيم ادعى أنه الخضر، فهذا الادعاء كان له ما يبرره نظرا لأبعاد دلالته على مستوى استمرارية حركة هذا الثائر من جهة، كما استطاع من خلاله ثائر "كركال" كذلك أن يضمن التحاق المزيد من الأتباع في صفوف حركته الثورية من جهة أخرى.

فبادعاء هذا الشخص بكونه الخضر يكون قد أحيى في ذاكرة الغماريين قصة النبي موسى مع العبد الصالح الواردة في القرآن[410]، ولعل ما سهل على

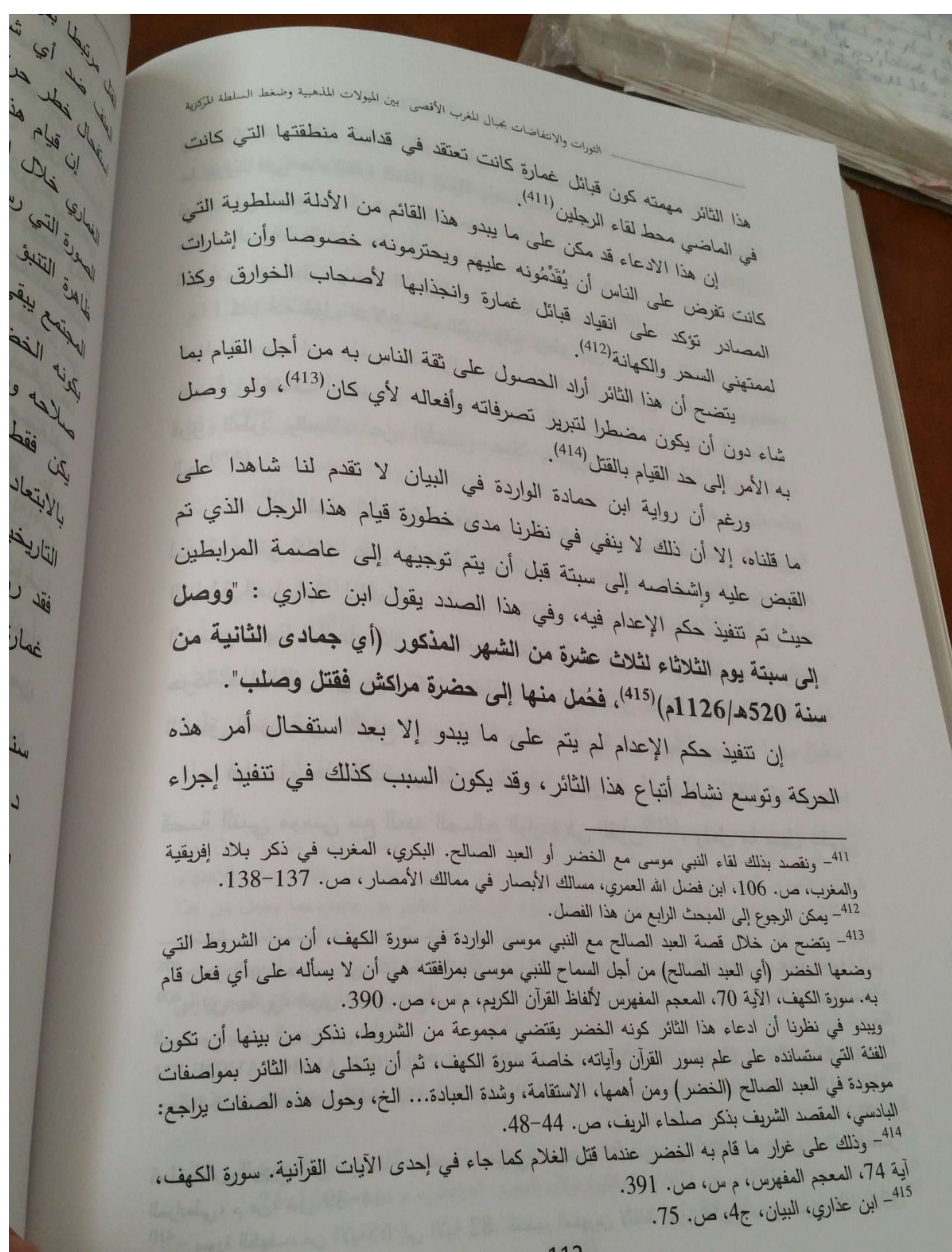
408- عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي، ص. 133-134، و 165-166.

409- ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص. 69-73، مجهول، الحلل الموشية، ص. 91-97. وحول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى دراسة :

LAGARDERE (V), COMMUNAUTES MOZARABES ET POUVOIR ALMORAVIDE EN 519H/1125 en Andalus, studia islamica, LXVII, Paris, 1988, G.P. Maisonneuve et la Rose, *p. 99-119.*

كما يمكن الرجوع إلى دراستنا : محمد العمراني، حواضر الأندلس بين الانتفاضة والثورة خلال العصر المرابطي، م س، ص.39-44.

410- سورة الكهف، من الآية65 إلى الآية 82، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، م س، ص. 390-392.



هذا الثائر مهمته كون قبائل غمارة كانت تعتقد في قداسة منطقتها التي كانت محط لقاء الرجلين(411).

إن هذا الادعاء قد مكن على ما يبدو هذا القائم من الأدلة السلطوية التي كانت تفرض على الناس أن يُقَدِّمُونه عليهم ويحترمونه، خصوصا وأن إشارات المصادر تؤكد على انقياد قبائل غمارة وانجذابها لأصحاب الخوارق وكذا لممتهني السحر والكهانة(412).

يتضح أن هذا الثائر أراد الحصول على ثقة الناس به من أجل القيام بما شاء دون أن يكون مضطرا لتبرير تصرفاته وأفعاله لأي كان(413)، ولو وصل به الأمر إلى حد القيام بالقتل(414).

ورغم أن رواية ابن حمادة الواردة في البيان لا تقدم لنا شاهدا على ما قلناه، إلا أن ذلك لا ينفي في نظرنا مدى خطورة قيام هذا الرجل الذي تم القبض عليه وإشخاصه إلى سبتة قبل أن يتم توجيهه إلى عاصمة المرابطين حيث تم تنفيذ حكم الإعدام فيه، وفي هذا الصدد يقول ابن عذاري : **"ووصل إلى سبتة يوم الثلاثاء لثلاث عشرة من الشهر المذكور (أي جمادى الثانية من سنة 520هـ/1126م)(415)، فحُمل منها إلى حضرة مراكش فقتل وصلب".**

إن تنفيذ حكم الإعدام لم يتم على ما يبدو إلا بعد استفحال أمر هذه الحركة وتوسع نشاط أتباع هذا الثائر، وقد يكون السبب كذلك في تنفيذ إجراء

411- ونقصد بذلك لقاء النبي موسى مع الخضر أو العبد الصالح. البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص. 106، ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص. 137-138.

412- يمكن الرجوع إلى المبحث الرابع من هذا الفصل.

413- يتضح من خلال قصة العبد الصالح مع النبي موسى الواردة في سورة الكهف، أن من الشروط التي وضعها الخضر (أي العبد الصالح) من أجل السماح للنبي موسى بمرافقته هي أن لا يسأله على أي فعل قام به. سورة الكهف، الآية 70، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، م س، ص. 390.

ويبدو في نظرنا أن ادعاء هذا الثائر كونه الخضر يقتضي مجموعة من الشروط، نذكر من بينها أن تكون الفئة التي ستسانده على علم بسور القرآن وآياته، خاصة سورة الكهف، ثم أن يتحلى هذا الثائر بمواصفات موجودة في العبد الصالح (الخضر) ومن أهمها، الاستقامة، وشدة العبادة... الخ، وحول هذه الصفات يراجع: البادسي، المقصد الشريف بذكر صلحاء الريف، ص. 44-48.

414- وذلك على غرار ما قام به الخضر عندما قتل الغلام كما جاء في إحدى الآيات القرآنية. سورة الكهف، آية 74، المعجم المفهرس، م س، ص. 391.

415- ابن عذاري، البيان، ج4، ص. 75.

القتل مرتبطا بقرار صادر عن السلطة المركزية المرابطية من أجل استعمال العنف ضد أي شخص أظهر زيغا عن الخط الرسمي للدولة لاسيما بعد استفحال خطر حركة المهدي بن تومرت.

إن قيام هذه الثورة قد كشف لنا عن جانب آخر من طبيعة هذا المجتمع الغماري خلال الفترة المرابطية، فرغم أن أحداثها ووقائعها تضل مرتبطة بتلك الصورة التي رسّختها النصوص التاريخية حول المجتمع الغماري الذي تسود فيه ظاهرة التنبؤ والأحداث الغريبة، إلا أنها وفي الوقت نفسه أكدت لنا أن هذا المجتمع يبقى متمكنا من مضامين النص القرآني. كما أن ادعاء هذا الشخص بكونه الخضر لا يمكن أن يكْسِبَ ثقة الناس فيه إلا بعد أن يثبت عندهم صلاحه وزهده، ولعل هذا هو ما يدفع بنا إلى القول أن المجتمع الغماري لم يكن فقط ذلك المجتمع الذي يعرف انتشار انحلال الأخلاق به، والمتهم بالابتعاد عن تعاليم الإسلام، كما حاولت أن تروّج لذلك مجموعة من المصادر التاريخية، بل يبقى على النقيض من ذلك مجتمعا يحتضن الأولياء والصلحاء، فقد روى لنا "البادسي" سيرة ومناقب مجموعة من الزهاد الذين اختاروا بلاد غمارة محطة لاستقرارهم خلال القرن 6هـ/12م[416].

لم تشر المصادر بعد هذه الثورة إلى أي تحرك غماري آخر إلى حدود سنة537هـ/1142-1143م وما بعدها عندما أعلنت قبائل غمارة دخولها في دعوة الموحدين إبان حملة عبد المؤمن الكبرى لفتح المغرب حيث اتبعوا أمره وشاركوا في جيشه المحارب لسبتة، فذكر ابن خلدون في هذا السياق أنه بذلك كانت لغمارة السابقة التي رُعيت لهم سائر أيام الدولة[417].

وهذا ما يجعلنا نطرح التساؤل التالي: ألم تشهد غمارة أي انتفاضة منذ سنة 520هـ/1126م؟

416- البادسي، المقصد الشريف، ص. 50 وما بعدها.

417- ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 262.

تفيدنا في الإجابة عن هذا التساؤل رواية لمؤلف من جبال غمارة، عاش خلال القرنين 9 و10هـ/15-16م، يذكر فيها وقائع ثورة حدثت بمدينة سبتة خلال عصر علي بن يوسف، وخاصة بعد رجوع ابن رشد الجد إلى الأندلس بعد زيارته لمراكش عندما نصح الأمير علي بن يوسف ببناء سور عاصمة دولته لمواجهة خطر الحركة التومرتية. ونورد تفاصيل هذه الثورة في النص التالي : «**...ولما رجع الإمام ابن رشد إلى الأندلس قام الحاجب بسبتة وكان يتمذهب بمذهب الشيعة فأتاه علي بن يوسف وحاصره وأخذه وقتله أشد قتلة ومهّد المغرب كتمهيد أبيه يوسف...**». فالشطيبي ينفرد بذكر هذه الثورة التي كانت تهدف إلى إحياء المذهب الشيعي بسبتة، ولعل ما يُلفت الانتباه في هذا السياق أن قيام هذه الثورة جاء في وقت متزامن مع قيام ثائر ريف سبتة في كركال. فلا ندري إن كانت لثورة سبتة هاته بزعامة الحاجب من تأثير على قبائل بلاد غمارة؟ أم قد يكون ثائر كركال هو نفسه الحاجب الثائر بسبتة[418]؟

إن كل الظروف كانت مواتية من أجل القيام بالثورة والتمرد، خصوصا بعد انشغال المرابطين بحرب الموحدين وكذا المشاكل التي عرفتها الأندلس، سواء من خلال ظهور بعض الاهتزازات بمدن مثل إشبيلية وقرطبة، أو من خلال الضغط النصراني الذي أخذ يشن غارات متكررة على الحدود الإسلامية[419].

لقد كانت الأوضاع مشجعة على قيام الثورة على المرابطين بهذه المنطقة، غير أن سكوت المصادر لا يمكن تفسيره سوى بالضغط الذي مارسته

418- محمد الشطيبي، "مختصر من كتاب الجمان في أخبار الزمان"، مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط، ضمن مجموع، رقم D579، وجه الورقة. 147.

419- إضافة إلى ذلك حدثت بعض الكوارث الطبيعية كما هو الشأن عام 532هـ/1137-1138م حيث ذكر ابن حمادة "**كان السيل العظيم بطنجة حمل الديار والجدر ومات فيه خلق عظيم من الناس والدواب**". ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، وص. 96. وحول ثورات وانتفاضات مدينتي قرطبة وإشبيلية ما بعد 520هـ/1126م يمكن الرجوع إلى دراستنا المشار إليها سابقا : محمد العمراني، حواضر الأندلس بين الانتفاضة والثورة خلال العصر المرابطي، ص.24-36، ص.47-53.

الدعوة الموحدية التي ألغت جميع التيارات الأخرى ذات البعد المذهبي، أو المرتبطة بأشخاص "كارزماتيين". ذلك أن العمل على إبراز شخصية "محمد بن تومرت"، والتأكيد على عدم تكرار نموذجها[420]، كان دافعا على ما يبدو لعدم التأريخ لانتفاضات وثورات غمارة[421] التي ارتبط قيامها بأشخاص متميزين على مستوى سلوكاتهم أو دعوتهم.

فابن القطان الذي أرخ في الجزء المنشور من كتابه "نظم الجمان" للمرحلة الممتدة من 500هـ إلى 533هـ/1106-1139م، لم يشر إلى ثورة غمارة ضمن أحداث 520هـ/1126-1127م، في حين نجده بالمقابل يعطي أهمية لسرد وقائع الدعوة التومرتية، وما يدور في فلكها، وكأن التاريخ في منظوره هو تاريخ الموحدين وزعيمهم المذهبي "محمد بن تومرت"[422].

كما أن الكتابات المرينية لم تشر هي الأخرى إلى هذه الثورة أو غيرها في منطقة غمارة في الفترة ما قبل قيام الدولة الموحدية باستثناء ما جاء من إشارات عند ابن عذاري في بيانه. ويبدو أن ذلك لا يرتبط بموقف معين من طرف المؤرخين المرينيين تجاه هذه الثورات والانتفاضات، وإنما السبب في ذلك يرجع بالأساس إلى أن النصوص الموحدية لا تُمدُّنا بأخبار ثورات غمارة في زمن انتشار الدعوة التومرتية وتوسُّع النشاط السياسي للحركة الموحدية[423].

420- وحول هذه المسألة راجع : محمد ألوزاد، مشكل الإنسان في فلسفة ابن باجة، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الفلسفة، مرقونة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - أكدال، جامعة محمد الخامس، الرباط، الموسم الجامعي 1991-1992، ص. 45-49، مع الإحالات، ص. 232-233.

421- وإذا ما جاز لنا الأخذ برواية الشطيبي حول ثائر مدينة سبتة، فإنه لا يُستبعد أن تكون المصادر الموحدية قد تعمدت القفز عن ذكر أحداث هذه الثورة الشيعية التي قد تنافس الحركة التومرتية في جانب من مرتكزاتها المذهبية، ونقصد بذلك فكرة المهدوية و"العصمة".

422- ابن القطان، نظم الجمان، تحقيق محمود علي مكي.

423- نستثني من ذلك البيذق الذي تحدث عن ثورة غمارة على عهد "علي بن يوسف" بعد دخول "ابن تومرت" إلى مدينة فاس. البيذق، أخبار المهدي، ص. 24.

المبحث السابع :
ثورات غمارة خلال الفترة الموحدية

تشكل ثورة غمارة على عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف أخطر ثورات هذه المنطقة[424] خلال فترة قوة الدولة الموحدية[425]، بل إن المصادر المعاصرة أو القريبة من الفترة قد أعطت أهمية كبيرة لسرد وقائعها[426].

وأمام توفر المادة المصدرية نسبيا بالمقارنة مع باقي تمردات غمارة، نجد أن هناك بالمقابل تناقض في عرض وقائعها، ذلك أن نصوصا تخبرنا بوجود أكثر من زعيم لهذه الثورة، في حين أن روايات أخرى لا تتحدث سوى عن زعيم واحد لها والمعروف باسم "ابن منخفاد" ولا تخبرنا عن وجود أي زعيم ثاني لهذه الثورة والذي ذكرته نصوص أخرى باسم "مرزدغ الغماري"[427].

فالكتابات الموحدية قد أغفلت الحديث عن "مرزدغ" باستثناء البيذق، الذي أشار إليه في معرض حديثه عن الثائرين والخارجين عن سلطة الموحدين[428]، ثم المراكشي الذي ربط أحداث هذه الثورة بثورة "سبع بن منخفاد"[429]. أما الكتابات المرينية، فينفرد ابن أبي زرع بتقديم بعض

424– هناك عدة مؤشرات تبرز مدى خطورة هذه الثورة، ولعل من أهمها الاستعداد القوي عسكريا من قبل الموحدين لإخمادها، وكذا استمراريتها مدة طويلة من 559هـ/1163م إلى 562هـ/1167م، ثم المشاريع التي قامت بها السلطة الشرعية الموحدية بعد القضاء عليها وقتل زعيمها كما سيتم تفصيله في هذا المبحث.

425– نقصد بها الفترة الممتدة منذ دخول الموحدين مراكش عام 541هـ/1146م وإلى حدود وفاة الخليفة "محمد الناصر" في شعبان عام 610هـ/مارس 1213م. وقد تم تبني هذا المعيار اعتمادا على مدى حضور التواجد العسكري الموحدي في الأندلس، ذلك أن المصادر قد أشارت إلى أن عمليات الجهاد قد تقلصت بشكل كبير في شبه الجزيرة منذ وقعة العقاب عام 609هـ/1212م. ورغم أن هذا التحديد يبقى نسبيا إلا أنه أصبح متعارف عليه –إن لم نقل مُتّفقٌ حوله– بين الباحثين المتخصصين في هذه الفترة من تاريخ المغرب الوسيط.

426– نقصد بذلك ابن صاحب الصلاة الذي كان معاصرا لهذه الأحداث وكذا ابن عذاري الذي رغم أنه جاء في فترة لاحقة خلال العصر المريني إلا أنه اعتمد في نقل أخبار هذه الثورة على ما جاء به صاحب المن بالإمامة. ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، من ص. 231-245، ابن عذاري في البيان، قسم الموحدين، ص. 95-97.

427– فصاحب المن بالإمامة المعاصر لأحداث هذه الثورة لم يخبرنا بأي شيء عن زعيمها الأول "مرزدغ".

428– البيذق، أخبار المهدي، ص. 86.

429– عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص. 365، لم يسلم من هذا الخلط كذلك باحث معاصر عندما جعل أحداث قيام هذه الثورة في سنة 573هـ/1181م. عبد الرحمان الطيبي، المجتمع بمنطقة الريف قبل الحماية، رسالة دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، مرقونة، 1992-1993، ج1، ص. 54، عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2007، ص.36.

المعلومات عن ثائر غمارة الذي قال عنه بأنه غماري صنهاجي من صنهاجة مفتاح[430]، بينما ذكرت الكتابات المشرقية وقائع ثورة غمارة هاته لكنها أعطت زعامتها لشخص آخر هو "مفتاح بن عمر"[431]، غير أن ما يمكن أن يلاحظ على هذه الرواية أنها اختلطت عليها وقائع هذه الثورة، بقيادة مرزدغ، مع ثورة خلفه سبع بن منخنفاد[432].

فبماذا يمكن تفسير سكوت المصادر الموحدية تقريبا عن ذكر وقائع هذه الثورة، أو الاكتفاء بتقديم معلومات غير كافية وأحيانا غامضة عن هذا الثائر؟

لا تسعفنا الإشارات القليلة في المصادر للحسم في الإجابة عن هذا التساؤل، إلا أن الأمر يرجع في تقديرنا إلى خطورة هذه الثورة التي شكّلت قبائل غمارة دعامة أساسية لها[433]، فتغييب أحداث هذه الثورة من بعض المصنفات التاريخية، الاقتصار على ذكر أخبار زعيمها بشكل مقتضب في مصادر أخرى، لا يمكن تفسيره في نظرنا سوى بمدى حدة هذه الثورة وعنفها، الشيء الذي جعل أحد مؤرخي الدولة المؤمنية والمكلفين بالدعاية لها، من خلال مشروع كتابته التاريخية، أن يقوم بتقزيم شخصية هذا الثائر من خلال توظيفه لصيغة التصغير حيث سمّاه "مزيزدغ"[434].

430- ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 209.

431- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص. 90، النويري، نهاية الأرب، ص. 431.

432- في الوقت الذي تشير فيه معظم المصادر أن تحرك الخليفة "يوسف بن عبد المؤمن" لم يتم إلا في حدود سنة 562هـ/1167م لإجهاض ثورة غمارة بزعامة سبع بن منخفاد، فإن كلا من ابن الأثير ثم النويري، الذي نقل عنه، أشارا إلى أن الخليفة "يوسف بن عبد المؤمن" قد توجه مع أخيه عمر وعثمان عام 561هـ/1165-1166م لمواجهة الثورة، هذا في وقت يتحدث فيه صاحب روض القرطاس عن رواية أخرى يذكر فيها بأن القضاء على ثورة مرزدغ قد وقع بعد إرسال جيش من طرف الخليفة لكن دون أن يخبرنا بأنه كان تحت قيادته. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص. 90، النويري، نهاية الأرب، ص. 431، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 209-210.

433- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص. 90، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 209.

434- البيذق، أخبار المهدي، ص. 86.

كما تتجلى خطورة هذه الثورة في كون صاحبها قام بعملية سكّ العملة باسمه وكتب فيها "**مرزدغ الغريب نصر الله قريب**"[435]، ذلك أن عملية ضرب السكة يعتبر خطوة مهمة نحو استقلال بلاد غمارة عن السلطة الشرعية الموحدية، كما أنها تمثل مظهرا من مظاهر انفراد "مرزدغ" بالسلطة، فهل يمكن القول أن هذا الثائر كان يفكر في مشروع قيام دولة ؟

لا تكشف المصادر عن دوافع قيام هذه الثورة غير أن استقراء الظروف العامة خلال فترة اندلاعها تمكننا من الوقوف على بعض الأسباب.

فقد ساهمت الأوضاع العامة بالمغرب في قيام هذه الانتفاضة حيث جاءت في مرحلة انتقالية ما بين وفاة الخليفة "عبد المؤمن" ومبايعة ابنه "يوسف" على رأس جهاز الدولة الموحدية، فكأن غمارة بزعامة "مرزدغ" قد حاولت استغلال ظروف وفاة الخليفة عبد المؤمن لتعلن عن قيام ثورتها[436]، ولعل ذلك هو ما عبَّرت عنه الرواية المشرقية، خاصة منها ما جاء به صاحب الكامل، عندما ذكر أنه إثر تحقق الناس من موت عبد المؤمن ثارت قبائل

435- ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 209. هذا في الوقت الذي لم يقم فيه بعد الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بتركيز نفوذه وسلطته، ذلك ما نستنتجه من خلال العملة الأولى التي أصدرها الخليفة المذكور باسمه والتي لا يظهر من خلال الكلمات المنقوشة عليها ما يفيد تركيز هذه السلطة حيث تم الاقتصار على ذكر : الأمير الأجل أبو يعقوب يوسف بن أمير المؤمنين، وقد تم العثور على نموذج لهذه العملة تم سكها بمدينة بجاية التي اعترفت بسلطته عام 559هـ/1163م.
LA VOIX (Henri), CATALOGUE DES MONNAIES MUSULMANES DE LA BIBLIOTHEQUE NATIONALE, Paris, p. 300.

436- جاء لنا ابن صاحب الصلاة بنص في غاية الأهمية حول استعدادات الخليفة عبد المؤمن للقيام بحملة جهادية إلى الأندلس منذ سنة 557هـ/1161-1162م، فقد انبهر هذا المؤرخ بما توفر من أسلحة وخيول وملابس للجيوش الموحدية وغيرها من العرب وغيرهم، وكذا ما تمت صناعته من سفن أغلبها تم في مرسى المعمورة (المهدية الحالية بالقرب من القنيطرة) إضافة إلى ما تمّ جمعه من القمح للجيش، وكذا الشعير كعلف للدواب والماشية حيث توفرت كمية هامة من ذلك حتى قال عنها صاحب المن بالإمامة أنها كانت كأمثال الجبال. غير أن وفاة الخليفة عبد المؤمن حالت دون تنفيذ هذه الحملة الجهادية إلى الأندلس، بل إن ذلك لم يسمح باستغلال ما تم تجميعه من حبوب والتي أصابها التلف وفسدت لبقائها مدة طويلة امتدت منذ سنة 557هـ/1161-1162م وإلى حدود سنة 562هـ/1166-1167م.
ألا يمكن القول بأن قبائل غمارة قد ساهمت في الاستعدادات التي تحدث عنها هذا المصدر، خاصة فيما يتعلق بصناعة السفن، أو على مستوى المساهمة في تجميع تلك الكمية الهائلة من الحبوب؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل يمكن اعتبار قيام غمارة بالثورة قد جاء كرد فعل عن هذا الاستغلال؟ أم أن الأمر لم يكن يتعلق سوى برغبة قبائل غمارة في الهجوم على محلات تخزين هذه الحبوب وغيرها من خيول وأمتعة والسطو عليها؟ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 147-148.

غمارة[437]. ولعل ما شجعهم على تنفيذ خطتهم هو تأكدهم من انشغال الجيوش الموحدية بحرب ابن مردنيش، أو بالأحرى الإعداد لها بالأندلس[438]، كما أن تيقنهم من فقدان بعض الحصون والمراكز الحضرية المتاخمة للحدود الغمارية لوظائفها العسكرية كان دافعا قويا لقبائل غمارة من أجل القيام بالثورة ضد النظام السياسي الموحدي.

فتفيدنا إشارات الجغرافيين بأن "بني تاودا" تم تخريبها إثر الصراع والحروب العسكرية التي دارت بين المرابطين والموحدين قبل سيطرة الموحدين على العاصمة مراكش وحصولهم على السلطة السياسية بالمغرب الأقصى[439]، غير أن خصوبة الأراضي الفلاحية بمنطقة "بني تاودا" وكذا أهمية المناطق الزراعية المجاورة لها، هي ما أدت إلى إعادة تعميرها من جديد، إلا أن عدد السكان على ما يبدو من بعض الإشارات المصدرية كان غير كاف لجعلها تعرف ضغطا بشريا كبيرا خلال هذه الفترة[440].

إن غياب التأطير العسكري جنوب بلاد غمارة، كان من بين العوامل الاستراتيجية التي ساعدت هذه القبائل على القيام بانتفاضتها ضد السلطة المركزية الموحدية، فكيف انتهت وقائع وأحداث هذه الثورة ؟

لقد انتشرت هذه الثورة في جهات مختلفة وساهمت فيها تجمعات قبلية متباينة من غمارة وصنهاجة وأوربة[441]، وكانت هذه المجموعات القبلية تتحرك في مجال جغرافي واسع، كما أن هذا التعدد يجعلنا من الصعب القول بأن هناك قيادة ثورية موحدة، إلا أن المصادر لا تشير في مرحلة أولى إلا إلى وجود زعيم واحد هو مرزدغ الغماري الذي نظم وأصحابه حملات عسكرية

437– ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص. 90.

438– ابن صاحب الصلاة، "المن بالإمامة"، ص. 198-200.

439– الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص. 249.

440– فقد تحدث الإدريسي في هذا الصدد عن تعميرها من قبل مائة رجل اهتموا بزراعة أرضها نظرا لخصوبة تربة المناطق المجاورة لها. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص. 249.

441– ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 209.

متعددة على مدينة "بني تاودا" حيث أثخن فيها قتلا وسبيا[442]. ويُفسِّر الهجوم على هذه المنطقة دور العامل الاقتصادي في ظهور حركة عصيان هذه القبائل ضد السلطة المركزية الموحدية، خاصة إذا علمنا بمدى أهمية "بني تاودا" والمناطق المجاورة لها على المستوى الفلاحي ودورها في مراقبة محاور التجارة الآتية من مدينة فاس وإليها[443]، وذلك قصد الاستفادة من مداخيلها خصوصا وأن قبائل أوربة المجاورة لهذه المدينة قد شكّلت جانبا من العصبية المؤيدة لهذا الثائر والمساندة لحركته[444].

لقد تطلب الموقف من المسؤولين الموحدين ضرورة الإسراع بإجهاض محاولة الغماريين هذه وذلك من خلال اللجوء إلى عملية الاغتيال حيث بعث الخليفة يوسف جيشا من الموحدين تمكن من قتل زعيم الثورة "مرزدغ" كما تم إرسال رأسه إلى مراكش[445].

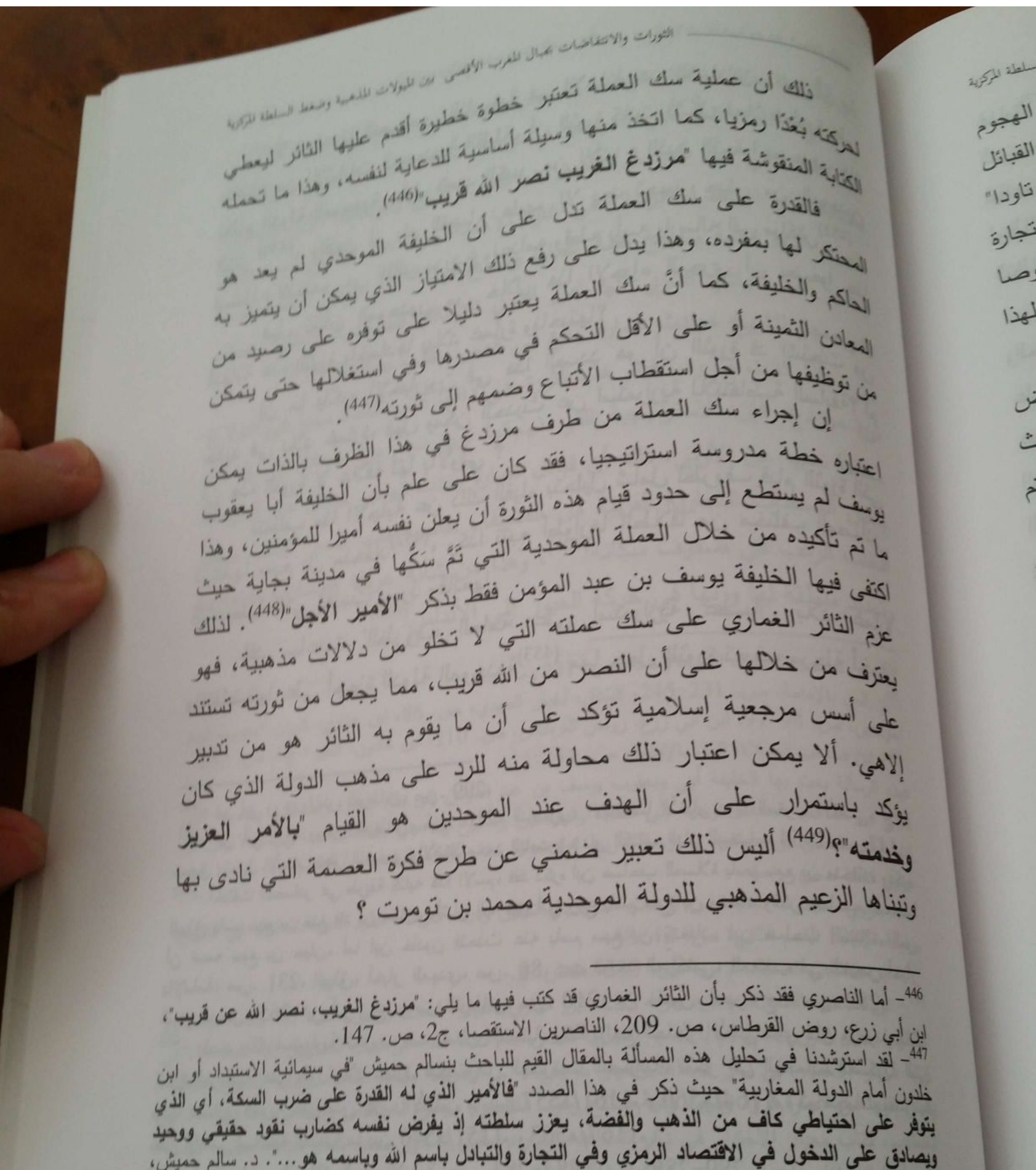
هكذا يتضح سبب قلة الأخبار والمعلومات عن أحداث الثورة التي قادها "مرزدغ" في الكتابات التاريخية المغربية الوسيطية، فالمسألة لم تكن تنحصر في وجود تمرد على الجهاز الحاكم فقط، بل إن النزعة الاستقلالية التي طبعت هذه الثورة، والتي تم التعبير عنها بسك العملة، هي ما دفع بالمسؤولين في الدولة إلى وضع مسألة إخمادها والقضاء على زعيمها ضمن أولويات برامجهم السياسية والعسكرية.

442– ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 210. في حين ذكر الناصري أن ذلك تم في مدينة تازا، ويبدو أن صاحب الاستقصا قد وقع له خلط في ذلك خصوصا وأن مصدرا جغرافيا قد سبق وأن ربط العلاقة بين مدينة بني تاودا وبلاد غمارة، الناصري، الإستقصا، ج2، ص. 147، مجهول، الاستبصار، ص. 190.
وقد ذكر ابن أبي زرع بخصوص قيام "مرزدغ" "**أنه قتل الخلق الكثير في مدينة "بني تاودا"**"، إلا أننا لا يمكن الأخذ كليا بهذه الرواية خصوصا أن المدينة تم تدميرها بالكامل في فترات سابقة، كما أنها كانت أثناء اندلاع هذه الثورة لا تزال في المراحل الأولى من إعادة تعميرها.

443– وحول الأهمية التجارية لمدينة فاس خلال هذه الفترة يراجع: الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص. 246.

444– ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 209.

445– روض القرطاس، ص. 210. غير أن البيذق يروي لنا قصة أخرى حيث يشير في هذا الصدد إلى أن : "**مزيزدغ الغماري القائم في واكرارن، خرج إليه يوسف بن سليمان وبدد شمله، ثم وحّد وأجيز إلى بر الأندلس إلى قرطبة**". البيذق، أخبار المهدي، ص. 86.



ذلك أن عملية سك العملة تعتبر خطوة خطيرة أقدم عليها الثائر ليعطي لحركته بُعدًا رمزيا، كما اتخذ منها وسيلة أساسية للدعاية لنفسه، وهذا ما تحمله الكتابة المنقوشة فيها **"مرزدغ الغريب نصر الله قريب"**(446).

فالقدرة على سك العملة تدل على أن الخليفة الموحدي لم يعد هو المحتكر لها بمفرده، وهذا يدل على رفع ذلك الامتياز الذي يمكن أن يتميز به الحاكم والخليفة، كما أنّ سك العملة يعتبر دليلا على توفره على رصيد من المعادن الثمينة أو على الأقل التحكم في مصدرها وفي استغلالها حتى يتمكن من توظيفها من أجل استقطاب الأتباع وضمهم إلى ثورته(447).

إن إجراء سك العملة من طرف مرزدغ في هذا الظرف بالذات يمكن اعتباره خطة مدروسة استراتيجيا، فقد كان على علم بأن الخليفة أبا يعقوب يوسف لم يستطع إلى حدود قيام هذه الثورة أن يعلن نفسه أميرا للمؤمنين، وهذا ما تم تأكيده من خلال العملة الموحدية التي تمَّ سَكُّها في مدينة بجاية حيث اكتفى فيها الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فقط بذكر **"الأمير الأجل"**(448). لذلك عزم الثائر الغماري على سك عملته التي لا تخلو من دلالات مذهبية، فهو يعترف من خلالها على أن النصر من الله قريب، مما يجعل من ثورته تستند على أسس مرجعية إسلامية تؤكد على أن ما يقوم به الثائر هو من تدبير إلاهي. ألا يمكن اعتبار ذلك محاولة منه للرد على مذهب الدولة الذي كان يؤكد باستمرار على أن الهدف عند الموحدين هو القيام **"بالأمر العزيز وخدمته"**؟(449) أليس ذلك تعبير ضمني عن طرح فكرة العصمة التي نادى بها وتبناها الزعيم المذهبي للدولة الموحدية محمد بن تومرت ؟

446- أما الناصري فقد ذكر بأن الثائر الغماري قد كتب فيها ما يلي: **"مرزدغ الغريب، نصر الله عن قريب"**، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 209، الناصري، الاستقصا، ج2، ص. 147.

447- لقد استرشدنا في تحليل هذه المسألة بالمقال القيم للباحث بنسالم حميش "في سيمائية الاستبداد أو ابن خلدون أمام الدولة المغاربية" حيث ذكر في هذا الصدد **"فالأمير الذي له القدرة على ضرب السكة، أي الذي يتوفر على احتياطي كاف من الذهب والفضة، يعزز سلطته إذ يفرض نفسه كضارب نقود حقيقي ووحيد ويصادق على الدخول في الاقتصاد الرمزي وفي التجارة والتبادل باسم الله وباسمه هو...**". د. سالم حميش، في سيميائية الاستبداد، أو ابن خلدون أمام الدولة المغاربية، ضمن كتاب جدلية الدولة والمجتمع بالمغرب، إفريقيا الشرق، 1992، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ص. 179.

448- LAVOIX (Henri), CATALOGUE DE MONNAIES ..., op.cit, p. 300.

449- انظر مثلا ما جاء في رسالة للخليفة أبي يعقوب يوسف أوردها ابن صاحب الصلاة، م س، ص. 292.

لا تساعدنا النصوص التاريخية في الإجابة عن التساؤلين، غير أن ما يتضح من الإشارات المصدرية القليلة، أن الثورة كانت تُشَكِّل فعلا خطورة على نظام الدولة الموحدية بدليل العدد الكبير من الأتباع الذين التحقوا بصفوف هذا الثائر[450]، والذين لم يتم القضاء عليهم إلا بعد تجهيز جيش من الموحدين استطاع التخلص من الثائر مرزدغ وإعدامه وقطع رأسه وإرساله إلى مراكش[451].

فهل تَمَكَّن الموحدون من خلال هذا الإجراء الزجري أن يضعوا حدا لنهاية هذه الثورة وإخمادها ببلاد غمارة وناحيتها؟

إن ما يذكره الإخباريون في هذا الصدد هو أن الثورة قد اشتعلت من جديد في بلاد غمارة، فهل يمكن الحديث عن استمرارية للانتفاضة السابقة؟ أم أن هذه الثورة لا علاقة لها بالأولى ؟

تتطلب منا الإجابة عن ذلك القيام بتحليل شامل لظروف قيام الثورة التي تزعمها سبع بن منخفاد[452]، وكذا تتبع أطوارها انطلاقا من مختلف المصادر الوسيطية التي اهتمت بسرد وقائعها.

لقد ساعدت الظروف العامة على استمرارية عصيان بلاد غمارة وانتفاضتها على أجهزة الدولة الموحدية[453] مما جعل الثورة تعرف مرحلة أخرى

450– ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 209.

451– ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 210، الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2، تحقيق وتعليق الأستاذ جعفر الناصري والأستاذ محمد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء، 1954، ص.147.

452– اختلفت المصادر في طريقة كتابه هذا الاسم، فقد ذكره ابن صاحب الصلاة باسم سبع بن منخفاد، وذكره البيذق باسم سبع بن منغ فاد بن حيان، وأشار إليه ابن أبي زرع باسم سبع بن منغفاد وذكر صاحب المعجب أن اسمه سبع بن حيان، أما ابن خلدون فتحدّث عنه باسم سبع بن منغفاد. ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 231، البيذق، أخبار المهدي، ص. 86، عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص. 365، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 210، ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 282.

453– نقصد بذلك استمرارية الحروب ضد نصارى إسبانيا، وكذا تراجع الحاجز الأمني الذي كان موجودا خلال الفترة المرابطية على طول بلاد غمارة. فبخصوص الهجومات النصرانية، نشير إلى الهجمات العسكرية التي شنها نصارى قلمرية على مدن غرب الأندلس ما بين 557هـ/1161م و560هـ/1164م، ثم هجمات نصرانية على أراضي إسلامية أندلسية ما بين 546هـ/1151م و563هـ/1167م.

انظر، ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 283–284، وص. 288–289. وحول مزيد من التفاصيل حول حروب الأندلس من الجانبين النصراني والموحدي خلال فترة حكم الخليفة يوسف بن عبد المؤمن، يمكن الرجوع إلى كتابنا. محمد العمراني، الموحدون والأندلس في زمن المعارك والحروب، نادية للنشر، الرباط، 2015، ص. 40–102.

من أطوارها وذلك بانتقال الزعامة لشخص يعرف باسم "سبع بن منخفاد"(454).

وإذا كانت المصادر الموحدية والمرينية قد تحدثت عن هذه الثورة(455)، فإن عمادنا في هذه الدراسة سيكون هو كتاب "المن بالإمامة" لابن صاحب الصلاة الذي احتفظ لنا برسالة في غاية الأهمية حول هذه الوقائع حيث يقول عنها : "**أنها كافية بتاريخ فتنة غمارة والفتح فيها**"(456)، ويشير بخصوصها الدكتور عبد الهادي التازي أنها "**من أطول الرسائل الموحدية وأدقها وصفا، وهي سجل لتاريخ حوادث غمارة، تقع في خمس عشرة صفحة**" (457).

وإذا كانت ظروف قيام هذه الثورة هي ذاتها التي كانت سببا في اندلاع ثورة مرزدغ، فإن الاستراتيجية التي نهجتها ثورة سبع بن منخفاد قد جاءت مختلفة نسبيا عن الأولى. ذلك أن قبائل غمارة أخذت تهاجم خلال هذه المرحلة بعض المحطات التجارية القريبة من المنطقة، خاصة منها قصر كتامة حيث أدخلت الرعب في صفوف سكانه(458)، وهذا من شأنه عرقلة المشاريع التجارية وتهديد منطقة لها وزنها في حركة العبور إلى الأندلس(459).

454- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 231 وما بعدها.

455- المن بالإمامة، ص. 231-245، البيذق، أخبار المهدي، ص. 86، ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص. 94-97، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 210، ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 282.

456- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 244.

فهذه الرسالة بعث بها الخليفة أبي ويعقوب يوسف بن عبد المؤمن إلى بلاد العدوة والأندلس، والنسخة التي قدمها ابن صاحب الصلاة موجهة إلى الطلبة والموحدين والشيوخ والأعيان والكافة بمدينة غرناطة، وهي من إنشاء أبي الحسن بن عياش، ومؤرخة بتاريخ 14 شوال سنة 562هـ/3 غشت 1167م، وقد أوردها أحمد عزاوي كذلك ضمن دراسته.

أحمد عزاوي، مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية، تحقيق ودراسة، رسالة دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، مرقونة، 1985 القسم الثاني، ص. 42-48.

457- ابن صاحب الصلاة، م س، ص. 233، هامش. 2.

458- ابن صاحب الصلاة، م س، ص. 232، ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص. 95. وقد اعترف ابن الخطيب خلال القرن 8هـ/14م بالأهمية التجارية لقصر كتامة كما أكد على تسلل الغماريين إليه حيث جاء في كتابه معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ما يلي : "**... وطريقه مسلك القافلة، وببابه السوق الحافلة، ينسل إليها من غمارة قرود وفهود وأمة صالح وهود، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود...**". ابن الخطيب، كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق الدكتور محمد كمال شبانة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، دون تاريخ، ص. 149-150.

459- حول أهمية قصر كتامة خلال هذه الفترة، انظر البيان، قسم الموحدين، ص. 44، مجهول، الاستبصار، ص. 189، حيث يشير هذا الجغرافي إلى أن الموحدين أحدثوا فيه "**فندقين عجبين، وتمدن هذا الوضع، وشرف وقصده التجار واستوطنوه**".

إن إغراء السكان بإمكانية السيطرة على منافذ التجارة الصحراوية المارة عبر المراكز القريبة من غمارة، ومحاولة ربطها بالموانئ المطلة على البحر الرومي (البحر المتوسط)[460] كانت على ما يبدو من بين الأساليب التي وظفها زعيم ثورة غمارة من أجل جرّ الأتباع واستنفارهم للالتحاق بصفوف الثورة خصوصا وأن مجال تواجد قبائل غمارة قد تقلص بفعل تحركات قبلية من جنوب المغرب منذ وصول المرابطين إلى السلطة[461]، فلا شك أن قبائل غمارة قد وجدت في هذه الثورة وسيلة لتحقيق آمالها في تجاوز الحصار الاقتصادي الذي عانت منه منذ خضوعها للسلطة المركزية على عهد يوسف بن تاشفين المرابطي، كما أن رغبة القبائل في الاستفادة من مناطق فلاحية من خلال الحصول على الماشية والدواب، قد ساعدت دون شك الثائر "سبع بن منخفاد" على جر الأتباع واستقطاب الأنصار المؤيدين لحركته الثورية[462]، ومن أجل الوقوف على خطورة هذه الثورة سنقوم بتحليل وقائعها انطلاقا من الرسالة المشار إليها أعلاه.

تظهر خطورة هذه الثورة ومدى أهمية القضاء عليها بالنسبة للسلطة المركزية الموحدية من خلال ظروف وتاريخ كتابة الرسالة التي وجهها الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى غرناطة، فالخليفة لم ينتظر وصوله إلى العاصمة مراكش لكي يخبر بوقائع الثورة، بل إنه فضَّل إرسالها من ساحة وقوعها بجبل

---

[460]– حول أهمية هذه الطرق التجارية التي كانت تعبر المجال الغماري خلال الفترة المدروسة يمكن الرجوع إلى:
MASSIGNON (Louis), LE MAROC, TABLEAU GEOGRAPHIQUE, ALGER, 1906, p.108-109.

[461]– انظر المبحث الخامس من هذا الفصل بعنوان منطقة غمارة في سياق مشروع جهاد السلطة المركزية بالأندلس خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، كما يشير أحد الباحثين بأن أهل غمارة يسود عندهم اعتقاد بأن بلادهم قد عرفت احتلالا في القديم من طرف سكان أهل سوس.
COLIN (G.S), LE PARLER BERBER DES GMARA, in Hesperis, 1929, 1ère Trimestre, p.46-47.

[462]– لا تكشف لنا النصوص التاريخية لا تكشف عن ذلك بشكل صريح غير أننا نستنتج من خلال الإشارات المصدرية عن حجم وأنواع الغنائم التي حصل عليها الموحدون يتضح بأنها شملت الأبقار والأغنام والدواب لذلك لا نستبعد أن تكون مما حصل عليه ابن منخفاد في حملاته على المناطق المجاورة. ابن صاحب الصلاة، م س، ص. 244.

الكواكب(463). وهذا يعكس لنا بشكل واضح مدى الأهمية الاستراتيجية للمجال الذي تحركت فيه وقائع الثورة بالنسبة للدولة الموحدية. ذلك أن المجال الطبيعي والبيئي لتحرك قبائل غمارة كان يرتبط بعملية الجهاد بالأندلس، فمن أجل تحقيق وإنجاز هذا المشروع العسكري الموحدي بشبه الجزيرة الإيبيرية كان لا بد من القضاء على قبائل غمارة باعتبارها، "**المختصة بملكة جبل الكواكب، المشهور بالمنعة، ووعورة مسالكه**"(464)، خصوصا بعدما استحكم فيهم الفساد، وتَمَكّن منهم الارتداد على حد قول الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في رسالته إلى أهل غرناطة(465).

إن المسألة في نظرنا لا تتعلق بمواجهة انتفاضة عادية، فهي بمثابة تمرد قبلي شمل قبائل متعددة من غمارة وصنهاجة، وكانت الزعامة للأولى في شخص سبع بن منخفاد، وإذا كانت المصادر لا تقدم لنا معلومات كافية عن هذا الثائر، إلا أنها تعترف له بالزعامة والقيادة كما يفهم من إشارتها إلى أنه كان ينتمي إلى أسرة لها وزنها داخل المجتمع الغماري، ويتجلى ذلك من خلال الحديث عن الوفد الذي ناب عن غمارة أثناء المفاوضات السلمية مع الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في جبال غمارة حيث تم الإعلان أثناءها عن وقف المعارك بين الطرفين، كما تعهد هذا الوفد بالحضور بجميع القبائل إلى "**المحلات الموحدية في عيد الفطر**"(466). وقد ظهر من خلال هذا اللقاء الرسمي أن أخ الثائر سبع بن منخفاد ويُعرف باسم "عمران بن منحفاد" كان

463- تحدث مولييراس عن هذا الجبل وذكره باسم جبل تزاران "Djebel TAZARAN"، وقال عنه بأنه "**جبل المنظر الجميل**" كما ذكر بأنه يُسمّى "**جبل الكواكب**"، لأن قممه تبدو وكأنها تلامس النجوم، وأضاف مولييراس في هذا الصدد قائلا بأن بعض المغاربة كانوا ينطقون إسم هذا الجبل بتيزيران "TIZIRAN".

MOULIERAS, LE MAROC INCONNU, 2ème partie, p. 347.

464- لقد اعتبر أحد الدارسين أن وعورة ومناعة هذا الجبل كانت من بين العوامل التي أدت إلى استمرارية اللسان البربري في غمارة الحالية.

COLIN (G.S), LE PARLER BERBER DES GMARA, in Hesperis, 1929, 1ère Trimestre, p.50.

465- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 238، أحمد عزاوي، مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية، القسم الثاني، ص. 45.

466- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 239.

حاضرا ضمن أعضاء هذا الوفد الممثل لقبائل غمارة في هذه المفاوضات مع الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن[467]، فالاعتراف الرسمي بذكر اسم هذه الأسرة دليل على مكانتها المتميزة داخل المجتمع الغماري.

فالثورة قد حركتها أهداف قبلية ترتبط بالدفاع عن المصالح الحيوية للمجال الغماري، معتمدة على مناعة طبوغرافيتها من جهة، وتأطير زعيمها سبع بن منخفاد من جهة أخرى، فهل يمكن تحديد تاريخ قيام هذه الثورة ؟

إذا ما اعتمدنا على معطيات الرسالة الرسمية يظهر بأن تاريخ بداية هذه الثورة يكون قد بدأ قبل سنة 562هـ/1167م، نظرا لأن التفكير في مواجهتها لم يتم فعليا إلا بعد استفحال خطرها: "**فَشَا ضَرُّهُم، وَسَاءَ أَثَرُهُمْ، وَتَعَدَّى أَذَاهُمْ، وَسَرَتْ عَدْوَاهُمْ**"[468]. وهذا ما يجعلنا نستنتج بأن انتفاضة قبائل غمارة، التي انطلقت منذ سنة 559هـ/1163-1164م، قد استمرت رغم مقتل زعيمها مرزدغ الغماري، ولعل ذلك هو ما يفسر الاستعداد القوي للموحدين في مواجهة هذه الثورة "**وَلَمَّا صَدَقَتْ لَهَا العَزَائِمُ وَشُدَّتْ إِلَيْهَا الحَيَازِيمُ، وَوَقَعَ عَلَى قَصْدِهَا التَّعْوِيلُ وَالتَّصْمِيمُ**"[469].

وهكذا فانتفاضة "سبع بن منخفاد" تعتبر مرحلة أخرى من مراحل ثورة غمارة على عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف الموحدي، ولا يمكن التأريخ لبدايتها فقط من سنة 562هـ/1167م.

وإذا كان الأمر كذلك، فما هي الأطراف القبلية التي شَكَّلَتْ دعامة لهذه الثورة في طورها الثاني بهذا المجال الواسع بشمال المغرب الأقصى؟

إن الرسالة الرسمية جاءت واضحة في هذا الصدد عندما أشارت إلى مساهمة قبائل غمارة وصنهاجة، إلا أن ما يلفت النظر في هذا الصدد هو أن الجهاز الإداري الموحدي كان يميز جيدا بين التواجد القبلي الصنهاجي والتواجد

---

[467]- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 239.
[468]- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 235.
[469]- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 235.

القبلي الغماري[470]. هذا على الرغم من كون المصادر التاريخية والجغرافية الوسيطية كانت تُقَدِّمُ لنا مجال تحركهم بشكل غامض كما تم توضيحه في المبحث الأول من هذا الفصل. وكشفت رسالة الخليفة أبي يعقوب يوسف عن مدى خطورة قبائل غمارة مقارنة مع صنهاجة بحيث كانت الأولى على استعداد من أجل نشر ونقل الثورة على نطاق أوسع[471]، لذلك كان عزم الدولة الموحدية قويا وأعطت أهمية كبرى للقضاء على ثورة "سبع بن منخفاد"[472].

وبعد انطلاق الحملة العسكرية الموحدية بجبال غمارة توقفت نسبيا، وقد حاول الخليفة الموحدي تبرير ذلك بدوافع دينية تتمثل في ضرورة التفرغ لممارسة الشعائر والطقوس التي يتطلبها شهر رمضان حيث تم تأجيل العمليات العسكرية ضد قبائل غمارة الثائرة إلى ما بعد عيد الفطر، وفي هذا السياق يتحدث الخليفة يوسف بن عبد المؤمن قائلا : «...**وآثارهم مع ما آثرناه من راحة الموحدين وأجماعهم، وتفرغهم لوظايف صيامهم وقيامهم، وأن يكون غزوهم بعد الفطر على قوة ووفرة، ونشاط متمكن...**»[473]. غير أن واقع المنطقة على ما يبدو كان له تأثير على توقيف المعارك مؤقتا وذلك بحكم صعوبة المسالك، نظرا لوعورة تضاريس المنطقة، كما كان لهذا التوقف في الوقت نفسه بعدا تكتيكيا من أجل ربح الوقت للضغط على قبائل غمارة والتأثير على أتباع الثائر من أجل تغيير موقفهم منه والالتحاق بمعسكر الموحدين وإعلان خضوعهم للنظام السياسي والمذهبي للدولة حيث أعلنت جماعات منهم التوبة والدخول تحت الطاعة. « **وتبدي الفيئة والإياب وتلوذ بأكناف العفو، وتستمسك بأسباب الصفح، وتمديد الضراعة إلى الاستقالة**»[474].

470- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 235.
471- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 235.
472- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 235.
473- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 237.
474- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 237.

إن الإعلان عن الدخول في دعوة الموحدين أثناء ثورة غمارة لا يمكن تفسيره إلا بالخوف الذي كانت تشعر به تلك القبائل، فكان تأييدها لسبع بن منخفاد في بداية الأمر ثقة في قوته وخوفا منه، ثم دخلت في مرحلة ثانية تحت سلطة الموحدين بعدما تيَقَّنت من عزم الجيش الرسمي على استئصال شأفة القبائل الثائرة خصوصا بعد الانتصارات الموحدية الأولى التي حصلوا من خلالها على الغنائم والأموال[475]، غير أن ذلك لا يدل على أن هذه القبائل لم يكن لها أي هدف من وراء انتفاضتها على الموحدين. ذلك أن إمكانية الاستفادة من العمليات العسكرية التي ينظمها سبع بن منخفاد ضد المراكز التجارية والمناطق الفلاحية المجاورة لبلاد غمارة، كما هو الشأن بالنسبة لقصر كتامة[476]، كانت من بين الدوافع التي حفزت هذه القبائل على إعلان الثورة ضد الموحدين.

ولنفس هذه الدوافع والأسباب ستعلن هذه القبائل عن انشقاقها وخروجها عن سلطة زعيمها "سبع بن منخفاد" واستبدال ذلك بتقديم البيعة للخليفة يوسف بن عبد المؤمن والخضوع للموحدين الذين كانوا يقابلونهم "**بعوائد هذا الأمر العزيز من إقالة العثرة، وتجاوز الزلة والسقطة، وتقريب الأسباب المؤدية إلى الاستيلاف، الآخذة بالأيدي بالتلافي عن مقاحم التلاف**"[477]. ولعل الأسباب ذاتها هي التي دفعت بجماعة من الغماريين إلى تسليم زعيمهم، فتم بذلك وضع حد لحركته الثورية والتي انتهت بطريقة مأساوية حيث تم قتله وصلبه[478]. لقد عبّرت رسالة الخليفة أبي يعقوب يوسف عن ذلك بوضوح فجاء ضمنها ما يلي :

«**...فلعناية الله بهذا الأمر العزيز وفق الله تلك البطانة، وأراهم رشدهم**

475- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 237.

476- هو المعروف حاليا بالقصر الكبير ويحمل اسم قصر صنهاجة، وقصر عبد الكريم، ويقول الدكتور عبد الهادي التازي عن سبب تسمية هذا القصر هو أن أحد أشياخ كتامة كان هو أول من قام ببناء قصر هناك. ابن صاحب الصلاة، م س، ص. 232، وكذا هامش، رقم 1. وقد جاءت هذه المعلومات التي تحدث عنها عبد الهادي التازي كذلك عند أحد الجغرافيين خلال القرن السادس الهجري/12م. انظر مجهول، الاستبصار، ص. 189.

477- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 237-238.

478- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 233، 243.

بالتقرب إلى هذا الأمر العزيز، والتفادي منه، والتعدي عن شومه، والانتزاح عن شره، وما تحققوا من سوء عاقبته...»[479].

فإذا كانت الرواية الرسمية قد بوَّأتْ من هؤلاء الذين سَلَّمُوا زعيمهم في مرتبة العقلاء، فلا شك أن الصورة التي احتفظ لهم بها الثائر "سبع بن منخفاد" في ذاكرته قبل أن يُنَفَّذَ فيه حكم الإعدام هي أنهم كانوا عناصر انتهازية وخونة أرادوا الاستفادة من الوضع الجديد الذي ستصبح عليه بلاد غمارة بعدما خضعت بشكل فعلي للسلطة المركزية الموحدية بالمغرب الأقصى[480].

لقد كشفت لنا الرسالة الرسمية بشكل صريح بأن الموحدين لم يسبق لهم أن دخلوا في صراع عسكري حقيقي مع الغماريين، ولا أنهم واجهوا تَمَرُّدًا أو عصيانا في نفس تلك الظروف "**ومقابلة أعداء لا يدري كيف توقيها، ومشاهدة أحوال على الجملة لا عهد بتلقيها، والأعداء يتربصون بهم وقوعهم في مثل هذه الحال...**"[481].

فبعد هذه المواجهات تم تثبيت النفوذ الموحدي في بلاد غمارة بعدما أصبح "جبل الكواكب خاليا"[482]، بصيغة أخرى أنه تمَّ القضاء على أصول الفتنة-من المنظور الرسمي- حيث يشير الخليفة يوسف بن عبد المؤمن في هذا الصدد قائلا: "**وهؤلاء القوم ومن انضاف إليهم ممن وقعت به هذه الواقعة ودارت عليه الدائرة، هم مقدمو غمارة ومستتبعوها، ومغووها ومضلوها، وهم كانوا شوكتها الناكية، وثورتها التازية...**"[483].

وهكذا يتضح بأن الموحدين عندما قاموا بالقضاء سابقا على ثورة "مرزدغ الغماري"، فإن ذلك لم يكن يدل على إخضاعهم للمجال الغماري بأجمعه، بل إن الأمر كان أبعد من ذلك وهو أن بلاد غمارة لم تكن خاضعة بشكل فعلي

---

[479]- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 243.

[480]- "**وسعوا في إحراز دمائهم وأموالهم، وتسويغ برد العافية لهم، وكل من قرع هذا الباب فهو له مفتوح، ومن استمنحه، فهو على عوايده مبذول ممنوح...**". ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 242.

[481]- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 240.

[482]- المن بالإمامة، ص. 241.

[483]- المن بالإمامة، ص. 242.

سياسيا وعسكريا للسلطة المرابطية كذلك، ولعل ذلك هو ما نفهمه من سياق رسالة الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف عندما أشار بأن جبل الكواكب "كان **أبلقهم الفرد، الممتنع على من رامه، المستعصب قديما على من كاده، فقد استفتح ممنوعه، وخلت من الظالمين ربوعه...**"[484].

فقد حاول المرابطون أن يتحكموا في هذا المجال من خلال سلسلة من الحصون التي أقاموها على حدود بلاد غمارة مثل "بني تاودا" كما بينا في بداية هذا الفصل، إلا أنهم لم يحاولوا استئصال الخطر الذي كان يهدّد السلطة المركزية، الشيء الذي جعل هذه القبائل لا تقوم بانتفاضات عنيفة خلال المرحلة المرابطية، وذلك على الرغم من أن الإشارة المصدرية تتحدث عن "**تتابع نفاق غمارة على المرابطين**"[485].

إن استفادة الغماريين بنوع ما من الاستقلال في تسيير مجالهم خلال الفترة المرابطية، واكتفاء أجهزة الدولة المركزية فقط بمراقبة تحركاتهم من خلال حصون "بني تاودا" و"أمرجو"، هو ما أدى إلى عدم ظهور عنف انتفاضات وثورات غمارة بشكل واضح من خلال النصوص التاريخية. هذا إذا علمنا أن تسجيل الوقائع وتأريخ الأحداث لا يتم في معظم الحالات إلا إذا كانت أخبارها لها علاقة بالسلطة الحاكمة، سواء كانت مركزية أو محلية[486]. ولعل ذلك هو ما يفسر الحضور الباهت لوقائع ثورة مرزدغ الغماري في سياق نصوص المصادر المغربية الوسيطية، هذا على الرغم من الخطورة الرمزية التي شكّلتها هذه الثورة، والمتمثلة في إجراء سك العُملة باسم زعيمها كما أشرنا إلى ذلك سابقا.

وعلى العكس من ذلك فإن ثورة "سبع بن منخفاد" قد لمعت في المصادر الموحدية والمرينية على السواء وذلك نظرا لارتباط وقائع إخمادها بالخليفة

484- المن بالإمامة، ص. 242.

485- مجهول، الاستبصار، ص. 190.

486- لعل ذلك هو ما جعلنا نتعرف على وقائع انتفاضة غمارة على عهد علي بن يوسف أثناء وجود ابن تومرت في فاس حيث تزامن هذا الحدث مع تحرُّك الجيش المرابطي بزعامة أبي عمر ينالو لمواجهة ثورة جبال غمارة. انظر حول هذه الثورة ما جاء في المبحث السادس من هذا الفصل.

الموحدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، والذي لم يكن فقط قائدا للجيوش الموحدية التي أجهضت هذه الثورة وتمكّنت من اغتيال زعيمها، بل إن هذا الخليفة الموحدي هو من قام بتدوين أخبار هذه الثورة من خلال الرسالة التي بعث بها إلى جميع المسؤولين ورجالات الدولة بالمغرب والأندلس، فكانت بمثابة وثيقة شاهدة على الحدث مما أدى بأحد الباحثين إلى اعتبارها سجلا لتاريخ حوادث غمارة[487].

وإذا كانت خطورة هذه الثورة لا يجادل فيها أحد، فإن الأمر الذي يجب التأكيد عليه هو أن اهتمام الخليفة الموحدي بها لا يتعلق فقط بمحاولة إخمادها والقضاء على زعيمها لتحقيق الأمن والاستقرار بالمغرب، بل إن ذلك كان يدخل ضمن مشروع سياسي ذو بعد استراتيجي يتجلى في تهدئة منطقة تعتبر محطة ضرورية للعبور إلى الضفة الأخرى من البحر المتوسط ببلاد الأندلس والتي كانت تشكل هي الأخرى امتدادا للمجال السياسي للدولة الموحدية. ولعل ما حملنا على هذا الاستنتاج هو تزامن اندلاع ثورة "سبع بن منخفاد" مع وجود تطلعات لدى الخليفة أبي يعقوب يوسف في القيام بمشاريع جهادية بغرب الأندلس فقد ذكر الخليفة أبو يعقوب يوسف في هذا الصدد ما يلي : «...**ونراه من الأهم الأعنى، والأول الأولى، قياما بحق الله في جهاد أعدائها ومكابري مناويها...**» كما ذكر في موضع آخر « **ورأينا في أثناء ما نحاوله من مروم هذه الغزوة الميمنة المباشر أن نقدم بين أيدينا عسكرا مباركا من الموحدين... يكون تقدمة لجواز جمهور الموحدين ومؤذنا بما عزمنا عليه -والله المستعان- من التحرك بجملة أهل التوحيد والقصد لهذا الغزو الميمون الذي جعلناه نصب العين، وتجاه الخاطر!...**» وذكر كذلك في السياق ذاته : « **وما زلنا وفقكم الله على إتمام العناية بتلكم الجزيرة مهدها الله، والحرص على تموينها، والإنتواء لنصرتها، والعمل على قصد ذلك بالمباشرة والمشاهدة**»[488].

487- د. عبد الهادي التازي، المن بالإمامة، ص. 233، هامش 2.

488- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 293-294. وحول العمليات العسكرية الموحدية بالأندلس على عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن يمكن الرجوع إلى كتابنا : محمد العمراني، الموحدون والأندلس في زمن المعارك والحروب، م.س، ص. 40-102.

وفي سياق هذا المشروع الاستراتيجي للدولة الموحدية المرتبط بالعمليات العسكرية بالأندلس استطاعت هذه الثورة أن تأخذ حيزا هاما من اهتمام المؤرخين، وفي الوقت ذاته فرضت حضورها على المصادر المغربية الوسيطية التي أجمعت على مدى أهميتها وخطورة زعيمها.

ولعل ما يؤكد على درجة خطورة هذه الثورة هي حصيلة نتائجها والإجراءات التي قامت بها أجهزة الدولة الموحدية بعد هذه الوقائع والأحداث، ذلك أن السلطة المركزية لم تكتف فقط بالحصول على الغنائم وإعدام زعيم الثورة، بل قامت كذلك بعملية تمشيط المنطقة وإخلائها من كل تحصينات دفاعية، وفي الوقت نفسه كانت هذه الثورة فرصة مناسبة للجيوش الموحدية كذلك من أجل التمرس على هذه الجهة واكتشاف مسالكها التي ظلت إلى حدود ما قبل اندلاع هذه الثورة مجهولة لديها كما عبَّرت عن ذلك رسالة الخليفة الموحدي ذاتها[489].

وإذا كانت محاولة القضاء على هذه الثورة مرتبطة بمشاريع للخليفة الموحدي، فإن الذي يجب أن لا يغيب عنا هو أن الرغبة في ضمان موارد جديدة لخزينة الدولة كان بدوره حاضرا في هذه الثورة، فلم يعمل الموحدون إلا على إزالة سلطة احتكار قبائل جبل الكواكب للموارد الاقتصادية بمجال غمارة.

فالسلطة المركزية لم تعد مقتنعة فقط بالاكتفاء بفرض الضرائب والعمل على جبايتها من خلال مجموعة من المراكز على طول بلاد غمارة، ولكنها كانت تريد كذلك التمركز بشكل قوي داخل هذا الوسط القبلي من خلال حضور فعلي لأجهزتها الإدارية والسياسية والعسكرية بحيث تم في هذا الإطار تعيين السيد "أبي علي الحسن" أخ الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على ولاية سبتة وسائر بلاد غمارة[490].

489- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 240.

490- ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 283.

كما يتضح لنا كذلك من خلال بعض المعطيات المرتبطة بالغنائم التي حصل عليها الموحدون كما هي واردة في الجدول أسفله مدى رغبة السلطة المركزية في القضاء على ذلك الاحتكار القبلي وإحلال احتكار الدولة محله.

الغنائم	العدد
البقر	12 ألف رأس
الغنم	27300 رأس
الدواب	617 رأس
السبي	3647 فرد

المصدر: ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 244.

ورغم أن هذه الثورة قد شغلت السلطة المركزية قرابة شهر ونصف في مواجهتها، إلا أن نتائجها كانت إيجابية على مستوى ردع مختلف التمردات التي كان بإمكانها أن تنتشر في بلاد المغرب والأندلس، ولعل ذلك هو ما جعل الخليفة أبا يعقوب يوسف يلح في نهاية الرسالة على ضرورة إشاعة الخبر "**وتوفوه واجبه من النشر والإذاعة**"[491]، وذلك "**ليصلح به الفاسد، ويستقيم بها المائل**"[492]، كما يمكن القول أن هذا الانتصار شكّل متنفسا للخليفة أبي يعقوب يوسف الذي تمكّن من فرض سلطته على أجهزة الدولة الموحدية والسادة بني عبد المؤمن من الأسرة الحاكمة ومن تمّ فرض هيبته من خلال التصريح وإعلان إمارة المؤمنين بشكل رسمي وعلني سواء عن طريق سك العُملة أو عبر التصريح بها في المراسلات الرسمية[493].

---

[491]- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 243.

[492]- المن بالإمامة، ص. 244.

[493]- حيث تسمى بأمير المؤمنين منذ 563هـ/1167م، ابن صاحب الصلاة، م س، ص. 258. كما يمكن أن نقارن بين عمليتين الأولى تم ضربها في بجاية والثانية تم سكّها في إشبيلية باسم الخليفة أبي يعقوب يوسف، فالأولى جاء فيها ذكر الأمير الأجل والثانية نُقش فيها اسم أمير المؤمنين.
La Voix (H), CATALOGUE DES MONNAIES MUSULMANES, Paris, p. 300-301.

لقد أعطت ثورة غمارة فرصة للخليفة أبي يعقوب يوسف من أجل تبرير أسباب تأخر تدخُّل الجيش الموحدي للقيام بالجهاد ضد النصارى بالأندلس وفي هذا السياق يتحدث هذا الخليفة الموحدي قائلا : « **فتعترض من أهل هذه المغارب شواغب يثيرها الجهال، ويبعثها النعقة الضلال، فلا يسع إهمالها ولا يسوغ الإضراب عنها، قياما بحق الدين، وتوقيا من استشراء الشر، وتوفر أسباب الفتنة، فينصرف إليها من الالتفات والقصد لحسم عللها وإبراء أدوائها، ما يقشع غياباتها ويظهر اقذاءها، ويفضي إلى المقصود الأول من التفرغ للجزيرة –مهدها الله– والتوطئة لأمرها...»**[494].

وإذا كان الموحدون قد استطاعوا إثبات تبعية بلاد غمارة لسلطتهم من خلال محو أثر الثورة من "جبل الكواكب"، فإن ابن صاحب الصلاة قدَّم لنا مظهرا آخر لهذا الخضوع للدولة الموحدية عندما أشار إلى أنه "**انقطعت فتنة الضلال الجهال، أهل الجبال، وتابوا وأنابوا، ودعوا للجهاد فأجابوا**"[495].

إن مساهمة قبائل غمارة إلى جانب الجيوش الموحدية في عملية الجهاد بالأندلس تم اعتبارها دليلا على هذه التبعية للسلطة المركزية، أفلا يمكن القول في هذا السياق بأن استنفار هذه القبائل للجهاد كان هو أصل الخلاف وسبب من أسباب التمرد والثورة[496] ؟

منذ القضاء على ثورة "سبع بن منخفاد" لم تعرف منطقة غمارة ظهور انتفاضات أو تمردات ضد السلطة الشرعية، فالمصادر لم تحدثنا عن وقوع أي انتفاضة أخرى في هذه الجهة إلى حدود فترة حكم الخليفة محمد الناصر[497] حيث عرفت بلاد غمارة ظهور ثورتين، الأولى منهما كانت سنة 600هـ/1203م والثانية

494– ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 293.

495– المن بالإمامة، ص. 290.

496– خصوصا وأن عملية الجهاد كانت تتطلب مساهمة عدد كبير من الرجال والمشاركة في أوراش بناء السفن وكذا التطوع بجمع الأموال.

497– امتدت فترة حكم هذا الخليفة الموحدي من ربيع الأول من عام 595هـ/يناير 1199م إلى شهر شعبان من سنة 610هـ/دجنبر 1213م.

حدثت عام 610هـ/1213م[498]، ولا نجد أثرا للثورتين معا سوى في الكتابات المرينية خاصة منها روض القرطاس والذخيرة وجنى زهرة الآس.

فصاحب القرطاس لا يخبرنا بأسباب قيام العبيدي عام 600هـ/1203م بجبال ورغة، ذلك أن ابن أبي زرع جاء بهذا الخبر في سياق حديثه عن اكتمال بناء سور مدينة فاس على عهد الخليفة الموحدي محمد الناصر[499]، في حين أن رواية الذخيرة حاولت تسليط الأضواء عن البُعد المذهبي والإيديولوجي في هذه الثورة أكثر من الحديث عن قضايا أخرى، وفي هذا السياق ذكرت أن هذا الثائر ادعى بأنه الفاطمي الذي ينصر الإسلام ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا[500].

فالدعوة في أساسها لشخص كان يعتقد في كونه يملك من القوة ما يُمَكِّنه من تغيير واقع يسود فيه الجور والفساد، مما يفسر لنا بأنه كانت هناك رغبة عند الناس في تجاوز هذا الوضع، ولعل ذلك هو ما يوضح سبب تبعية قبائل جبال غمارة ومساندتها لهذا الثائر [501].

498- غير أن رواية متأخرة أوردها ابن القاضي في جذوة الاقتباس (960هـ-1025هـ) أشارت إلى أن ثورة حدثت مع بداية حكم الخليفة الناصر لم يتم ذكرها في المصادر الوسيطية، الشيء الذي دفعنا إلى التحفظ في ذكرها ضمن أشكال التمرد بمنطقة غمارة وقد اعتمد الناصري في سرد أخبار هذه الثورة على ما جاء به ابن القاضي في جذوة الاقتباس، ثم نقل عنه كذلك مؤرخ آخر خلال القرن 20 وهو أبو عبد الله محمد البزيوي حيث جاء في كتابه "تاريخ دول الإسلام بالمغرب الأقصى" ما يلي : "...**ولما توفي يعقوب بن يوسف بويع بالخلافة على المغرب وإفريقية والأندلس ابنه محمد بن يعقوب، ولقب الناصر لدين الله، وثار عليه لأول ولايته "علو دان الغماري" بجبال غمارة، فسار أمير المؤمنين محمد بن يعقوب إليه وفتح جبال غمارة وأخذها من يد هذا المغتصب ثم رجع إلى مراكش**".

فحسب هذه الرواية لم تتم الإشارة إلى مقتل هذا الثائر، وإنما اكتفت بذكر القضاء على الثورة من خلال استرجاع الخليفة لسلطته على هذه الجبال. فإذا ما جاز لنا الأخذ بمعطيات هذا النص يبدو أن الثورة لم تكن لها خطورة كبيرة رغم أن الخليفة الناصر هو الذي تولى إجهاضها بنفسه، والأمر لا يعدو في نظرنا أن يكون سوى محاولة من هذا الثائر وأتباعه للتملص من أداء الضرائب، فكان قيام "علودان" وسيلة لتحقيق هذه الرغبة. ولعل ما يمكن الاستدلال به من خلال هذا النص هو توظيف مصطلح فتح مما يعني أن المنطقة هيمنت عليها سلطة الدولة من جديد، وأن أداء الضرائب يُعتبر مظهرا من مظاهر هذه الهيمنة والخضوع، كما أن ورود مصطلح "المغتصب" كإشارة للثائر تدل على الرغبة في الاستئثار بمداخيل هذه المنطقة من طرف هذا الثائر وجماعته من قبائل غمارة. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، القسم الأول، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط، 1973، الناصري، الاستقصا، ج2، ص. 214، أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله البزيوي، تاريخ دول الإسلام بالمغرب الأقصى، مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 413، ص. 60.

499- ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 271.

500- ابن أبي زرع، الذخيرة، ص. 38.

501- ابن أبي زرع، الذخيرة، ص. 38.

وحسب رواية الذخيرة أن هذا القائم لم تنحصر دعوته في هذه المناطق فحسب، بل إنها انتشرت في جميع الجهات حيث سانده كثير من قبائل المغرب وبواديه[502]، وكيف ما كانت درجة انتشار دعوة العبيدي إلا أن ما يهمنا في هذا الصدد هو تحديد أسباب انتشارها وكذا العوامل التي أدت إلى تبني مبادئ دعوة زعيمها من طرف قبائل بلاد غمارة.

فالمسألة تتطلب منا الرجوع إلى مختلف النصوص التي تتحدث عن فترة حكم الناصر، والتي أخبرتنا بأن المرحلة عرفت ظهور ثورات وانتفاضات أخرى تزامنت مع قيام ثائر بلاد غمارة، فقد ظهر ثائر في بلاد سوس وجزولة كما هو الشأن مع الثائر عبد الرحمان الجزولي المعروف بأبي قصبة عام 597هـ/1200-1201م[503]، وكذلك قيام انتفاضة بإفريقية[504]. كما تميزت الفترة كذلك بمحاولة القضاء على ما تبقى من المرابطين بالجزائر الشرقية (جزر البليار بالبحر المتوسط بإسبانيا حاليا) حيث تم تتبع فلولهم بإفريقية[505].

هذا ويضاف إلى هذه الاهتزازات السياسية التي عرفتها منطقة المغرب الكبير والتي جعلت الموحدين ينشغلون بمواجهتها عسكريا، ظهور بعض أشكال تجاوزات وأساليب عنف السلطة المحلية في بعض مناطق المغرب الأقصى كما حدث مثلا في مدينة فاس التي ظهرت بها تعسفات من طرف المسؤولين على الضرائب وجبايتها[506].

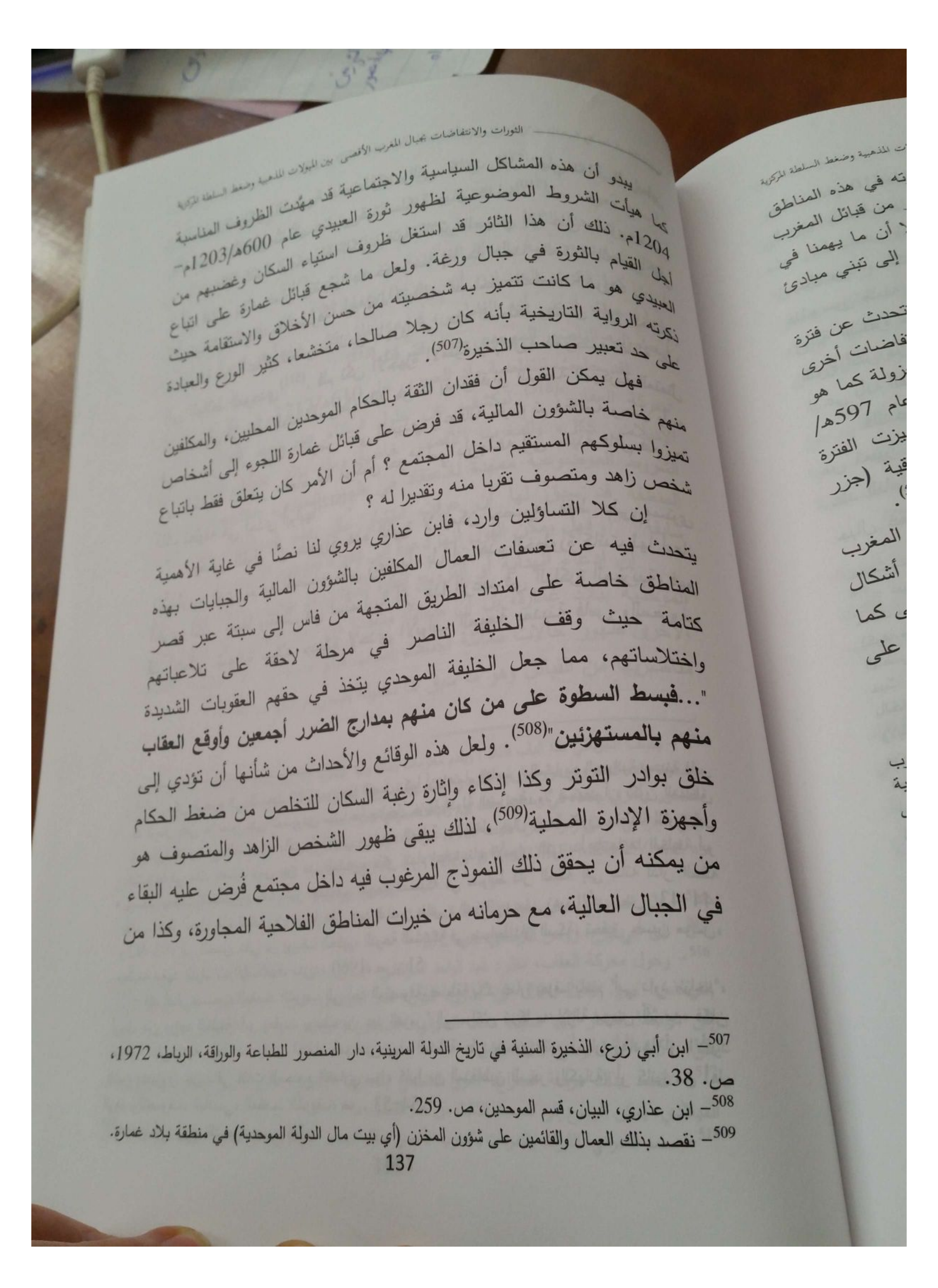
502- الذخيرة، ص. 38. غير أنه في اعتقادنا يصعب الأخذ بهذه الرواية التي جعلت من جميع قبائل المغرب أتباعا لدعوة العبيدي، فلا ندري، من خلال المصادر المتوفرة، كيف يتمكن المؤرخ في تلك المرحلة الوسيطية من قياس درجة تبعية قبائل المغرب كلها لهذا الثائر خصوصا وأن وسائل الاتصال كانت صعبة، إضافة إلى أن فترة قيام هذا الثائر، حسب إشارات الجزنائي وصاحب الذخيرة والقرطاس لم تدم إلا فترة قصيرة، علي الجزنائي، جني زهرة الآس، طبعة الرباط، 1967، ص. 43.

503- ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص. 239، وحول هذه الثورة يمكن الرجوع إلى دراستنا، محمد العمراني، الثورات والتمردات بالمغرب الأقصى، خلال العصر الموحدي، دار نشر المعرفة، الرباط، 2005، ص. 113-119.

504- قامت هذه الانتفاضة عام 599هـ/1203م حيث ذكر صاحب البيان أنه "**وصلت الأنباء بالفتنة المشتعلة بأكثر جهات إفريقية وكثر عن العرب إشاعة المكروه والمجاهرة من السيئات، فأنف الناصر من سماعها وإشاعتها**". ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص. 242.

505- ابن عذاري، البيان، ص. 239-248، عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص. 451-452.

506- يشير ابن عذاري إلى أنه سنة 604هـ/1207م ازدحمت على باب الخليفة قبائل من أقطار مدينة فاس وأخلاط من الناس مشتكين بعامل فاس وبعامل مكناسة فنكبا جميعا واستصفى ما وجد لهما من أحوال وأثاث وأموال وبقي كل منهما محبوسا في بلد عمله. ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص. 249.



يبدو أن هذه المشاكل السياسية والاجتماعية قد مهدت الظروف المناسبة كما هيأت الشروط الموضوعية لظهور ثورة العبيدي عام 600هـ/1203م-1204م. ذلك أن هذا الثائر قد استغل ظروف استياء السكان وغضبهم من اجل القيام بالثورة في جبال ورغة. ولعل ما شجع قبائل غمارة على اتباع العبيدي هو ما كانت تتميز به شخصيته من حسن الأخلاق والاستقامة حيث ذكرته الرواية التاريخية بأنه كان رجلا صالحا، متخشعا، كثير الورع والعبادة على حد تعبير صاحب الذخيرة(507).

فهل يمكن القول أن فقدان الثقة بالحكام الموحدين المحليين، والمكلفين منهم خاصة بالشؤون المالية، قد فرض على قبائل غمارة اللجوء إلى أشخاص تميزوا بسلوكهم المستقيم داخل المجتمع ؟ أم أن الأمر كان يتعلق فقط باتباع شخص زاهد ومتصوف تقربا منه وتقديرا له ؟

إن كلا التساؤلين وارد، فابن عذاري يروي لنا نصًّا في غاية الأهمية يتحدث فيه عن تعسفات العمال المكلفين بالشؤون المالية والجبايات بهذه المناطق خاصة على امتداد الطريق المتجهة من فاس إلى سبتة عبر قصر كتامة حيث وقف الخليفة الناصر في مرحلة لاحقة على تلاعباتهم واختلاساتهم، مما جعل الخليفة الموحدي يتخذ في حقهم العقوبات الشديدة **"...فبسط السطوة على من كان منهم بمدارج الضرر أجمعين وأوقع العقاب منهم بالمستهزئين"**(508). ولعل هذه الوقائع والأحداث من شأنها أن تؤدي إلى خلق بوادر التوتر وكذا إذكاء وإثارة رغبة السكان للتخلص من ضغط الحكام وأجهزة الإدارة المحلية(509)، لذلك يبقى ظهور الشخص الزاهد والمتصوف هو من يمكنه أن يحقق ذلك النموذج المرغوب فيه داخل مجتمع فُرض عليه البقاء في الجبال العالية، مع حرمانه من خيرات المناطق الفلاحية المجاورة، وكذا من

507- ابن أبي زرع، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص. 38.

508- ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص. 259.

509- نقصد بذلك العمال والقائمين على شؤون المخزن (أي بيت مال الدولة الموحدية) في منطقة بلاد غمارة.

مداخيل المراكز التجارية بالمنطقة، والتي كانت قبل قيام دولة المرابطين بالمغرب الأقصى تُشَكِّل عنصر قوة لساكنة جبال غمارة[510].

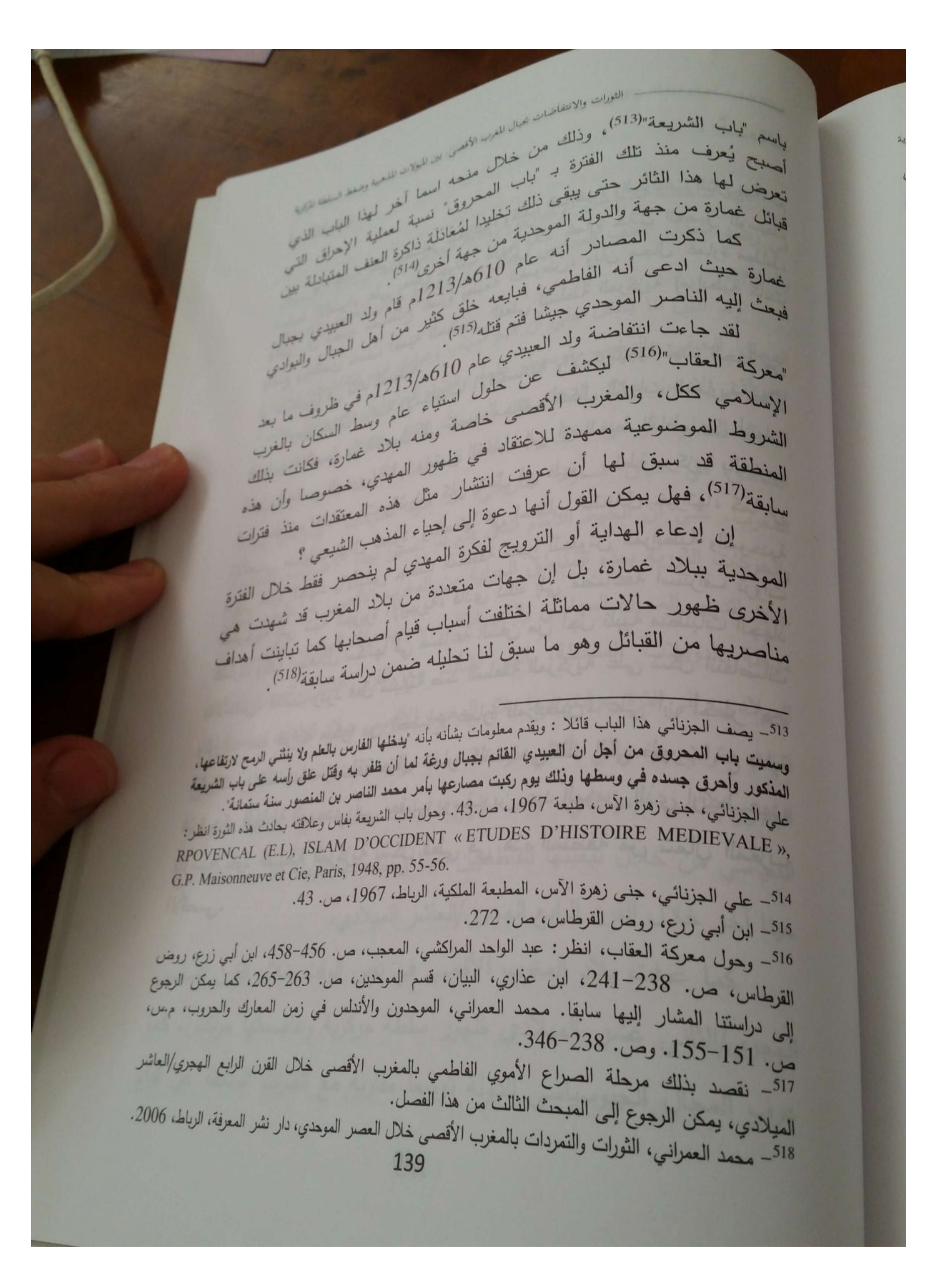
وهكذا كانت للشخصية "الكاريزماتية" للثائر العبيدي أثرا على مستوى ضمان تعلُّق قبائل بلاد غمارة وتشبثها به خصوصا إذا ما علمنا بالمكانة المتميزة التي كان يحتلها الزهاد والمتصوفة عند هذه القبائل. فصاحب المقصد الشريف يقدم لنا مجموعة من أعلام التصوف الذين ظهروا في هذه المنطقة ووصل تأثير بعضهم إلى البلاط الموحدي[511]. فلم تكن الأجهزة الأمنية والإدارية الموحدية غافلة عما كان يجري في هذه المنطقة، ولعل ذلك هو ما يفسر قرار السلطة المركزية المتمثل في إصدار الأمر بإلقاء القبض على العبيدي واعتقاله حيث تم إعدامه وحمل رأسه إلى الخليفة الناصر بالعاصمة مراكش حيث أمر بإرجاعه إلى مدينة فاس فتم بعد ذلك تعليقه في إحدى أبوابها[512].

يمكن القول أن خطورة هذه الثورة لا يمكن حصرها فقط على مستوى الأسلوب الذي تم به القضاء على زعيمها، بل إن هذه الخطورة كانت لها أبعاد أخرى أكثر عمقا وتتمثل في استمرارية أثر هذا الزعيم في الذاكرة المغربية، فهو قد أعطى شهادة ميلاد جديدة لإحدى الأبواب المهمة بمدينة فاس والمعروف

510– يمكن الرجوع إلى المبحث الثاني من هذا الفصل. كما أن اهتمام الناصر بالمشاريع العمرانية بمدينة فاس قد فرض على ما يبدو على المسؤولين مضاعفة مداخيل خزينة الدولة الضريبية، ولا يستبعد أن تكون المناطق المجاورة لفاس هي المستهدفة بالدرجة الأولى من هذه العملية مما جعل جبال ورغة تكون منطلقا للثورة قبل انتشارها في بلاد غمارة. ومن بين هذه المشاريع نذكر إتمام إعادة بناء الأسوار التي بدأ بإنجازها الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور، كما أشار صاحب الدوحة المستبكة في ضوابط دار السكة إلى بنائه لدار السكة بفاس. انظر حول هذه المشاريع وغيرها على عهد الناصر بفاس : الجزنائي، جنى زهرة الأس، ص. 43–44، و92–93، أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق حسين مؤنس، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1960، ص. 51

511– فقد أشار صاحب المقصد الشريف إلى أحد المتصوفة، بمنطقة بلاد غمارة يعرف باسم "أبي داود مزاحم"، أرسل من وراءه الخليفة "أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن" إلى مراكش تبركا به لإزالة مرض أَلَمَّ به، فكان علاجه على يديه. وهذا ما يفسر اهتمام الموحدين بهذه المنطقة على مستوى تتبع أخبار زُهَّادها أو الأفراد الذين يتميزون عن باقي فئات المجتمع الغماري سواء كانوا من المتعاطين للسحر والكهانة، أو كانوا من أهل الزهد والتصوف. البادسي، المقصد الشريف، ص. 53–54.

512– ابن أبي زرع، الذخيرة، ص. 38.



باسم "باب الشريعة"[513]، وذلك من خلال منحه اسما آخر لهذا الباب الذي أصبح يُعرف منذ تلك الفترة بـ "باب المحروق" نسبة لعملية الإحراق التي تعرض لها هذا الثائر حتى يبقى ذلك تخليدا لمُعادلة ذاكرة العنف المتبادلة بين قبائل غمارة من جهة والدولة الموحدية من جهة أخرى[514].

كما ذكرت المصادر أنه عام 610هـ/1213م قام ولد العبيدي بجبال غمارة حيث ادعى أنه الفاطمي، فبايعه خلق كثير من أهل الجبال والبوادي فبعث إليه الناصر الموحدي جيشا فتم قتله[515].

لقد جاءت انتفاضة ولد العبيدي عام 610هـ/1213م في ظروف ما بعد "معركة العقاب"[516] ليكشف عن حلول استياء عام وسط السكان بالغرب الإسلامي ككل، والمغرب الأقصى خاصة ومنه بلاد غمارة، فكانت بذلك الشروط الموضوعية ممهدة للاعتقاد في ظهور المهدي، خصوصا وأن هذه المنطقة قد سبق لها أن عرفت انتشار مثل هذه المعتقدات منذ فترات سابقة[517]، فهل يمكن القول أنها دعوة إلى إحياء المذهب الشيعي ؟

إن إدعاء الهداية أو الترويج لفكرة المهدي لم ينحصر فقط خلال الفترة الموحدية ببلاد غمارة، بل إن جهات متعددة من بلاد المغرب قد شهدت هي الأخرى ظهور حالات مماثلة اختلفت أسباب قيام أصحابها كما تباينت أهداف مناصريها من القبائل وهو ما سبق لنا تحليله ضمن دراسة سابقة[518].

513- يصف الجزنائي هذا الباب قائلا : ويقدم معلومات بشأنه بأنه "يدخلها الفارس بالعلم ولا ينثني الرمح لارتفاعها، **وسميت باب المحروق من أجل أن العبيدي القائم بجبال ورغة لما أن ظفر به وقتل علق رأسه على باب الشريعة المذكور وأحرق جسده في وسطها وذلك يوم ركبت مصارعها** بأمر محمد الناصر بن المنصور سنة ستمائة". علي الجزنائي، جنى زهرة الآس، طبعة 1967، ص.43. وحول باب الشريعة بفاس وعلاقته بحادث هذه الثورة انظر:
RPOVENCAL (E.L), ISLAM D'OCCIDENT « ETUDES D'HISTOIRE MEDIEVALE », G.P. Maisonneuve et Cie, Paris, 1948, pp. 55-56.

514- علي الجزنائي، جنى زهرة الآس، المطبعة الملكية، الرباط، 1967، ص. 43.

515- ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 272.

516- وحول معركة العقاب، انظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص. 456-458، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 238-241، ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص. 263-265، كما يمكن الرجوع إلى دراستنا المشار إليها سابقا. محمد العمراني، الموحدون والأندلس في زمن المعارك والحروب، م.س، ص. 151-155. وص. 238-346.

517- نقصد بذلك مرحلة الصراع الأموي الفاطمي بالمغرب الأقصى خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، يمكن الرجوع إلى المبحث الثالث من هذا الفصل.

518- محمد العمراني، الثورات والتمردات بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي، دار نشر المعرفة، الرباط، 2006.

استنتاجات :

بالاعتماد على مصادر جغرافية، وكتب المناقب، والحوليات التاريخية، تم تسليط الأضواء على بعض جوانب تاريخ بلاد غمارة خلال العصر الوسيط، وتبين أن تحديد مصطلح غمارة يطبعه الغموض، وبأن مجال غمارة مطاط، يتسع ويتقلص حسب أهمية الحضور الفعلي للسلطة المركزية (مرابطية كانت أو موحدية) في تلك المنطقة.

ومن خلال دراسة الإمكانيات الاقتصادية والاستراتيجية لهذه الجهة من المغرب الأقصى تَمَّ التوصل إلى تفسير مختلف أشكال الثورات الغمارية خلال القرن السادس الهجري/12م. وانتهى التحليل إلى أن الخيط الناظم بين أسباب قيام مختلف الانتفاضات والثورات كان يتمثل في ظهور سلطة مركزية بالمغرب الأقصى ضايقت قبائل غمارة ونافستها في احتكار استغلال خيراتها، كما أن بروز فكرة الجهاد بالأندلس جعلت المنطقة معبرا للجيوش المرابطية والموحدية المتوجهة إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، فأدى ذلك إلى مضاعفة استنزاف ثروات غمارة، وكذا استغلال سكانها في صناعة السفن من أجل تلبية متطلبات الجهاد بالأندلس. فقامت ردود فعل متباينة ضد السلطة المركزية على شكل انتفاضات وثورات منذ فترات مبكرة من إخضاع غمارة للمرابطين، على أن أخطر هذه الثورات والانتفاضات بمنطقة جبال غمارة كانت هي تلك التي ظهرت مع بداية فترة حكم الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الذي ارتبط عهده بترسيخ نفوذ السلطة المركزية بشكل فعلي في هذه المنطقة من شمال المغرب الأقصى.

خاتمـــة :

لقد ساهمت نصوص الإخباريين وكتابات مؤلفي كتب المسالك والممالك في رصد أشكال العنف السياسي بجبال درن وغمارة خلال العصر المرابطي والموحدي.

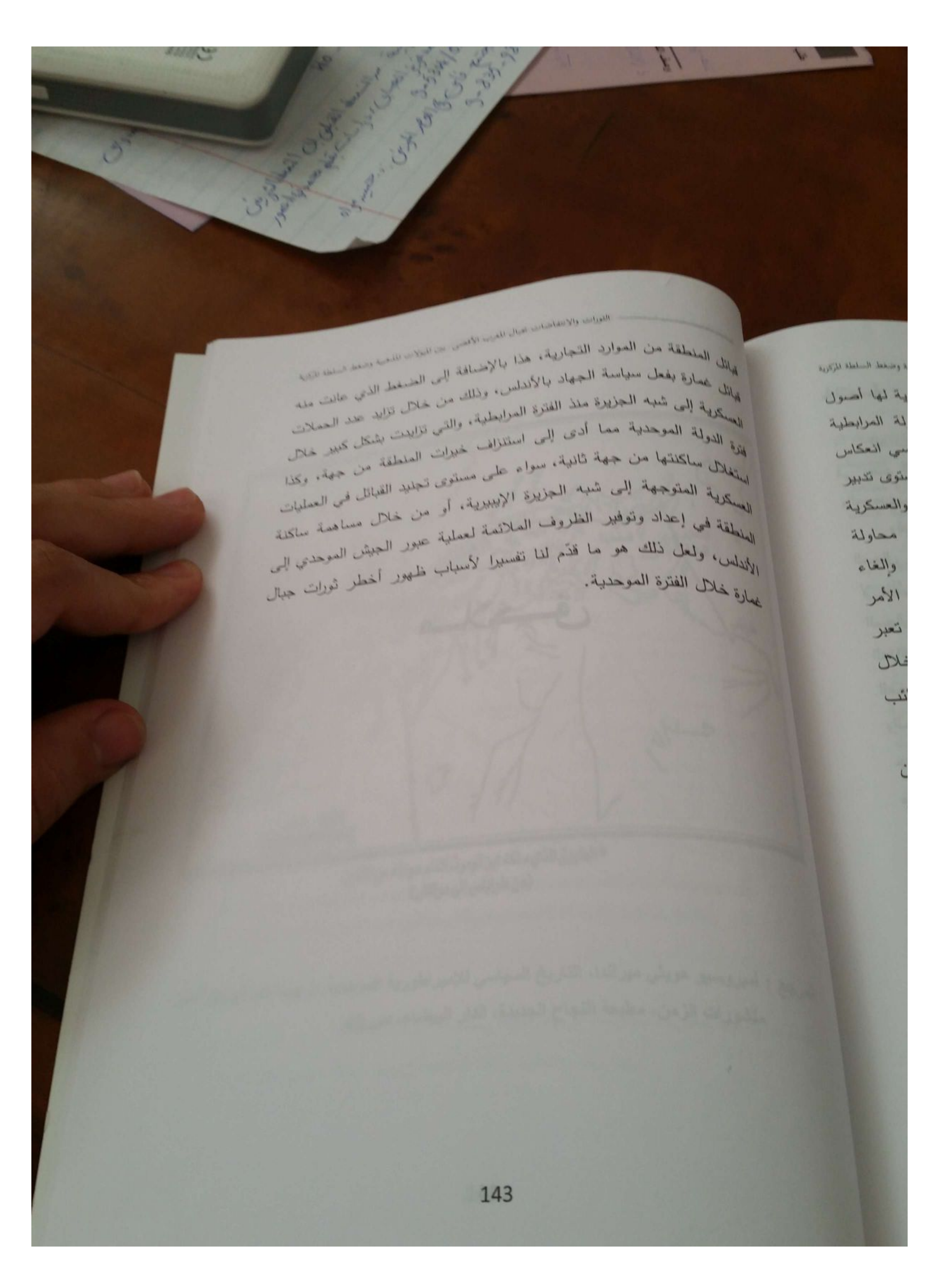
وقد تبيّن لنا بشكل جلي أن فهم أسباب وعوامل قيام انتفاضات وثورات المجال الجبلي بالمغرب الوسيط عامة والفترة المرابطية والموحدية خاصة لا يتأتى إلا من خلال البحث عن الموروث الثقافي للقبائل المستوطنة لهذا المجال الجبلي، أو من خلال رصد لأهم المحطات التاريخية التي عرفتها هذه المناطق في سياق مسارها التاريخي منذ فترة الفتوحات الإسلامية ببلاد المغرب. على أنّ الخيط الناظم الذي قدّم لنا تفسيرا لهذه الاهتزازات السياسية والحركات الثورية بهذه المناطق الجبلية من المغرب الأقصى هو ظهور شكل جديد لتدبير المجال السياسي والذي انتقلت بموجبه بلاد المغرب الأقصى من مرحلة الدويلات المستقلة، التي نشأت مع القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، إلى فترة عرفت فيها بلاد المغرب الأقصى ميلاد كيانات سياسية لها امتداد ترابي ومجالي أكثر توسعا مما عرفته المنطقة منذ القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، وبعد ظهور كيانات محلية غير مستقلة بنفوذها السياسي من خلال تبعيتها للفاطميين حينا وخضوعها للدولة الأموية بالأندلس حينا آخر خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي،

كما عرفت بلاد المغرب الأقصى في نفس الوقت خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ظهور سلطة مركزية وعاصمتها مراكش، كما عرف المجال الجيوسياسي للدولة توسعا مقارنة مع الفترات السابقة عن قيام

الدولة المرابطية. كما عرفت هذه الفترة كذلك صعود دولة مركزية لها أصول قبلية أمازيغية مغربية من خلال العصبية الصنهاجية مع الدولة المرابطية والعصبية المصمودية مع الدولة الموحدية. فكان لهذا التحول السياسي انعكاس سلبي على الاستقلالية التي كانت تتمتّع بها القبائل الجبلية على مستوى تدبير شؤونها الاقتصادية أساسا حيث حلّت الدولة بثقل أجهزتها الإدارية والعسكرية سواء عبر فرض الضرائب على ساكنة هذه الجبال، أو من خلال محاولة السلطة المركزية لمنافسة القبائل في استغلال ثرواتها الاقتصادية وإلغاء الاحتكار القبلي لكل الموارد الاقتصادية بالمجال الجبلي، سواء تعلق الأمر بالمداخيل المترتبة عن النشاط التجاري عبر المسالك والطرق التي كانت تعبر هذه المناطق الجبلية، أو من خلال استغلال غابات المنطقة، وكذا من خلال فرض ضرائب على ساكنة المنطقة مما جعل من عملية تحصيل الضرائب وجبايتها فرصة مواتية لاندلاع أشكال متعدّدة للانتفاضة والثورة.

وإذا كانت الحركة التومرتية قد حاولت إثارة غضب مصامدة جبال درن ضد السلطة المركزية المرابطية، من خلال تحريضهم على عدم أداء الضرائب لخزينة الدولة، مما فسح المجال أمام ظهور حالة من العصيان المدني ضد أجهزة الدولة، التي وجدت نفسها مجبرة على الدخول في مواجهات مع قبائل جبال درن مما أدى إلى تأجّج الوضع بالمنطقة الشيء الذي دفع بانتقال الحركة التومرتية من إطار التنظيم إلى العنف الثوري من خلال نقل العمليات العسكرية من جبال المصامدة إلى العاصمة المرابطية مراكش.

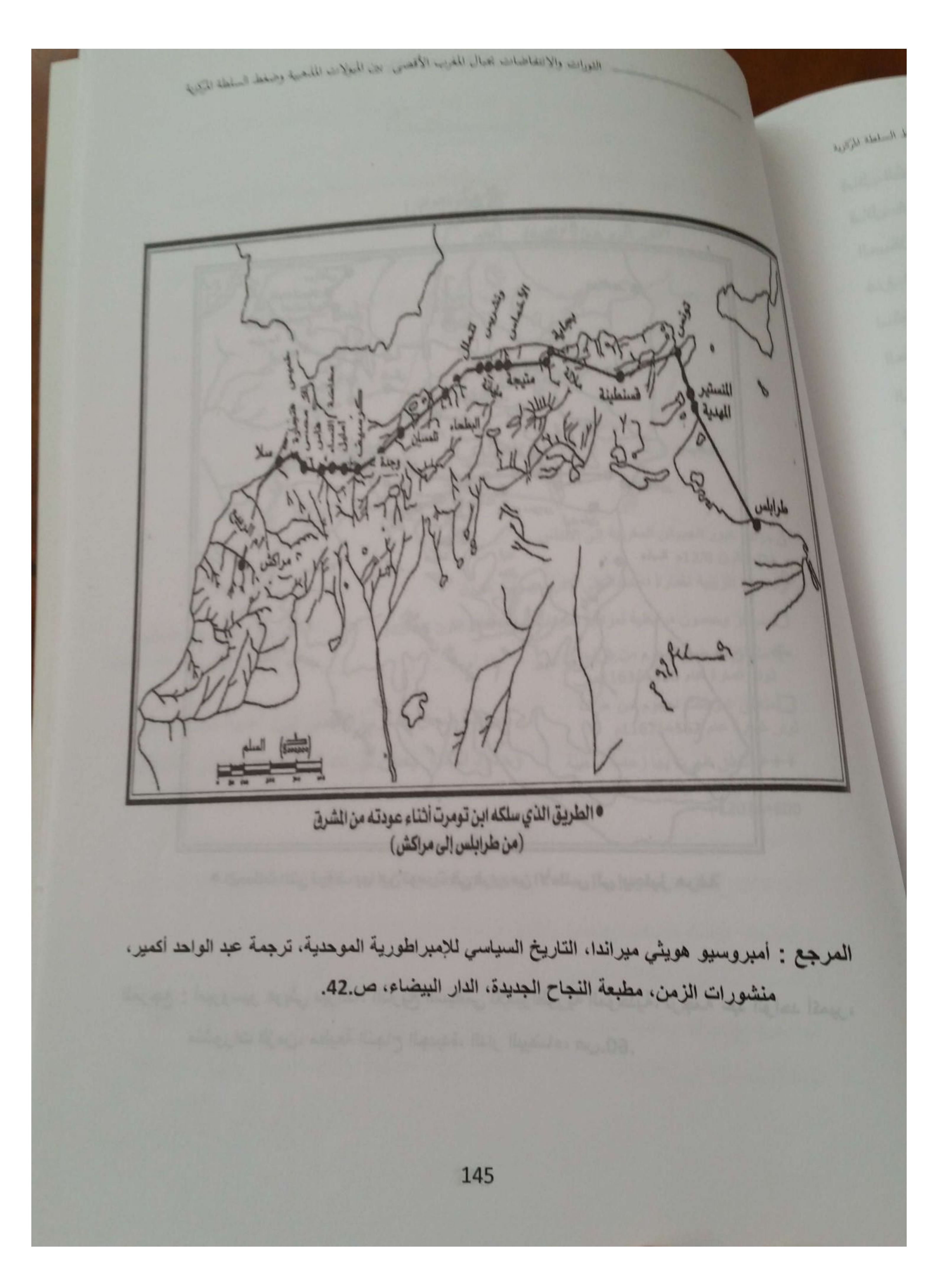
أما منطقة جبال غمارة فإن تأثير ظهور سلطة مركزية كان واضحًا على مستوى تراجع نفوذ قبائلها وذلك من خلال بناء مجموعة من الحصون على طول حدود بلاد غمارة منذ العهد المرابطي والتي أدت إلى تقليص استفادة



قبائل المنطقة من الموارد التجارية، هذا بالإضافة إلى الضغط الذي عانت منه قبائل غمارة بفعل سياسة الجهاد بالأندلس، وذلك من خلال تزايد عدد الحملات العسكرية إلى شبه الجزيرة منذ الفترة المرابطية، والتي تزايدت بشكل كبير خلال فترة الدولة الموحدية مما أدى إلى استنزاف خيرات المنطقة من جهة، وكذا استغلال ساكنتها من جهة ثانية، سواء على مستوى تجنيد القبائل في العمليات العسكرية المتوجهة إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، أو من خلال مساهمة ساكنة المنطقة في إعداد وتوفير الظروف الملائمة لعملية عبور الجيش الموحدي إلى الأندلس، ولعل ذلك هو ما قدّم لنا تفسيرا لأسباب ظهور أخطر ثورات جبال غمارة خلال الفترة الموحدية.

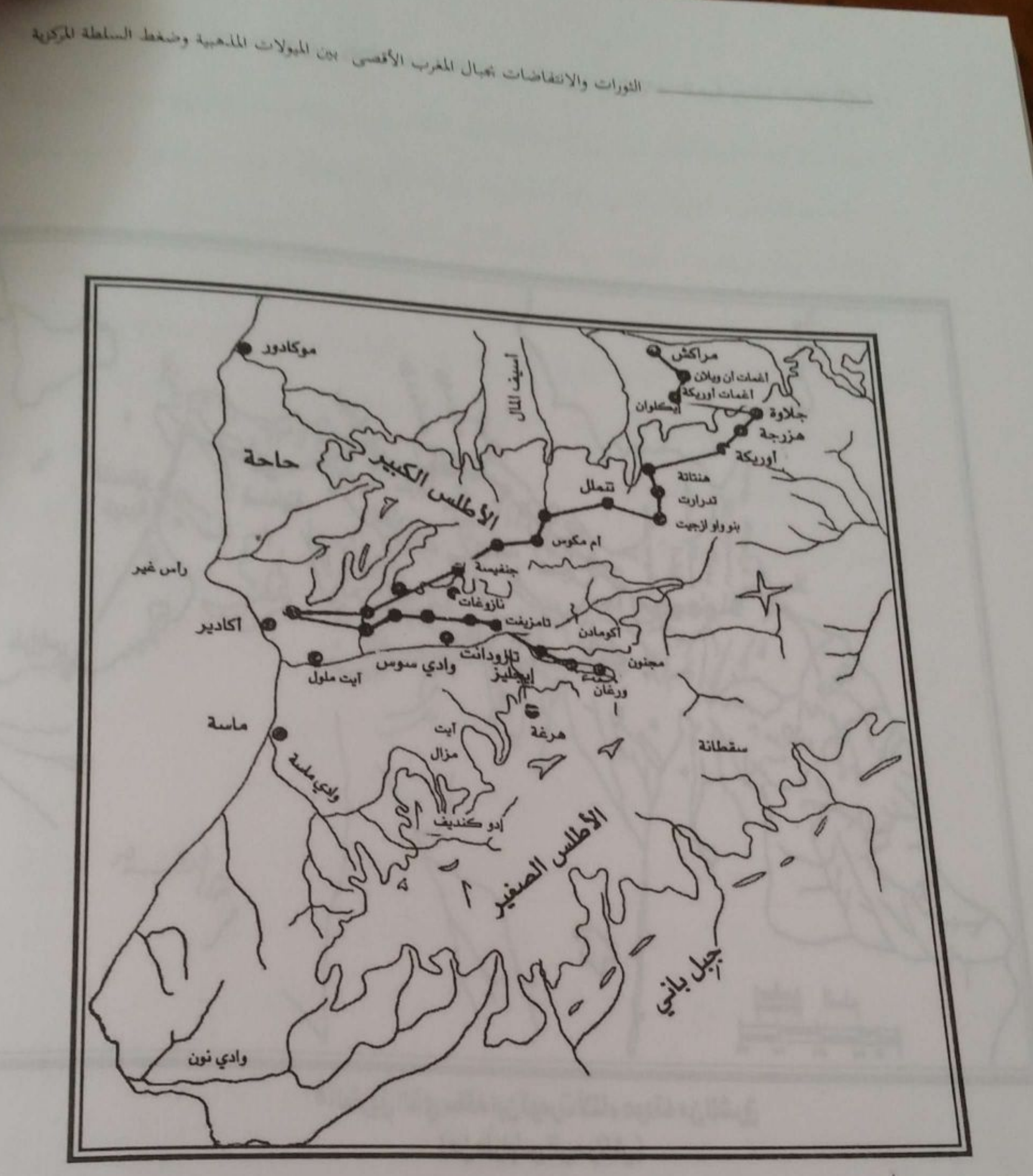


ملاحق



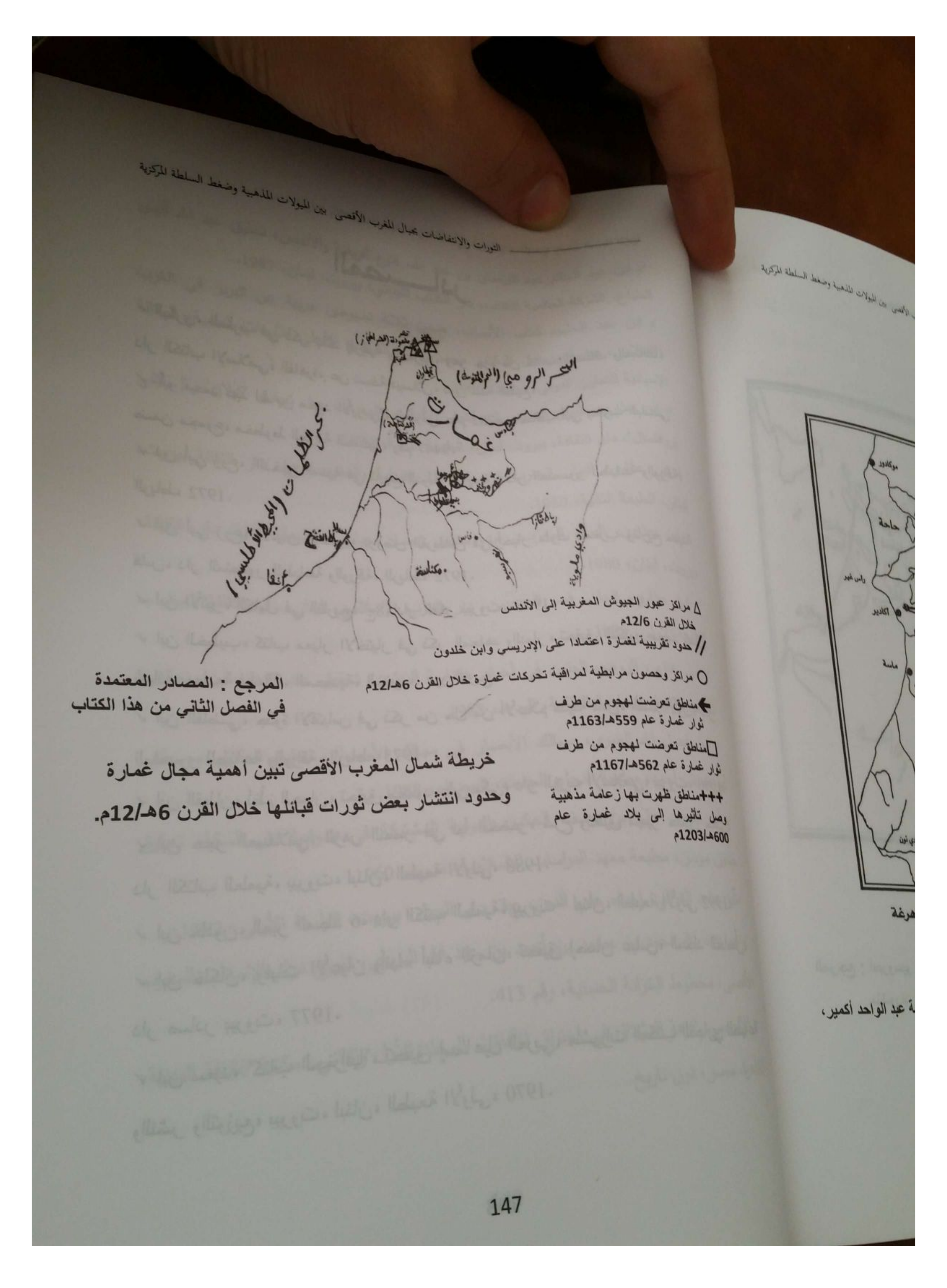
● الطريق الذي سلكه ابن تومرت أثناء عودته من المشرق
(من طرابلس إلى مراكش)

المرجع : أمبروسيو هويثي ميراندا، التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، ترجمة عبد الواحد أكمير، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص.42.



• المحطات التي توقف بها ابن تومرت في فراره من الأطلس إلى إيجليز هرغة

المرجع : أمبروسيو هويثي ميراندا، التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، ترجمة عبد الواحد أكمير، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص.60.



∆ مراكز عبور الجيوش المغربية إلى الأندلس خلال القرن 6/12م

// حدود تقريبية لغمارة اعتمادا على الإدريسي وابن خلدون

○ مراكز وحصون مرابطية لمراقبة تحركات غمارة خلال القرن 6هـ/12م

← مناطق تعرضت لهجوم من طرف ثوار غمارة عام 559هـ/1163م

□ مناطق تعرضت لهجوم من طرف ثوار غمارة عام 562هـ/1167م

+++ مناطق ظهرت بها زعامة مذهبية وصل تأثيرها إلى بلاد غمارة عام 600هـ/1203م

المرجع : المصادر المعتمدة في الفصل الثاني من هذا الكتاب

خريطة شمال المغرب الأقصى تبين أهمية مجال غمارة وحدود انتشار بعض ثورات قبائلها خلال القرن 6هـ/12م.

فهرس الموضوعات

الدكتور محمد العمراني

- ✓ من مواليد مدينة مكناس في نونبر (1962)؛
- ✓ أستاذ باحث في التاريخ بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بمكناس؛
- ✓ حاصل على شهادة التأهيل الجامعي في التاريخ من كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز جامعة سيدي محمد بن عبدالله فاس (2013)؛
- ✓ حاصل على دكتوراه الدولة في التاريخ من جامعة محمد الخامس أكدال الرباط (2003)؛
- ✓ حاصل على دبلوم الدراسات العليا في التاريخ من جامعة محمد الخامس أكدال الرباط (1996)؛
- ✓ صدرت له مقالات في الصحف والمجلات المغربية؛
- ✓ صدر له مؤلفات: - الثورات والتمردات بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي (2005)؛
  - حواضر الأندلس بين الانتفاضة والثورة خلال العصر المرابطي (2006)؛
  - الأندلس بين الخضوع والثورة (نادية للنشر 2015)؛
  - المجتمع والنخبة وتدبير السلطة بالأندلس (نادية للنشر 2015)؛
  - الموحدون والأندلس في زمن المعارك والحرب (نادية للنشر 2015).



نادية للنشر
NADIA Edition
8 زنقة مولاي رشيد رقم 6 - حسان - الرباط
الهاتف : 91 28 73 0537 الفاكس: 82 27 73 0537
nadiaedition@menara.ma

ثمن البيع للعموم
45,00 DH درهم
Prix de vente au public